جامعة الجزائر

معهد اللغة و الادب العربي

صورة المرأة
في روايات عبد الحميد بن هدوقة

رسالة لنيل درجة الماجستير

اعداد الطالبة :
فهيمة الطويل
باشراف :
دكتور محمد ناصر

السنة الجامعية 1985 - 1986

بســـم اللـه الرحمـن الرحـــيم

المقـــد مـــة

اخترت موضوع "صورة المرأة في روايات عبد الحميد بن هدوقة"، لاهتمامي بحركة المرأة ، ولاعتقادي بأن صورتها تعكس بعمق التغيرات الاجتماعية .

ولاهتمامي بالأدب عامة ،وبالعربي الجزائري المعاصر منه خاصة

ولقد شد انتباهي ،الانتاج النثري الغزير الذي واكب السبعينيات وخاصة فن الرواية ،ووجدت في ابن هدوقة خير من يعكس صورة المرأة بأمانة اذا قورن بغيره من الروائيين السابقين ،والمواكبين فلا منيع ، ولا الشافعي ،ولا رضا حوحو ،وصلوا الى ما وصل اليه ،وأنجح هؤلاء الثلاثة رضا حوحو ،في رواية "غادة أم القرى"،التي جرت حوادثها في الحجاز حيث صور المرأة ضحية الصراع الطبقي ،ولكنها بعيدة عن الواقع ،في جمودها وسلبيتها وخضوعها التام للعادات والتقاليد .

أما من المواكبين فالطاهر وطار على سبيل المثال قد أهمل صورة المرأة في " اللاز " و " الزلزال " ،أما في "عرس بغل " ،فقد أظهرها كصورة جزئية (البغي) ،وكصورة رمزية ،وفي الجزء الثاني للاز " العشق والموت في الزمن الحراشي " أظهر المرأة المناضلة لأول مرة ،وان قدمها منحرفة أخلاقيا ،وقدمها رمزا أيضا .

ومن الصعوبات التي لقيتها في هذا البحث الذي استغرق أكثر من ثلاث سنوات ،أن الروائي حي يواصل الانتاج مما اضطرني - وقد كنت معنية بدراسة

رواياته الثلاث ريح الجنوب ،ونهاية الأمس ، وبان الصبح - أن أضيف إليها الجازية والدراويش بعد نشرها .

وهناك صعوبة أخرى تتمثل في قلة المراجع بالنسبة للموضوع المدروس ،والمرجع الوحيد الذي يمت بصلة قوية له هو رسالة أحلام مستغانمي لنيل دكتوراه الدرجة الثالثة "المرأة في الأدب الجزائري المعاصر" مع العلم أنني لم أحصل عليه الا بعد محاولات كثيرة ومكثفة ،دامت حوالي السنة .

وقد تضمن هذا المرجع دراسة صورة المرأة في روايتي ريح الجنوب ونهاية الأمس فقط دراسة اجتماعية وأدبية .

وتأتي بعدها الدراسات الثلاث للدكتور محمد مصايف ،"دراسات في النقد والأدب" و"النثر الجزائري الحديث" ،و"الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية والالتزام".

أما الدراسة الأولى ،فتعطينا فكرة عن الرواية الجزائرية عامة ، وقد أفدت منها في التمهيد ، وكذا بالنسبة للدراسة الثانية .

أما الدراسة الثالثة وهي الأهم فقد استفدت منها فيما يتصل بالخصائص الفنية عند ابن هدوقة ،لما يتسم به الناقد من موضوعية في نظري .

أما رسالة سعيدة هوارة "الواقعية في روايات عبد الحميد بن هدوقة والطاهر وطار" ،فلها أهميتها لتناولها بالدراسة لثلاث روايات للكاتب هي نهاية الأمس ،وريح الجنوب ،وبان الصبح ،وقد وقفت مع الباحثة في بعض أحكامها .

أما رسالة الدكتور الأعرج واسيني " اتجاهات الرواية العربية في الجزائر " ،فقد تناولت ريح الجنوب بالدرجة الأولى ،وذكرت نهاية الأمس ذكرا عابرا ،وقد تنوول فيها الروائي كواحد من الروائيين الواقعيين النقديين ،ولذا فمن الطبيعي ألا يطيل معه ،وقد وقفت مع الكاتب في بعض أحكامه المتصلة بنظرة ابن هدوقة ، الى المرأة خاصة .

وقد خصصت عايدة أديب بامية ، لموضوع المرأة في الرواية الجزائرية الفصل السابع من كتابها " تطور الأدب القصصي الجزائري 1925 - 1967 " لكنه جاء شاملا للرواية المكتوبة بالفرنسية مقتصرا على رواية واحدة مكتوبة بالعربية هي "صوت الغرام" لمحمد منيع ، ومع ذلك فقد استفدت من الكتاب فيما يتصل بالتمهيد .

وهناك دراسة جادة للدكتور سيد عطية أبو النجا تتناول الروايات الثلاث الأولى ،وميزتها تكمن في فهمها الأمين للروائي وروياته ، هذا الفهم الذي عكس الاهتمام الحقيقي للكاتب بالمرأة فجاءت صورتها من خلال الدراسة بارزة وهامة ،وجاءت أحكام الناقد موضوعية .

وهناك دراسة لمحمد زتيلي حول بان الصبح ، ودراسة لفرحات شركيت حول الجازية والدراويش تتسمان بالجدية والعمق الى حد .

وبصفة عامة فهذه الدراسات تعتبر قليلة في حق كاتب مثل ابن هدوقة ، وان كانت ظاهرة قلة النقد الجاد ظاهرة أدبية عامة في الجزائر بالنسبة لجميع المبدعين مهما كان شأنهم .

أما عن هيكل البحث فقد قسمته الى مقدمة ،فتمهيد ،فأربعة فصول وخاتمة .

تحدثت في التمهيد عن تطور فن الرواية ،في أوروبا ،وعند العرب

- ملخصة أو مقتبسة في الغالب عن د . غنيمي هلال -،وفي الجزائر ،كما ترجمت للروائي ،وتحدثت عن مكانته ونظرته ،وبأنه لا ينتمي الى أي تيار مستورد ، وان استفاد من كثير من التيارات .

أما في الفصول ،فقد خصصت كل فصل برواية حسب التسلسل التاريخي للصدور ،فكان الفصل الاول بعنوان صورة المرأة في ريح الجنوب ،والفصل الثاني بعنوان صورة المرأة في نهاية الامس ،والفصل الثالث بعنوان صورة المرأة في بان الصبح ،والفصل الرابع بعنوان صورة المرأة في الجازية والدراويش .

وقسمت كل فصل الى مباحث ،حيث قدمت ملخصا للرواية ،فمدخلا فالصورة الجسمية للمرأة ،ثم الصورة الاجتماعية ،فالصورة النفسية ، ثم صورة المرأة موقفا ونموذجا ،فالخصائص الفنية للرواية ،منهية كل فصل بالوقوف عند بعض الملاحظات والاستنتاجات والتعقيبات .

وقد خصصت للخصائص الفنية مبحثا ، على الرغم من سبق التطرق الى شيء منها في المباحث السابقة ،وما تخصيصها بمبحث الا تيسير للدراسة واتمام لما قد يكون ناقصا ،وتعميق لما تم عرضه عرضا سريعا .

أما الخاتمة فأجملت فيها أهم النتائج التي توصلت اليها من خلال البحث .

أما منهج البحث ،فمنهج مركب ،اعتمدت فيه على استنطاق النصوص بالدرجة الاولى ،وقد وجدت أنها كثيرا ما تمزج بين الرمز والواقع ،فجاءت الدراسة مصداق لذلك .

كما اعتمدت على النقد والتحليل والمناقشة حين يتطلب الأمر ذلك ،أما الآراء التي بدت موضوعية عند الكاتب ،وأوافقه عليها ،فأكتفي بعرضها دون حاجة الى وقوف مطول في الغالب .

وفي الأخير أتقدم بالشكر الجزيل للدكتور محمد ناصر الذي اشرف على البحث وساعدني على اتمامه خير مساعدة ،وأتقدم بالرحمة الواسعة لمشرفي المتوفي الدكتور حفني داود ،الذي شجعني كثيرا ،كما أشكر الروائي الأستاذ عبد الحميد بن هدوقة ،الذي كان كريما معي بأحاديثه، وآرائه، وبما وصل اليه من كتابات تتصل بانتاجه الروائي .

وأتقدم بالشكر لكل من ساعدني من قريب أو من بعيد .

وأتقدم بالشكر لزوجي الذي أخذ بيدي .

والله الموفق

والله المعين

تمهيــــــــــــــد

1 - تطــور الروايـــــــة .

2 - مكانــة الروائـــي عبد الحميد بن هدوقـة .

1 - تطـــور الـــروايـــــة .

أ - تطـور الروايـة في أوروبـا : القصـة عموما حكايـة في أول أمرها، والحكايـة قـدر مشـترك بين البشـر(1).

وقد توفـرت كعنصـر قصصي في الملحمة(2)، ومهـدت للنثر القصصـي اليوناني الذي ظهـر في القرنين الثاني و الثالـث بعد الميلاد .

أما الرومانـي منـه فقـد ظهـر، في أواخـر القـرن الأول بعـد الميـلاد وكشـف عن حـال الطبقة الفقيرة في عهـد نيرون في ايطاليـا ،وكان هجائيا ثم انتهى الى تقليد اليوناني ،وحفـل بالخـرافة ،والحمار الذهبي لابوليوس نموذ ج لذلـك .

وفي عصـر النهضة ،نشأت القصـص في أوروبـا ،مستفيـدة من الـتراث اليوناني ،والرومانـي ،والشرقي ،والدين المسيحي ،ومن أشهـر مخاطـرا ت الفترة ،أسطـورة " فاوسـت" .

وقـد تأثـرت هـذه القصـص بمعاني البطـولة في ملاحـم العصـــور الوسطى ،وان نزعـت الـى حـد ،نزعـة انسانيـة في قصـص الفروسيـــة حيث الجانب العاطفي الذاتي . وقصـة " أماديس دي جـولا " نموذج لذلك وفيها أثـر أفلاطـون في الحـب وأثـر الثقافـة العربيـة (3)

---

1 - د علي جواد طاهر مقدمة في النقد الأدبي ،المؤسسـة العربيـــة للدراسات والنشـر بيروت ط 1 ،1937 . ص : 218 .

2 - لمزيد من التفصيل د . غنيمي هلال النقد الأدبي الحديث دار الثقافـة دار العودة ،بيروت 1973 ،ص : 494 .

3 - ظلت المرأة في المجتمع الأوروبي وفي الأدب مهملة حتى القرن الحادي عشر حيث بدأ يظهر خلق الفروسية المرجع نفسه . ص : 207 .

وفي عام 1355 كتب " بوكاتشيو " ،الديكامرن " ،وهي قصص حب ، أعطى الكاتب فيها للحب ماديته ،وروحانيته كما جعل المرأة والرجل يقعان ضحية له على السواء ، وقد أثر بذلك في الآداب الأوروبية حتى العصر الكلاسيكي ، وقد خلط فيها بين الجد والهزل .

ويأتي سرفانتس ليسخر من أدب الفروسية ،من خوارقه ،وزيفه ومثاليته ،وقد ظهر الجزء الأول من قصته " دون كيخوته " سنة 1605م وظهر الجزء الثاني سنة 1615م ،وقد نقل الحوادث الى الهزل وجعل المثال يصطدم بالواقع ،وتقدم في التحليل النفسي ، وصور نموذجا بشريا له جوانبه الخاصة ،وتجاوز مجرد تصوير نموذج عام ،ولكن معاصريه لم يفهموه .

واستمرت قصص الفروسية الى جانب قصص الرعاة في تصويرهما لمثالية الحب ، وانفردت قصص الرعاة بخصائص عدت من عصر النهضة ،وسارت على وتيرة واحدة طوال القرن 16 م وجزءا من السابع عشر ، لانها لم تكن تحتوي على المخاطرات ،وقلت فيها العناصر العجيبة وان لم تتلاش تماما ،وأول من ألف فيها ،الايطالي " سنزار " ،قصة " أركاديا " كتبها سنة 1385 م ، ونشرت في أوائل القرن الخامس عشر ،وقد وصف " سنزار " مناظر متتابعة ، وصور حبا لامثالية فيه ،وجنح الكتاب عامة الى وصف أماكن واقعية في بلادهم .

وفي القرن السادس عشر والسابع عشر ظهر في الأدب الاسباني جنس جديد من القصص ،هو قصص الشطار ، قصص العادات والتقاليد للطبقات الدنيا في المجتمع ، وقصة " حياة لا ساريو دي تورس " عام 1554 المجهولة المؤلف نموذج لها ، وهي متأثرة بالمقامة العربية .

وازدهرت الكلاسيكية في القرن السابع عشر (1) وأثرت قواعد العقلية في المسرح وعني فيه بالتحليل النفسي ،وسرت العدوى الى القصة بعد أن دعا النقاد الى تصوير المحتمل ؛

وقد اهتمت قصة السيدة " لافابيت " ،" أميرة كليف " المنشورة عام 1678 ، بالجانب العاطفي ،وهناك من يؤرخ لبداية الرواية الفرنسية بها (2)

ولكن النظرة الى الرواية كمسلاة ،أخرت نهوضها وان أكسبتها حرية في الهجاء والقول ،فحطمت معالم التجديد والثورة في القرن الثامن عشر قبل الأجناس الأخرى .

ونشأت قصص مخاطرات حديثة تهجو مختلف الطبقات ،وتعرض صور المجتمعات ونظمها ،وتتعمق في الحالات النفسية أكثر ، ويعد " لوساج " رائد هذا النوع ،وخاصة في قصة " جيل بلا " التي ظهرت كاملة عام 1747 ، وتمثل فيها طابع قصص العادات والتقاليد بمعناها الحديث ،وانتفع لوساج فيها بقصص الشطار .

وبعد لوساج أصبح الوصف وسيلة لكشف الحقائق ،والنفسيات والعلاقات الاجتماعية ، لدى فئات معينة ،قصد انصافها ،وصارت القصص بذلك ذات صبغة ديمقراطية .

وبعد العناية بالنوع الانساني ،أي بالطبقات الاجتماعية وحاجاتها

---

1 - في هذا القرن فقط أنتج الكتاب على حسب القواعد الكلاسيكية ،وفي اللغة الفرنسية . المرجع السابق . ص : 375 .

2 - د علي جواد طاهر . المرجع نفسه . ص : 222 .

كانت اتجاهات حديثة أخرى في أواخر هذا القرن ،عني الكتاب فيهـا بالفرد ونزعاته ومثله وجعلوا منه وحدة الاصلاح في المجتمع ،وهـذه قضية حساسة عند الرومانتيكيين اذ أثرت الفلسفة العاطفية في الأدب والحضارة الحديثة .

وعلى أنقاض الرومانتيكية قامت الواقعية والطبيعية ،أي ما يسمى بالواقعية الأوروبية عموما (1) وحرصت على أن تعكس الواقع ، فـي الفرد والمجتمع،بحيث يختفي المؤلف وراء العالم الواقعي : مصورا اياه تصويرا موضوعيا مكتفيا بتحليل شخصياته باقناع على حسب المناظر النفسيـة في موقف معين ، لأشخاص واقعيين من الطبقة الوسطى ،أو طبقة العمال ، للوقوف على الاعماق في ضوء الأحداث الاجتماعية . كما كشفت القصـة الواقعية ،والطبيعية جوانب الشر في الانسان والمجتمعات المهـددة بتغير في نظامها ،انتظار اللاصلاح .

ويعد "بلزاك" (1799 م - 1850) رائدا في تصويره للواقـع على هذا النحو في (المهزلة الانسانية) (2) .

وعلى اثر ذلك دخلت طبقة العمال في الحياة الأدبية ،فشغلـت مشكلاتهم الآداب العالمية في القرن التاسع عشر وخاصة في النصـف الثاني منه .

ومنذ الواقعية و"الطبيعية " اكتمل مفهوم القصة الحديث ،فابتعدت عن ما هو خرافي وارستوقراطي كما خاضت في جوانب الشر لدى الافـراد

---

1 - د . غنيمي هلال النقد الأدبي الحديث . ص : 392 .

2 - تتألف من 95 جزء يصف فيها المجتمع الفرنسي من عام 1829م الـى 1848م .

والجماعات .

وفي ذلك التقت واقعية " بلزاك " الاجتماعيـة بـ طبيعية " زولا " ،مع الوجودية والواقعية الاشتراكية الجديدة ،وان كان المذهبان الأخيران ، يختلفان في الأسس الفلسفية والنواحي الاجتماعية .

فبين الواقعية الأوروبية ،والواقعية الاشتراكية المادية ،فرق في تصوير الشر ،فالثانية لا توغل في تصوير الشر وتنتصر للخير حتى ولو أدى ذلك الى تزييف الموقف والاولى وكذلك الوجودية تصف الموقف كما هو ،وتختار جانب انتصار الحياة بالايحاء لا بالتزييف ،تاركة للقارئ استخلاص ما يرى من خلال تجربة انسانية صادقة مبررة مع استهداف التنفير من الشر عن طريق تصويره الصادق .

وهكذا نشأت قصص التحليل لأدق الجوانب النفسية ،في اطار علاقات الفرد بالجماعة في عصر وموقف معينين ،وتناولت نفسيات العامة ،وراج هذا الاتجاه في الأدب الروسي منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وأثر في نواحي التحليل النفسي في القصص الأوروبية

وعلى هذا النحو شغلت القصص النفسية والاجتماعية أكثر القاصين في القرن العشرين .

ثم كان اتجاه آخر حديث ،حيث يرمي القاص الى جلاء حالات نفسية خاصة .

ففي مطلع الحرب العالمية ولدت القصة النفسية الحديثة أو القصة الانسانية أو قصة تيار الوعي أو القصة التحليليات الحديثة (1)

1 - د علي جواد طاهر مقدمة في النقد الأدبي . ص: 230 بتصرف.

ومنذ خمسينيات القرن وأكثر عرف ما يسمى بالرواية الجديدة واقترنت باسم آلان روب كرييه .

وقد قيل ان الاتجاهين يتعايشان في القرن العشرين ومن المستحيل أن يختلس أسلوب جديد مكانة الرواية التقليدية التي سيطر عليها المنطق وتستجيب لحاجة " الفهم والتحليل وتلخيص ما فهم (1) .

---

1 - المرجع نفسه . ص : 234 بتصرف .

ب - تطور الرواية العربية : " حركة .. القصص كانت واحدة من الحركات الفنية والعلمية التي نبعت كضرورة حتمية لمحاولة فهم القرآن وشرح آياته والتعرف على أحكامه ،ولهذا لم يكن غريبا أن تبدأ هذه الحركة منذ عصر الخلفاء الراشدين "(1).

وقد جمعت ثلاثة أقسام من القصص :

1 - الأساطير ،والروايات ،ذات المضامين الدرامية ، والتي عرفها العرب عن أبطالهم القدامى منذ خلق الله آدم الى عام الفيل وأحداثه.. ويقف على قمة هذا القسم كتاب التيجان لوهب بن منبه ...

2 - أساطير ،وروايات ،موجهة ،أي راعى مجموعها أن تساير الروح الاسلامية ... ويقف على قمة هذا اللون كتاب أخبار ملوك اليمن لعبيد بن شرية الذي يحوي مجالسه مع معاوية ...

3 - حكايات السيرة ،وهي حكايات تتعلق بحدث واحد هو الاسلام ،وشخص واحد هو محمد (ص) الا أن هذه الحكايات تبدأ منذ يتخيل جامعوها أن هناك صلة بين ما يروون والرسالة الجديدة فهي تأخذ من الكتب الأخرى ما يخدم هذا الحدث ويتركون ما عداه "(2).

والقصص العربية منها ما هي دخيلة الأصل ، ومنها ما هي أصيلة

ومن القصص الأولى : كليلة ودمنة ،وهي من جنس القصص على لسان الحيوان أو الخرافة ،ذات طابع خلقي وفني ،يهدف الى تعليم الملوك الحكم ،والرعية الطاعة ،مترجم عن البهلوية ،عن أصل هندي ،وكانت له ترجمات عربية كثيرة في العصر العباسي ،ونظم على منواله الكثيرون

---

1 - فاروق خورشيد في الرواية العربية عصر التجميع طبعة مزيدة منقحة . دار الشروق ،دار القاهرة ،دار بيروت ،دار جدة ،الطبعة الثانية 1975 ص : 77 .

2 - المرجع نفسه . ص : 206 - 207 .

وكذلك ألف ليلة وليلة ،وترجع الى أصل فارسي (هزار أفسانة) ، ومتأثرة في أصلها وقالبها العام بالقصص الهندي ،وفي مقدمتها كثير من قصص الحيوان تشبه قصص كليلة ودمنة . ودونت في عصور مختلفة وعرفت قبل منتصف القرن العاشر الميلادي ،و" الجزء الأكبر من القصص مصري أو ذو طابع مصري لأن الكتاب كما هو بين أيدينا اليوم مدون في مصر "(1) ،والكتاب يغمره الخيال وعالم العجائب والسحر والمخاطرات وقد أثر في الآداب الأوروبية في القرن الثامن عشر الميلادي .

ومن القصص الأصيلة :

المقامة : ومعناها المجلس أصلا ،ثم أطلقت على ما يحكى في جلسة على شكل قصة فيها مخاطرات ، يرويها راو عن بطل ،وقد يكون هذا البطل ،شجاع مغامر منتصر ،وقد يكون ناقدا اجتماعيا أو سياسيا أو فقيها ،عارفا بالدين أو اللغة ،ولكنه في الغالب متسول ماكر ،شغوف بالملذات ،مستهتر ،محتال ذا بديهة وارتجال ،وفي المقامة تصوير عام للعادات والتقاليد عند الطبقات الوسطى والدنيا في كثير من المجتمعات الاسلامية .

ولبديع الزمان الهمذاني المتوفى عام 398 هـ (1007م - 1008 م) الفضل في انشائها ،ثم خطا الحريري (1055 - 1132 م) بها خطوات لم يبلغها أحد بعده ، في النضج القصصي ،فقد اتخذ نموذجا بشريا واقعيا ، بطلا لمقاماته ،وشخصية أبي زيد السروجي البطل تتكرر في

---

1 ـ د . غنيمي هلال . الأدب المقارن . دار العودة ،ودار الثقافة بيروت ط/ 5 . ص : 221 .

مقامات مختلفة لتكشف عن مستويات نفسية مختلفة .

" وقد أثرت المقامات العربية كذلك في الأدب الأوروبي تأثيرا واسعا ،متنوع الدلالة ،فقد غذت هذه المقامات قصص الشطار الاسبانية ،بنواحيها الفنية وعناصرها ذات الطابع الواقعي ،ثم انتقل التأثير من الأدب الاسباني الى سواه من الآداب الأوروبية ، فساعد على موت قصص الرعاة ،وعلى تقريب القصة من واقع الحياة،ثم على ميلاد نقد قصص العادات والتقاليد في معناها الحديث ،وهي التي تطورت فكانت هي قصص القضايا الاجتماعية فيما بعد "(1)

التوابع والزوابع : لابن شهيد (382 - 426 هـ) واذا صح سبقها لرسالة الغفران ،فلها الفضل في البدء برحلة أدبية الى العالم الآخر يشبه العالم الذي جاء في الاسراء والمعراج .

رسالة الغفران لأبي العلاء المعري المتوفي عام 449 هـ (1059 م) رحلة تخيلها ،في الجنة وفي الموقف ،وفي النار ،ليحل في عالم خياله مشاكل ضاق بها في الواقع ،من العقاب والثواب والغفران أو عدمه ، مع كثير من المسائل الأدبية واللغوية التي أوردها ساخرا تارة ،وناقدا لغويا متبحرا تارة أخرى ،والعالم الغيبي قالب عام لا رمزي ،لعب فيه خيال الكاتب دورا فريدا في الأدب العربي ،وأكسب الرسالة طابع قصص المخاطرات الغيبية الفكرية ،ودانته متأثر بالاسراء والمعراج مثل أبي العلاء ،وذلك في الكوميديا الالهية (2) .

---

1 - د . غنيمي هلال . المرجع نفسه . ص : 228 .
2 - د . غنيمي هلال . المرجع نفسه . ص : 230 .

وقصة حي بن يقظان لابن سينا (980 - 1037م) طورها ابن طفيل (506) - 581هـ) ، (1110 - 1185م) ،وفيها جوانب نضج قصصي في الشرح والتبرير والاقناع ،وظلت فريدة في نظر النقاد في الأدب العربي ، رغم طابعها التجريدي الفلسفي ،وقد مزج الآراء الفلسفية الدقيقة بالقصص الشعبي "و . . . عدها كثير من النقاد خير قصة في العصور الوسطى "(1)

وقد ألف على نهجها السهروردي ،كما ترجمت الى اللاتينية واللغات الأوربية ،وخير نموذج للتأثر بها ،بلتسار جراتيان 1501 - 1658 ،في قصة "النقادة" وهي نقد للعادات والتقاليد في عصر المؤلف .

أما القصة العربية الحديثة ،فقد تاثرت بالقديم من الأدب العربي وخاصة جنس المقامة ، ثم بألف ليلة وليلة ،وبالخرافات على لسان الحيوان وأوضح مثل للتأثر بالمقامة "حديث عيسى بن هشام" للمويلحي ،فهناك البطل والرواي ،وعناية كبيرة بالأسلوب ،ومخاطرات ،تربطها شخصية البطل الذي يتصل بشخصيات متعددة . والتأثر بالغرب يظهر في تنويع المناظر ،وتسلسل الحكاية ،وشيء من التحليل النفسي ،وفي صراع الشخصيات مع الحوادث ،ويظهر في النقد الاجتماعي لعهد جديد تصطرع فيه القيم السائدة مع الوعي الاجتماعي الوليد ،ويبرز الصراع عن جوانب من نقد العادات الشائعة في الأسرة ،ونظم الشرطة ، والمحاكم الوطنية والأهلية وفي الحياة العامة ،وينتهي المويلحي الى ضرورة الابقاء على القديم الصالح واقتباس المفيد من نظم الغرب" وهذه نواح لا شك ان الكاتب متأثر في ادراكها وتصورها بالثقافة الغربية ،وبما أثرت في آراء المصلحين في عصره "(2)

---

1 - د . غنيمي هلال النقد الأدبي الحديث . ص : 530 .
2 - د . غنيمي هلال الأدب المقارن . ص : 533 .

ونجد التأثير المزدوج للثقافتين في "ليالي سطيح" لحافظ ابراهيم و "شيطان بنتاؤور" لأحمد شوقي .

وفي قصة "لادسياس" لشوقي ،تظهر عنايته بالأسلوب واعتماده في تطور الحوادث تطورا خارجيا على عنصر الزمن متأثرا بالمقامة وألف ليلة وليلة ،كما تأثر بقصص الفروسية في قصة حب الأمير حماس المصري للأميرة اليونانية ،ويفقد عرشه ،وتخطف ،ويذلل الصعوبات وسنعيد هما ،ويتزوجها .

وأما الخرافة ،أو القصة على لسان الحيوان ،فكان التأثر فيها مزدوجا أيضا ،بكليلة ودمنة و "لا فونتين" ،ولكن القصص المنظومة جعلت وسيلة لتربية النشء ،وللعظة الأخلاقية ،بأسلوب ساخر ،كما في قصص "آداب العرب" لابراهيم العرب ، ومصر عثمان جلال قصص "لافونتين" في كتابة "العيون اليواقظ" التي زعم أنه أخذها رأسا عن "ايسوبس" .

وقد بلغ شوقي بهذا الفن ذروته في العربية حتى اليوم ،فهناك عرض حي للصور ،والتزام المقابلة بين الحيوان كرمز ،والناس كرموز اليهم ،وقصد الى معان خلقية متصلة بروح العصر ،مثل تنبيه الوعي القومي ،وحب الوطن ،ونقد العادات الاجتماعية وتسري روح السخرية المرة في الغالب وقد اعترف في مقدمة الطبعة الأولى للشوقيات بأنه رمى الى السير على نهج "لا فونتين" .

وجاء طور التعريب ،ليكيف موضوعات القصص الغربية مع الميول الشعبية ،ووعي جمهور المثقفين ،وكان الكاتب يحور الأصل ،وقد لقيت رواجا ،بلغتها المتأنقة ،وعلى رأس هؤلاء مصطفى لطفي المنفلوطي ،وعثمان جلال ،وقد سما الأول المتوفي عام 1924 بالتعبير اللغوي .

وبين الحربين العالميتين كانت الترجمة الصحيحة ومن هؤلاء المترجمين الدكتور طه حسين ،والدكتور عبد الرحمن بدوي ،والأستاذ عبد الرحمن صدقي ،والدكتور محمد عوض محمد ومن اليهم . . . وكانت أكثرها من الآداب الغربية ،والأدب الروسي .

" أما القصص العربية الأصيلة في عصرنا فقد أخذت تستقل عن القصص الغربية في موضوعها . وبدأت تعالج مشكلات بيئتنا وعصرنا ،أو تشيد بماضينا.. وان كانت مع ذلك - متأثرة في نواحيها الفنية بالآداب الكبرى والتيارات الفنية العالمية " (1) .

وكان التأثر بالرومانتيكية في منهج قصصها التاريخي ،وفي وصف الجانب العاطفي الذاتي ،وفي الاشادة بالماضي القومي أو الوطني هربا من الحاضر ،ورغبة في التغيير ،ولم نتأثر بالرومانتيكية في دعوتها الاجتماعية الثائرة ،اذ لم تكن الظروف مهيأة لذلك .

وقد تأثر جورجي زيدان " بولتر سكوت " أب القصة الرومانتيكية التاريخية ،ماعدا في جانب الاشادة بالماضي العربي الاسلامي ولعل ذلك لمسيحيته ، أما النزعة القومية والوطنية فقد تجلت عند محمد فريد أبو حديد في قصصه مثل " زنوبيا " و " المهلهل " ،وكذا الأستاذ محمد عوض محمد في قصة " سنوحي " .

وأخيرا بدأت القصة العربية تتأثر بالاتجاهات الفلسفية ،والواقعية في معالجة الحقائق الكبرى أو المشكلات الاجتماعية ،وعلى سبيل المثال قصة " أنا الشعب " لمحمد فريد أبي حديد ، وقصة " عودة الروح " لتوفيق الحكيم ،وقصة " الأرض للأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي ،وكذا قصص الأستاذ

---

1 - د . غنيمي هلال الأدب المقارن . ص : 245 .

نجيب محفوظ المتأثر عن طريق الانجليز ،بطريقة بلزاك وزولا وجول رومان ، في التأريخ للمجتمع بالاسر (1) وفي قصتيه "خان الخليلي" ثم "بداية ونهاية" يتناول في كل منهما تاريخ أسرة من الطبقة الوسطى أثناء الحرب العالمية الاخيرة ثم عقبهما ،وكذا في ثلاثيته "بين القصرين"، ثم "قصر الشوق" ثم "السكرية" ،وهي تصور نماذج بشرية عاصرت أخطر فترة في تطور حياة مصر في العصر الحديث ما بين 1917 - 1944 م .

وقد تأثر أدبنا العربي الحديث باتجاه المواقف و "من رواده عندنا الاستاذ حنا مينة : في قصة المصابيح الزرق ،والاستاذ عبد الرحمن الشرقاوي في قصته : الارض ،وهي أول قصة مصرية تجلى فيها هذا الاتجاه ومن أدب المواقف كذلك ،رواية الحرام" (2)

---

1 - د . غنيمي هلال المرجع نفسه . ص : 246 - 247 .
2 - د . غنيمي هلال الموقف الأدبي . دار العودة بيروت . 1977 . ص: 172 .

هـ - تطور الرواية العربية الجزائرية :

لاشك أن العنصر القصصي متوفر في المقامات[1] العربية الجزائرية ، وكذا في أدب الرحلات[2] ناهيك عن السير الشعبية .

ومع ذلك فنحن لا نستطيع الجزم بمدى تأثر فن الرواية العربية الجزائرية ،بهذه الأصول التراثية ،ولا حتى بالرواية العربية الحديثة.

كما لا نستطيع في الوقت نفسه الجزم بمدى تأثرها ،بالرواية المكتوبة بالفرنسية على يد جزائريين ،ولا بالرواية الأجنبية ،ما لم يقدم الروائيون أنفسهم اعترافاتهم التي تعد ضرورية جدا في مجال المقارنة والموازنة ومع ذلك فان ملاحظة أوجه التشابه والاختلاف ولو بصفة تعميمية ،أو جزئية ممكن فالتأثر عموما حاصل وان احتاج الى دراسات جادة وعميقة ودقيقة مستقبلا للفصل فيه ،خاصة وأن الانتاج الروائي العربي في الجزائر يتزايد يوما بعد آخر .

ولا بأس من الاشارة الى أن الرواية المكتوبة بالفرنسية لجزائريين ،من وجهة نظر غير استعمارية تعود الى سنة 1947 حيث نشرت الكاتبة مارغريت طاووس عمروش[3] " روايتها الأولى بعنوان الزنبقة السوداء" ،وكتابها بمثابة سيرة ذاتية ... أما الرواية في شكلها ومعاييرها الفنية المعروفة فقد ظهرت عام 1950 مع ابن الفقير ... لـ " مولود فرعون " [4]

---

1 - د . عبد الله ركيبي تطور النثر الجزائري الحديث . 1830 - 1974 . المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم معهد البحوث والدراسات العربية 1976 . ص : 73 .

2 - نفس المرجع . ص : 45 .

3 - وقعت الكاتبة روايتها باسم " ماري - لويز عمروش" ،عايدة أديب بامية ،تطور الأدب القصصي الجزائري 1925 - 1967 ترجمة الدكتور صقر ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1982 . ص : 68 .

4 - المرجع نفسه . ص : 60 ، 61 .

وبعد ذلك توالى نشر الروايات ،خلال الثورة التحريرية ، وبعد الاستقلال ،ومن أهم الروائيين نذكر محمد ديب المشهور بثلاثيته : الدار الكبيرة ،والحريق ،والنول ، وبروايات أخرى كثيرة كمجرى نهر على الضفة الأخرى ،ومن يذكر البحر ،ورقصة الملك ،وصيف افريقي .

ورغم استعمال ديب للفرنسية كأداة فان أسلوبه في الثلاثية خاصة ينم "عن أصالته العربية "(1) . ولمولود فرعون ،غير روايته الأولى ابن الفقير الأرض والدم ،والدروب الوعرة ،ولمولود معمري : الهضبة المنسية ، وسبات العادل ، والأفيون والعصا ،ومرور الأب ،ولكاتب ياسين : نجمة والنجمة المضلعة ،ودائرة الانتقام ،ولآسيا جبار ،القلقون ،والقنابر الساذجة ،وأطفال العالم الجديد ،والعطش ، وألف ليلة ،ولمالك حداد :سأهبك غزالة ورصيف الأزهار لا يجيب ،والانطباع الأخير ،والتلميذ والدرس .

وهناك آخرون أيضا ،كرشيد بوجدرة ومراد بوربون . .الخ .

أما فن الرواية العربية الجزائرية فأعتقد أنه يبدأ ب "غادة أم القرى" لرضا حوحو المطبوعة ب " مطبعة التليلي بتونس سنة 1947 "(2)

ولا عجب فالشهيد يعد فاتحة المحدثين (3) في الجزائر في الأدب عامة ،في القصة القصيرة والنقد ،وفي الرواية خاصة . وتليها رواية " الطالب المنكوب " لعبد المجيد الشافعي التي نشرت حوالي عام 1951 في تونس (4) أيضا

---

1 - المرجع نفسه . ص : 256 .

2 - د . عبد الله ركيبي تطور النثر الجزائري الحديث 1830 - 1974 .ص:198 .

3 - عبد المالك مرتاض نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر 1925-1954 ش و ن ت 1983 . ص : 155 .

4 - عايدة أديب بامية تطور الأدب القصصي الجزائري 1925 - 1967 . ص:63 .

وهي "تتحدث عن طالب جزائري عاش في تونس في أواخر الاربعينيات أحب فتاة تونسية وسيطر عليه حبها حتى أنه كان يغمى عليه من شدة الحب" (1)

أما صوت الغرام لمحمد منيع فقد نشرت عن طريق مكتبة ومطبعة البعث قسنطينة 1967 (2) وهي قصة حب بين فتى وفتاة في الريف (3) الجزائري .

وفي السبعينيات اغتنت الرواية العربية الجزائرية بعدد هام من الروايات ،على يد عدد من الروائيين ،كعبد الحميد بن هدوقة ،والطاهر وطار ،اللذين يعدان من أغزر الروائيين انتاجا لحد الآن .

وللطاهر وطار : اللاز ،والزلزال ،وعرس بغل ،والعشق والموت في الزمن الحراشي .

وهي روايات لها أهميتها ،رغم الاختلاف الذي تثيره حول تقييمها ، ولعل ذلك راجع الى النظرة الشيوعية المسبقة التي أراد الكاتب اعطاءها لكتاباته ،ولكن هل نجح في ذلك ؟!

ان نقد امعتدلا في نظري لا يحيد عن التقييم الموضوعي ،اما بحكم الاعجاب أو الولاء ،واما بحكم العداء ،هو وحده الذي يفصل في ذلك خاصة وأن وطار يشير أكثر من موقف حساس بحاجة الى فحص دقيق ونزيه وجريء ومعمق ،كموقفه من النظرة الاسلامية على سبيل المثال .

---

1 - د . عبد الله ركيبي . نفس المرجع والصفحة .
2 - عايدة أديب بامية . نفس المرجع . ص : 69 .
3 - نفس المرجع . ص : 239 .

ولمحمد العالي عرعار ،مالا تذروه الرياح ، والطموح ،والبحث عن الوجه الآخر وله تحت الطبع : زمن القلب ،والنفوس الجلاثمة (1) ،وتروي " مالا تذروه الرياح " قصة رجل ريفي جزائري ،يتنكر لجزائريته وأهله وملته أثناء حرب التحرير ويعيش في فرنسا هاربا من أصالته التي تطارده ،وضميره الذي يموت ،ولا يستيقظ الا بعد الاستقلال فيعود الى الجزائر متصلا بجذوره . (2)

ولعبد الملك مرتاض : نار ونور ،ودماء ودموع ،والخنازير ،ولمرزاق بقطاش : طيور في الظهيرة ،والبزاة ،ولاسماعيل غموقات : الشمس تشرق على الجميع ، والأجساد المحمومة ،وللأعرج واسيني : وقائع من أوجاع رجل غامر صوب البحر ،ولزهور ونيسي : مذكرات مدرسة حرة ، ولجروة علاوة وهبي : باب الريح ،أما رشيد بوجدرة فقد تحول من الكتابة بالفرنسية الى الكتابة بالعربية .

كما أن هناك روائيون يكتبون الرواية القصيرة ،ومنهم على سبيل المثال الجيلالي خلاص ،ومحمد زتيلي ،وادريس بوذيبة ،وعبد العزيز بوشفيرات .

وأغلب روائيينا يتناولون قضايا العصر كما يستلهمون التراث ،بتفاوت كل بحسب زاوية النظر التي يؤمن بها ويمثلها .

ويجري الآن في الدراسات النقدية تصنيف أولي لاتجاهات الروائيين . وأعتقد أنها محاولات لابد منها للوصول الى فرز سليم مستقبلا .

وأعلق على التصنيفات الجارية بكلمة حق جاءت على لسان أحد

---

1 ـ د . محمد مصايف الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية والالتزام الدار العربية للكتاب ش،و ،ن ،ت الجزائر 1983. ص : 285 .

2 ـ المرجع نفسه بتصرف .ص : 286 وما بعدها .

نقادنا العرب حين قال :

" اننا نقف حيارى ... من أننا لا نستطيع تصنيف الرواية المصرية بحسم في خانات محددة حسب مقاييس النقد الأوروبي ومدارسه المختلفة ! فالرومانسية عندنا تأخذ أشكالا وتختلف وتتفق مع الرومانسية الأوربية وهكذا الواقعية والرمزية ... ثم تجتمع بعض ملامح هذه التيارات دفعة واحدة في عمل فني واحد ،ومن ثم لا نستطيع أن نصنف أدبنا الروائي في نفس الخانات الأوروبية الا بكثير من التعسف والزيف والافتعال"[1].

ونفس الحكم أراه يصدق على الرواية الجزائرية ،وعند عبد الحميد بن هدوقة أيضا كما سيأتي فيمايلي من البحث .

---

1 - غالي شكري مذكرات ثقافة تحتضر دار الطليعة بيروت . ط/1 ، 1970 . ص : 165 .

2 - مكانة الروائي عبد الحميد بن هدوقة .

أ - من هو عبد الحميد بن هدوقة ؟

ولد الروائي عبد الحميد بن هدوقة سنة 1925 بالمنصورة ولاية سطيف ،بالجزائر ،وتلقى العربية على يد والده ،أما الفرنسية ، فقد درس الطور الابتدائي منها في قريته .

وبعد ذلك انتسب الى المعهد الكتاني بقسنطينة ،حتى بلغ من العمر سبعة عشر عاما ،فسافر الى مرسيليا عام 1949 ،ونال هناك ديبلوم الاخراج الاذاعي بالفرنسية ، وشهادة تقنية تتعلق بتحويل المواد البلاستيكية ،ثم عاد الى المعهد الكتاني لمدة سنة ،وسافر من جديد، الى تونس حيث قضى أربع سنوات ،نال خلالها شهادة العالمية في الأدب من جامع الزيتونة ،وفي نفس الوقت شهادة مدرسة التمثيل العربي ،من معهد الفنون الدرامية بتونس .

بدأ عبد الحميد بن هدوقة الكتابة في بداية الخمسينيات ،وكانت كتابات ثقافية وسياسية في الجرائد التونسية .

وأول عمل أدبي كتبه سنة 1952 ،هو مقطوعة من الشعر الحر بعنوان " حامل الأزهار "(1).

ناضل الكاتب في اطار حزب حركة انتصار الحريات الديمقراطية وارتقى من عضو ،الى أمين عام ،الى رئيس جمعية الطلبة الجزائريين في تونس.

---

1 - عبد الحميد بن هدوقة ديوان الأرواح الشاغرة . ش . و . ن . ت مطبعة دار البعث قسنطينة 1967 من . ص : 81 الى 89 .

وكان مداوما في الحزب ،غير أنه استغنى عن الراتب بما يكسبه من نشاطه الأدبي .

وفي 18 ديسمبر 1952 ،ألقي عليه القبض ،في تونس ،وكان أمينا عاما آنذاك ،ذهب لتغطية المظاهرات كمراسل لبرنامج (صوت الشعب) الذي يذاع من تونس عن طريق عيسى مسعودي على الساعة السابعة مساء ، وقد شهد الكاتب النساء التونسيات وهن يرمين القنابل على مقر المقيم الفرنسي ، وقد اتهم مع آخرين ،وسجنوا بسجن المحمدية بين زغوان وتونس مدة ثم هربوا .

وفي سنة 1954 ،حيث وقع الانقسام في اجتماع بروكسل ، رجع ابن هدوقة من تونس الى الجزائر في شهر أكتوبر ،واندلعت الثورة في أول نوفمبر ، وقد اتصل به الطرفان حركة انتصار الحريات الديمقراطية وجبهة التحرير الوطني ،المتمثل في تونس ،ولكنه لم يوافق ،لانه كان ضد الانقسام ،وعاد الى قسنطينة ليقوم بتدريس مادة الأدب في المعهد الكتاني " ولم يكن ابن هدوقة في مهنته مدرسا فقط وانما كان مناضلا مما دفع الاستعمار الى ملاحقته "(1)

وأراد الالتحاق بالجبل لكنه لم يكن يستطيع الخضوع للتجربة التي تشترط للانخراط بجيش التحرير الوطني ،فقد كان حساسا جدا ،يصعب عليه القيام بعملية فدائية وربما وكان يفضل أن يتمرن ويقاتل ضمن الجيش أولا ،وبعد أن تعذر عليه ذلك ، اتخذ بطاقة تعريف باسم عبد الحميد مصطفى ،وجواز سفر وذهب الى فرنسا في نوفمبر 1955" ليعمل هناك ، وعلى أثر الجد والتعب نقل الى المستشفى وطلب منه الأطباء تغيير عمله وشجعه ذلك على الاهتمام بالأدب أكثر "(2) و "توجه منها الى تونس

1 - أحمد دوغان مجلة الموقف الأدبي العدد 116 كانون الأول 1980 .ص: 157 .
2 - نفس المرجع والصفحة .

في 1958 حيث انقطع للدفاع عن الثورة الجزائرية ونشر مقالات كثيرة وكتابا عنوانه " الجزائر بين الامس واليوم ،ولعل هذا يلخص في حد ذاته عالم ابن هدوقة القصصي "(1).

وكتب أثناء الثورة في المجاهد حول تفجيرات الذرة في رقان،وكتب في مجلة الشباب الجزائري حول الادب الجزائري المكتوب بالفرنسية ،وغيره من المواضيع ،علاوة على انتاجه القصصي .

كما عمل منتجا مخرجا بالاذاعة التونسية ،أخرج برنامج " صوت الجزائر " فترة من الزمن ،وكان مساعدا في مصالح وزارة الأخبار للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية .

وقد كتب أكثر من مائتي تمثيلية ،أذيعت من باريس ولندن وصوت العرب وتونس والجزائر .

وبعد الاستقلال عمل مديرا للبرامج للاذاعة والتلفزيون الجزائري ،ثم مديرا للاذاعتين العربية والقبائلية ،ثم رئيسا للجنة الانتاج للاذاعة والتلفزيون والسينما ،وهو الآن مستشار ثقافي للادارة العامة .

" وقد تزوج ابن هدوقة بفرنسية أنجب معها بنتا تعيش الآن في فرنسا ،ولكنه لم يكن موفقا في حياته الزوجية فطلق زوجته الأولى واقترن بأخرى جزائرية "(2).

---

1 - د.السيد عطية أبو النجا عالم الفكر المجلد الثالث عشر العدد الرابع ،يناير فبراير ،مارس .1983 .ص: 266.
2 - نفس المرجع والصفحة .

له معها الآن ثلاثة أطفال ذكور .(*)

مؤلفـــات الكاتب المطبوعـــة .(1)

1 - الجزائريين الأمس واليوم - دراسة نشرت باسم وزارة الأخبـار للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية سنة 1959 .

2 - خلال جزائرية مجموعة قصص - نشرت بدار الحياة - بيروت 1960 .

3 - الأشعة السبعة مجموعة قصص نشرت بالشركة القومية للتوزيـع والنشر ،بتونس 1962 .

4 - الأرواح الشاغرة - مجموعة من الشعر الحر - ش . و . ن . ت - الجزائر 1967 .

5 - ريح الجنوب رواية - ش . و . ن . ت . الجزائر 1971 .

6 - الكاتب وقصص أخرى - مجموعة قصص . ش . و . ن . ت 1974 .

7 - نهاية الأمس - رواية . ش . و.ن.ت 1975 .

---

* - جمعت ترجمة الكاتب من المرجعين المثبتين والمصادر التالية .
1 - مقابلتي الأولى للكاتب بتاريخ 25 - 4 - 1983 .
2 - مقابلتي الثانية للكاتب بتاريخ 16 - 5 - 1985 .
3 - من مطبوعات خاصة بالموضوع ،سلمني اياها الكاتب
أ - عبد الحميد بن هدوقة ،معلومات بيبلوغرافية الجزائـر 5 مارس 1985 .
ب - سيرة ذاتية الجزائر 1984 .
ج - عبد الحميد بن هدوقة ، معلومات بيوغرافية ،وبيبلوغرافيـة الجزائر فيفري 1983 .
1 - عبد الحميد بن هدوقة معلومات بيبلوغرافية .

8 - بان الصبح - رواية ، ش . و . ن . ت . 1980 .

9 - الجازية والدراويش - رواية - ش . و . ن . ت . 1983 .

10- قصص من الأدب العالمي - مجموعة قصص مترجمة ش . و . ن . ت . 1983 .

11- العقاب والنسر - قصة للأطفال بالألوان . ش . و . ن . ت . 1985 .

12- قصة في ايركوتسك - مسرحية سوفييتية مترجمة - تحت الطبع .

13- دفاع عن الفدائيين - دراسة مترجمة عن الفرنسية ، سلمت الى منظمة التحرير الفلسطينية في سنة 1975 .

ب - مكانتـــه ، روائيـــــا .

يحتل عبد الحميد بن هدوقة مكانة هامة ، بين روائيي الجزائر والعرب ، والعالم ورؤيته هي التي تخول له تلك المكانة فيما أعتقد ، فهي رؤية صادقة وأصيلة ، فقد وصل الى نضج مكنه من التفتح على العالم ، ، واستلهام التراث في آن واحد ، ومثل هذا التفاعل ، هو المطلب التاريخي المرام (1) .

يقول الكاتب " حاولت فيما كتبته على تواضعه ، أن أعالج نقاط التأزم الرئيسية في الواقع الجزائري بصفة تدخل أكبر قدر من المستقبل في الحاضر ، وتبتعد عن المضامين الجاهزة والأشكال النابعة من مراكز خارجية ، اعتقادا مني بأن الانطلاق من معطيات سوسيو تاريخية محلية لكل قطر عربي لو روعيت في أعمالنا الأدبية لأرجعت لنا شيئا من كرامة ، وجنبتنا كثيرا

---

1 - سمير روحي الفيصل قراءة تقنية الرواية ، وردة الصباح الموقف الأدبي عدد خاص بالواقعية العدد 85 أيار . ص : 148 .

من مزالق الاستلاب فالثقافة العربية التي عاش العالم على كرمها الروحي ما يقرب من ألف سنة لا تستحق هذا الواقع الذي وضعها فيه تخلفنا المادي والسياسي .

ان هذه الاهتمامات هي التي جعلتني في كل أعمالي الأدبية أعمد الى معالجة الواقع المتأزم والجوانب المظلمة في حياتنا الاجتماعية مبتعدا بقدر الامكان عن الاغتباط بما حققناه من ايجابيات "(1) ولن أتوسع في تقييم هذه المكانة ،لأن تقييمها ،متضمن ،فيمايلي ،من البحث .

تتضح في روايات المؤلف ،آثار تيارات متعددة ،لا تغيب بصماتها في تقارب واضح ،حتى انه ليصعب التسليم بسيادة تيار بعينه .

وقد سألت الكاتب عن رأيه فيما ذهبت اليه فأكد بأنه يؤمن " بامكانية تعدد الاتجاهات في الرواية الواحدة "(2).

وظاهرة تعدد التيارات لا تخص المؤلف وحده ،بل هي ظاهرة واضحة في الأدب الجزائري ،سواء المكتوب بالعربية منه أم الفرنسية ،بل والأدب العربي عامة ،بل وتشمل أدب العالم الثالث كله (3)

ويرجع ذلك الى أسباب منها تميز البنية الاجتماعية ، وكذلك الثقافة أو الحضارة أو الذهنية أو المنطق أو الفكر أو الفلسفة ،وحتى التأثر بالتيارات الغربية ، قد حصل ،وظهر ولكنه يظل تأثرا "غير منهجي"(4)

---

1 ـ السيد عطية أبو النجا عالم الفكر . ص : 267 .

2 ـ من مقابلتي الأولى للكاتب

3 ـ عايدة أديب بامية تطور الأدب القصصي الجزائري. 1925- 1967. ص : 83- 84 .

4 ـ د . غنيمي هلال الأدب المقارن . ص : 409 .

فأدبنا الحديث لم يتبع "تيارا فنيا متكامل الملامح "(1) ومن النقاد من تحاشى وضع رواية " ريح الجنوب " مثلا في اطار تيار معين (2) ،ومنهم من حاول تصنيفها في حذر وتحفظ ،ووصفها بأنها واقعية (3) ،مع ما يحمله هذا التصنيف الواسع الفضفاض من تعدد الآن ،وحاول البعض ردها الى تيارات متعددة فقيل عنها بأنها اجتماعية ،وواقعية وصفية ،وفيها شيء من الرومانسية والوجودية (4) ، وقيل أنها واقعية لا تخلو من شاعرية ورمزية (5) ، وهناك من جعل الروائي واقعيا نقديا يتسم بوضوح الرؤية (6) تارة ،وقصورها (7) تارة أخرى ،وهناك من يرى أنه في " ريح الجنوب " و " نهاية الأمس "" لم يخرج .. عن اطار الواقعية الاشتراكية "(8).

---

1 - المرجع نفسه . ص : 416 .

2 - أ - الدكتور عبد الله خليفة ركيبي المرجع السابق . ص : 199 .

ب - الدكتور سيد حامد النساج بانوراما الرواية العربية الحديثة المركز العربي للثقافة بيروت ط/1 . 1982 . ص : 218 .

3 - د . جورج سالم . المغامرة الروائية . منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق 1973 . ص : 67 .

4 - د . محمد مصايف الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية والالتزام . ص : 179 وما بعدها .

5 - د . السيد عطية أبو النجا عالم الفكر . ص : 265 .

6 - الاعرج واسيني اتجاهات الرواية العربية في الجزائر رسالة لنيل درجة الماجستير 81 ،82 جامعة دمشق كلية الآداب قسم اللغة العربية وآدابها اشراف د عبد الكريم الأشتر مكتبة الخنساء . ص : 357 .

7 - المرجع نفسه . ص : 415 .

8 - محمد بوشحيط الكتابة في لحظة وعي ،المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1984 . ص : 89 .

وتعدد التيارات كما يصدق على ريح الجنوب يصدق على الروايات الأخرى ،في نظري ، وفي اختلاف النقاد حول ذلك .

ودراسة الانتاج والاستهلاك والانتشار ،تساعد على ابراز المكانة الحقيقية للكاتب بموضوعية تامة .

انتهى عبد الحميد بن هدوقة من كتابة رواياته الأربع على التوالي حسب ما هو مثبت في نهاياتها .

1 - ريح الجنوب 5 نوفمبر 1970 27 رمضان 1390 .
2 - نهاية الأمس 8 جويلية 1974 .
3 - بان الصبح 1 سبتمبر 1978 الجمعة 28 رمضان 1398 .
4 - الجازية والدراويش 6 أوت 1982 16 شوال 1402 .

وهكذا يكون قد كتب 4 روايات في خلال 12 سنة ، وهو يعد بهذا غزير الانتاج ،اذا ما نظرنا الى غيره من الروائيين الجزائريين عدا وطار، علاوة على أنه ،يكتب ألوانا أخرى من الأدب ،وهو موظف وغير متفرغ لفنه . وجدول الطبعات والترجمات(1) لروايات عبد الحميد بن هدوقة ،يكشف جيدا عن أهميتها ،في الداخل ،والخارج ،وعن مخاطبتها لجمهور عريض قوميا وعالميا .

---

1 - هذا الجدول مأخوذ من المؤلف هاتفيا بتاريخ شهر ديسمبر 1985 .

- ريح الجنوب :

4 ط بالعربية في الجزائر ،والخامسة بصدد النشر .
4 ط بالفرنسية في الجزائر ،والخامسة بصدد النشر .
3 ط بالهولاندية .
طبعتان (2) بالألمانية .
ط واحدة ،50 ألف نسخة بالروسية .
ط واحدة بالصينية .
ط واحدة بالاسبانية .
ط واحدة بالسلوفانية .
ط واحدة بالبولونية .

- نهاية الأمس :

3 ط بالعربية ،طبعتان في الجزائر ،واحدة في تونس .
طبعتان بالفرنسية .
ط واحدة بالهولاندية .
ط واحدة بالبوسمانية . (لغة يوغوسلافية) .

- بان الصبح :

طبعتان بالعربية فيالجزائر .
طبعتان بالفرنسية في الجزائر .
ط واحدة بالألمانية .
ط واحدة بصدد الترجمة للهولاندية .

الجازية والدراويش :

الجازيـــة والدراويـــش :

ط واحدة بالعربيـة في الجزائـــر

- بالفرنسيـة تحت الطبع في الجزائر .

ط واحدة بالروسيـــة في 50 ألف نسخة .

ملخـــص الروايـــة :

في صباح جمعة يتهيأ عابد بن القاضي للذهاب الى الســـوق ، وهو بين القلق والطمأنينة ،مرتاحا الى خطته القديمة ، وان لم يكـــن متأكدا من قبول مالك رئيس البلدية الزواج من ابنته .

أما هي فقد أفاقت غريبة ،كعادتها منذ أن جاءت من أسبوعـين من مدينة الجزائر الى الريف ،مفكرة في تغيير حياتها ،بعد حصولهـــا على شهادتها الجامعية ، وقبل الزواج ،فحياتها بين أهلها حبيسة البيت ، لاتطاق ،وتنفجر بكاء ،وتدخل الام حجرتها حاملة الفطور ،وتشاركها البكاء ، سائلة اياها عن السبب ،ناصحة اياها بالصلاة ،فتستنكر عليها النصيحة ، فتتركها ساخطة ،مرتئية في دخيلتها أن الفرنسية أفسدتها ،ومتسائلـــة ، ان كانت جديرة برئيس البلدية زوجا ،ووالدها يبذل ماله في هذا السبيل ، وهي لا تقوم حتى بخدمة نفسها ؟ .

وتبقى نفيسة مع كتبها ،وآلامها ،وأحلام يقظتهـــا ، حتى تسمع نداء العجوز رحمة صديقة العائلة ،فتستقبلها هي وأمها بسرور ،ويتغير الجـو النفسي بحضور هذه العجوز الفنانة صانعة الفخار ،ويجري الحديــث عن الحرية ،والعمل المنزلي ،والزواج والماضي ،ويوظف الكاتب زيـــارة المقبرة لمناقشة هذا العنصر الاخير .

وأثناء تدشين مقبرة الشهداء ،يحاول عابد اعادة ربط علاقتـــه بمالك ،أما الناس فيفهمون الغرض المزدوج للرجل ،من " المشوي " الـــذي صنعه ،لانه أشاع أن مالكا خطب أو سيخطب نفيسة ،كما فعل معه وزليخة سابقا ،أما مالك فتعود ذكرى حبها قوية لديه ،حين يرى قبرها ، فـــلا يشارك الحاضرين الغناء والرقص والحديث تأثرا ،وصديقه المعلم الطاهر

يخفف عنه ،وبعد أن يدعوه عابد الى البيت ، ويفاجأ بنفيسة ،وشبهها التام بأختها يضطرب رغم حديث والدها ووالدتها والعجوز ، الذى يلمح الى الزواج .

وينصرف ،والناس ،فيسأله صديقه عن نفيسة ساخرا ،فيجيبه بسخرية أيضا ،تكشف الوضع الاجتماعي البائس الذي يمنع الطاهر من الزواج ،لا من نفيسة فقط ،بل من أية امرأة أخرى ،فهو يسكن في غرفة ضيقة بالمدرسة ويبقى منتاظا لانه يحب نفيسة ،وينفس عن غيظه ،بحديثه مع القهواجي عن اعمال مالك ،وعما يقتضيه تطوير وضع المنطقة من مشاريع تستوجب العمل الدؤوب .

خيرة تخبر نفيسة أن والدها قرر تزويجها ،فترفض بحدة تؤلم الامّ ،أما الابُ فلا يبالي ، وتكتب لخالتها رسالة مستنجدة بها ،وتفاجئ رابحا راعي غنم والدها بمقابلته خلسة ،ليضع الرسالة في صندوق البريد بالقرية المركزية ، ويفهم عدم تكلفها معه خطأ ،فيقتحم عليها غرفتها ليلا ، فتطرده وتشتمه ،رافضة الزنا ،رغم أنه يعجبها كرجل .

وعلى اثر ذلك يترك رابح الرعي ،ويصير حطابا ، الى أن يجد عملا أحسن أو يهاجر ،ويعلق الناس على ذلك ،حين يذهب للمقهى ، وحين يخرج منها يلمح العجوز رحمة تصعد عقبة ثم لا تظهر ،فيهرع اليها فيجدها قد سقطت مغمى عليها ،فيسعفها ويحملها الى بيتها ،ويصادف شعبانا في فنائه فيقتله ،ثم تحدثه عن تاريخ القرية ،وعن أمه وأبيه وتقدم له طعاما .

وتمرض العجوز مرض الموت ،فتعودها خيرة ونفيسة ويأتي مالك ، وتستغرق في هذيانها ،في كرابيس وأحلام ،تذكر مالكا بملاجه عندما

وعنايتهما به ثلاثة اشهر خلال حرب التحرير ،وتحتج نفيسة على انعدام الدواء والطبيب ،وتحتضر العجوز فيبكونهما .

يخسر مالك الناس في المقهى ،ويريد عابد احتواءه باقامة الغدوة من ماله وفي بيته فيرفض ، ويحمل ناس القرية الكرماء ما قدروا عليه الى دار الفقيدة ،صدقة على روحها ،وفي السهرة يتحدثون عن العالم الاخر ،وعن الجنة والنار والحساب ،فيهرب مالك من هذا الجو الى الغناء فيلحقه عابد ،وعوض أن يفتح معه سيرة الزواج ،يفتح سيرة الضرائب و "الارض لمن يخدمها" ، وتطلعات العمال ،فيفتح مالك حديثا مضادا عن العدل والاصلاح الزراعي ،فيتركه الى البيت ،فيجد الحديث عن الحلال والحرام في الذهب ،ثم عن الاشتراكية ،ويتخاصم ،وأحد الغلا حين حولهما ،الى ان يقطع الخصومة حفظة القرآن بآية موحية .

أما النساء فتحدثن عن الزواج والطلاق وألبسة الشهرة ، وقصصن حكايات أليمة عن الزواج بالاكراه مما جعل نفيسة تحس بالضيق والغثيان فلجأت الى ادعاء النوم فتحدثن عنها ،عن جمالها ،وزواجها ،وسبب رفضها ،وهبت ريح الجنوب فأطفأت القناديل وذهبت بالغلة وأصبح الناس حزانى للموت والخسارة معا .

واستغل عابد الفرصة ليوسط مالكا ليصالحه والراعي ،فكان على الحياد ولم يرجع رابح ولم يحضر للغدوة الثانية ،التي أقامها عابد في بيته ، حيث قسم مالكا التركة ،فترك الدار لبناء مدرسة ،والأواني تؤخذ الى متحف الصناعة التقليدية بالقرية المركزية ،ومابقي للفقراء .

نفيسة تعود للبحث ثانية عن حل ،تود اقتراح دعوة الخالة ، فتفاجأ بالاب يحدث الام في الامر ،وأن الدعوة تؤجل الى ما بعد

الخطبة فيغمى عليها ،وترى حلما رائعا ،وتفيق على الواقع الأليم ،حيث أمها تبكيها ،ويدخل الوالد ،فتزعم استمرار الاغماء ،نكاية به ، فيأتيها بالطالب الشيخ حمودة ،الذي يرتزق بهذه الطريقة التي لا تخلو من شعوذة ،فيكتب لها حجابا .

وتعود الى التفكير في الحل ،فلا تجد حلا محتملا الا الفرار فتقرر ان تقوم بذلك يوم الجمعة ، بينما يذهب الأب الى المعلم الطاهر ليعرفه بنية مالك ،ويحاول الطاهر مع مالك ، فاذا به ،يبعده عن الموضوع فيجيب عابد بأن مالكا ليس واضحا ولكنه ليس رافضا .

يوم الجمعة تذهب الأم لزيارة القبور ،والأب والأخ الى السوق ،وتأخذ نغيسة ما أعدت من مال وثياب ،وتتنكر في زي رجل وتمضي في الطريق النابي الوعر ،الذي تضيع فيه ،مبتعدة عن المحطة ،ويلدغها ثعبان وتكاد تموت ،لولا الصدفة التي حملت اليها رابحا ،اذ أخرج السم من ساقها ، وطلبت منه أن يجيرها أياما ففعل بسعادة ، واعتنت بها أمه ، وشفيت ،ولكن عجوزا دخلت فرأتها ،فتحدثت عنها وكان ابن القاضي قد أخبر رئيس البلدية والدرك وشاع الأمر بين الناس ،وقد أخبره أحد أعدائه بمكانها وحرضه على العنف فدخل مفاجئا ،وأخرج موساه ،وكاد يذبح رابحا ،فأخذت أمه الفأس ،وعاجلته فسقط ،وأسعفت ابنها ،وكذلك فعلت نغيسة مع والدها ،وتجمع الناس ،فتركته بينهم ،لتعود الى البيت .

مـدخـل :

اقترنت الرواية بمعالجة صورة المرأة ،سواء في أوروبا أو في العالم العربي ،وأول رواية عربية جزائرية ،هي غادة "أم القرى" لرضا حوحو لم تشذ عن هذه القاعدة .

وها هو عبد الحميد بن هدوقة يعطي المرأة مكانتها المساوية للرجل من أول رواية له " ريح الجنوب" معالجا صورتها من الجوانب الخاصة والعامة معا :

1 - أعطى الكاتب صورة أولى هي صورة نفيسة ،التي ترهص بالثورة الاجتماعية ،وتمثل جيل ما بعد الاستقلال وترمز الى الوطن ،والطبقة الوسطى .

2 - وصورة العجوز رحمة التي تكملها ،ذات نزعة تحررية لا استبدادية ، وهي رمز للحضارة العربية الاسلامية ،وان كانت من الجيل الماضي ، الذي يمثل قيما ايجابية أصيلة في معظمها ،وان لم ينج من بعض القيم السلبية وهي أيضا صورة للفقر المدقع الذي تعيشه الطبقة الفقيرة ،وفي هذا تضاد نفيسة ،وهي شخصية ثانية في الرواية .

3 - وصورة خيرة ،تمثل الجانب الجامد من الماضي ،والجيل السابق وموقفها تقليدي في عمومه ، فهي التابع الذليل للرجل ،وهي تضاد شخصية نفيسة ،فكريا ،وتوازيها طبقيا ،وهي شخصية قريبة من الثانية في الرواية.

4 - وصورة البكماء أم رابح ،رمز للطبقة الدنيا التي تنفجر ، وهي شخصية من الدرجة الثالثة ، وتكمل شخصيتي نفيسة والعجوز في ارهاصهما بالثورة الاجتماعية .

5 - صورة الشهيدة زليخة ،ما هي الا امتداد في الماضي لشخصية نفيسة ،وبينما لا تمثل هي الا مرحلة الثورة المسلحة ،حيث المصالحة الوطنية فان نفيسة تبادر بتحقيق التجاوز .

ويجب التنبيه على أن هذه الصور ،صور حركية ، لا نمطية جامدة ، وهي ذات تناقضات داخلية وخارجية ،والتناقض سمة موزعة على جميع شخصيات الرواية بتفاوت ،لأنها سمة مرحلة ما بعد الاستقلال .

الصـــــورة الجسميـــــة

الصـورة الجسميـة لنفيســة :

صـوّر الكاتـب نفيسة جميلـة الى أبعد الحدود وركز على تصويـــر هـذا الجمـال من وجهـة نظـر الآخريـن . " ولاحظت العجـوز لأول مرة أنهـا أمام امرأة لا تعرف مثيلاً لها في هذه القريـة ،امرأة قد تكون عاشـــت تجارب عديدة ولو أنها تحاول الظهور في أغلب الأحيان بمظاهر الفتاة البريئة ،كما لاحظت حسنها البادي في كـل جزء من ملامح وجههـا فها هي ترى خطوطا رقيقة متوازية ترتسم فجأة على جبين نفيســة تعبر عن حزن لا تصوره الكلمات ،وها هي ذي ترى خطا عموديا يرتسم بين حاجبيها في استقامة حجتها ،وها هي ترى على شفتيها الرقيقتين شيئا ساحرا يملأ النفس غبطة وعطفا على صاحبته ،وهي تتحدث ، ثم ذلك الثغر الفاتن ،لا نشوز لأسنانه ،ولا انفراج بينهما ،بياضه الناصع يحدث ببلاغة على أن كبر السن ليس امرا محزنا فقط ثم هذان الهدبان الطويلان اللذان يعطيان للنظرات عمقا وجلالا ،ثم هذان الحاجبان الغريبان ! . . . ليس هناك فتاة فيمن تعرف لها حاجبان كثيف شعرهما بهذه الصورة ! ومع ذلك فهما في هذه الوجنة نموذج فذ للجمال ،وحركات يديها وهي تتكلم . . . ما أشد تعبيرها وانسجامها مع الكلام ! وهذه الخصلة الكثيفة الناعمة المرسلة على الجهة اليسرى من الصدر ، حيث تتقوس قليلا ثم تنزل الى الحزام الأبيض اللامع الجميل ! وهذا الفستان الحريري الأزرق ذو الأزهار اللوزية ،"آه لو أستطيع أن أصنع آنية واحدة توحي لنا ظرها ،بما توحي به هذه الفتاة ! . . . لكنت اذن أسعد امرأة".(1)(2)

---

1 - الصحيح : هذه الأهداب الطويلة التي تعطي .

2 - الرواية . ص : 37 .

انه تصوير يمزج بين المادي والمعنوي ،ويلتقط الاصداء النفسية ويوحي بأن نفيسة شخصية انسانية روائية ، ورمز تجريدي أيضا .

أما مالك في حضور نفيسة فقد كان " ينظر الى الأرض مجتهدا أن لا تنزلق منه أية نظرة نحوها بالرغم من أنه كان يحس وجودها أكثر مما ينبغي ،ويجد لذلك لذة خفية لا تقدر"(1) وحين وصفها لصديقه الطاهر قال أن جمالها " سماوي "(2).

أما رابح فقد بدت له " جميلة بيضاء كالقمر"(3) و" جميلة كالشهد"(4).

وحسب نفيسة ، ومن ورائه هذا الجمال ،قد استقطب هؤلاء الرجال الثلاثة ،الذين يمثلون ثلاث اتجاهات ، ان رئيس البلدية رآها شبيهة بأختها ،وفي ذلك تشبيه للماضي بالحاضر ،وهي كأختها جسدت نقطة ضعفه .

أما رابح فيكتشف بعدها الطبقي عنه ،ومع ذلك يضع نفسه في خدمتها ،وفداها ،وقد دفعته دفعا ايجابيا الى تغيير وضعيته الاجتماعية ، وكذلك المعلم الطاهر ،الذي يكتشف الهوة بينهما ،مما يشحذ اهتماماته السياسية .

وهي تمثل الى جانب ذلك مطلبا نوعيا وقلبيا لهم ، فلو استجابت لمالك لابرأت جرحه العاطفي القديم ، ولو استجابت لرابح لاكتملت سعادته

1 - الرواية . ص ،62 .
2 - " " 68 .
3 - " " 105 .
4 - " " 107 .

التي عرفها في زمن حضورها وإياه ،ولو استجابت للطاهر ،لانمحى احساسه بالعجز والغربة .

ونفيسة تحب الجمال والجميل ،لكنها لا تجعل هذا العنصر جوهريا في مواقفها ، فهي معجبة برضا ،الجميل زميلها في الدراسة ،وهي مأخوذة بجمال رابح ،ومع ذلك فدوافعها الأساسية لاختيار الزوج المناسب دوافع مختلفة تماما .

أما عمر نفيسة فقد حدده الكاتب بسن الرشد أي ثمانية عشر عاما ،وبما أن الرواية تجري في صيف 1964 م، فان ميلادها يكون في سنة 1946م ،السنة التي تلت حوادث ماي 1945م ،وهي الفترة التي بدأ فيها الاعداد للثورة المسلحة عن طريق المنظمة السرية .

أما عمر أختها التي تشبهها تماما فكان قبلها بسبع سنوات أي سنة 1939 ،وهي فترة نشوب الأزمة الاقتصادية ،والحرب العالمية الثانية هذه الفترة التي أنضجت الوعي الوطني في الجزائر خاصة ،وفي جميع المستعمرات عامة .

ونجد أن الكاتب ينبه دائما الى تشابه الأختين ،وتكرار القصة وهو بذلك يشير الى خيط الاستمرار الذي يمسك الحاضر بالماضي ،ويدخل في صياغة الثورة الوطنية ،والثورة الاجتماعية معا ،ومن الجذور .

وهذه السن هي سن المراهقة أيضا ،أي سن بروز الشخصية وتفاعل التناقضات ،ونجد أثرها في شخصية نفيسة المتذبذبة ،على المستوى الخاص والعام أيضا ، اذ أن الجزائر قد أضحت بعد الاستقلال - الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية ولم تكن الرؤية السياسية قد تبلورت بعد .

الصورة الجسمية للعجوز رحمة :

"كانت فتاة عروبا تحمل في صدرها الممتلئ ،وفي شفتيها الياسمين وفي عينيها الممتلئتين أحلاما وآمالا ،في صوتها العذب ... أما الآن فأين هي تلك الفتاة من هذه العجوز المحطمة "(1) ؛ ذراعاها ... تشبهان عودين واهيين لم يبق فيهما الا الجلد يضم العظام والعروق"(2)، يداها ترتعشان ، وتسقط مرتين من المنحدر ،عند نقل التراب ،وترى الثعبان في فناء البيت ،فلا تقدر على قتله . ،انها عجوز في السابعة والسبعين من عمرها تنتظر الموت في مشقة .

ولقد قصد الكاتب شيخوختها ،وموتها ،وهي في ذلك صورة واقعية ورمز ،يقول الكاتب " العجوز رحمة جمع لايجابيات جزائر الماضي ، انها الوجه المشرق للجزائر القديمة هذا الوجه الذي أصوره حتى لا يغيب عن ذاكرة أجيال الحاضر والمستقبل ،وممارستها لفن صناعة الفخار بالاضافة الى معناه على المستوى الواقعي الظاهري يرمز الى فكرة خلق الانسان من الطين وتموت العجوز رحمة تاركة التراب بلا تشكيل ،وفي هذا رمز الى أن الجزائر القديمة لا يجب أن تتحكم في توجيه الجزائر الجديدة"(3) .

---

1 - الرواية ص 138 - 139 .

2 - الرواية ص 125 - 126 .

3 - من مقابلتي الأولى للكاتب .

وأرى أن تجسيد القيم الحضارية المضيئة المستمرة لو كان في شخص شابة لكان أكثر توفيقا وتأثيرا ،لأن الشابة تكون أكثر ايحاء بالحياة ،ومع ذلك فان العجوز رحمة جسد فان وروح شابة لا تشيب ،فلقد خلدها الكاتب عن طريق عطها ،فأوانيها المبثوثة في جميع بيوت القرية ،تستحضر ذكراها ،كما أن أثرها الطيب في جميع النفوس له مغزاه .

فقد كانت نفيسة " تحبها فهي تجد فيها أكثر من فضيلة ،ثم أن حكاياتها وما ترويه من أمثال وطرق وصفاء روحها وقناعتها كل ذلك يجعل نفيسة تحبها ،ويجعل جميع من يعرفها يحبها ويبجلها (1)"،وقد أدركت أثناء مناقشاتها معها "أدركت أنها أمام امرأة لم تمنعها بداوتها من الفقاذ الى حقائق قد لا تخطر على البال "(2) ،ولقد "تلقى سكان القرية نبأ وفاة العجوز بتألم وتأثر بالغين فلقد كانت شخصيتها تمثل في كل خيال نموذجا للمرأة العاطفة ؛ للأم الحنون وأحس كل واحد أن موت العجوز يعنيه قبل غيره "(3) .

الصورة الجسمية لأم رابح :

"لعل أشد من أعجبت بها منهن امرأة جاوزت الأربعين كانت بالرغم من أسمالها البالية جميلة الهيأة ،خفيفة الحركة ،مشرقة المحيا ،وكانت أكثرهن نشاطا ... كانت حينما تقترب من الجهة التي تجلس فيها نفيسة تبتسم لها . ولكنها لم تنبس بكلمة منذ أن دخلت الدار ... انتقل بها

1- الرواية . ص ، 38 .
2- الرواية . ص ، 16 .
3- الرواية . ص ، 171 .

فضولها من الملابس الى الوجه فبدالها جميلا منسجم الأجزاء رغم نضوب الشباب منه ... وحاولت أن تتخيل صاحبته في ملابس أوروبية عارية الرأس وأجهدت نفسها ،محاولة أن تنزع بخيالها عن المرأة أسما لها وفقرها وكهولتها فتصورتها تشبه الى حد بعيد احدى بطلات قصص دوستويفسكي بشعرها الأصفر وعينيها الزرقاوين" (1).

غير أن هذه المرأة الجميلة بكماء ،وقد سبق للكاتب أن وظف رمز الابكم الذي يستعيد نطقه عبر حوادث عنف ،في قصة الأشعة السبعة من المجموعة القصصية التي تحمل كعنوان نفس اسم القصة (2).

وهما رمزان للجماهير المستضعفة التي تملي صوتها في مراحل معينة لتفرض ثقلها ،حيث تبدو الأمور غير واضحة ،أو وشيكة الميل الى الخط الرجعي ، وقد رمز الابكم لفترة 1957 م في الجزائر ،أما البكماء فترمز الى فترة ما بعد الاستقلال .

وسبب بكم أم رابح يرجع الى الشرط الاستعماري ،حيث انتشر مرض (التيفوس) ،في فترة الحرب العالمية الثانية وأخذت الموت الكثيرين ، وتشوه الكثيرون خلال تلك المجاعة .

وسن الأربعين ،التي بلغتها ،هي سن النضج ، وبعث الرسل ، وهي التي يتهيأ فيها الناس للقيادة عادة ،وهي تمثل جيلا متوسطا بين نفيسة والعجوز رحمة ،مثلها مثل خيرة .

---

1 - الرواية . ص ، 173 - 174 .

2 - الأشعة السبعة ش و ن ت ط 2 ، 81 ، ص 9 .

الصـــورة الجسمية لزليخــــــة :

" كانت زليخـة كالوردة " (1) و " كانت فتـاة جميلـة لونهـا يشبـه القمح " (2)

وكان هذا الجمال مما أشعـل حبهـا في قلـب مالك ،وكان عمرهـــــا في سنة 1957 ثماني عشـرة سنـة أي أنها ولدت في سنـة 1939 .

وقـد يرمي الكاتب الى الرمز بها الى تطـور الوعـي فقـد " عجلـت الحرب بانتشـار الوعي لدى الشعب الجزائـري ، ودعمت الحركة الوطنية وفهم النـواب أخيرا امكانيـــة تجاوز مطالب الأمس واحلال برنامج أساسي محلهـا يطـــرح مشكلـة النظـام المقبـل فـي الجزائـر .

وعند نشـر بيـان الشعب الجزائري (فيفري 1943) الذي كان من صنـــع النواب كان الرأي العام مستعـدا لتبنيــه بحماس " (3) .

وقد جعل موتها في سنة 1957 مشــيرا الى " أزمة جبهـة التحريـر الوطني التي انفتحـت في 1957 " (4) . وأدت الى تفسخ الهيئـات القياديـة اثـر رفـض بحـث مشكلـة المحتوى الاجتماعي للجزائـر المستقلـة " مما جعــــل الازمـة أعنـف وأوجـع " (5) .

---

1 - الروايـــــة . ص ، 29 .
2 - الروايـــــة . ص ، 50 .
3 - ميثـاق الجزائـر اللجنـة المركزيـة للتوجيـه . مجموع النصوص المصادق عليهـــا من طرف المؤتمـر الأول لحزب جبهـة التحرير الوطني طبع بمطبعـة جريدة النصر قسنطينـة . ص ، 14 .
4 - نفس المرجـع . ص ، 29 .
5 - نفس المرجـع والصفحـــة .

وهذا التاريخ 1957 يتكرر عددا من المرات في كتابات عبد الحميد بن هدوقة عموما لتأكيد هذا المغزى . والتنبيه الى معنى ثان ،فسنة 1957 ، من السنوات الحاسمة في حرب التحرير ،والكاتب كثيرا ما يشير الى تصاعد الحرب واشتدادها في هذا التاريخ ،اذ أنها كانت منعرجا خطيرا وهو يستعمله سواء في رواياته أو قصصه كرمز أحيانا وكحوادث أحيانا أخرى .

والكاتب أحيانا يهمل الصورة الجسدية لشخصياته الروائية ، ونحن مثلا نفتقد هذه الصورة عند خيرة افتقادا كاملا ،والحقيقة أنه قد وفق في ذلك ،لأن جسد خيرة ليس له أية وظيفة فنية في الرواية .

ولكنه في المقابل يعطي لوحة برقية عابرة لمجموع النساء في المأتم . (1)

---

1 - الرواية . ص، 172 - 173 .

الصـــورة الاجتماعيـــة

الصـــورة الاجتماعيـــة لنفيســـة :

صـوّر الكاتب نفيسـة اجتماعيـا ،ملتصقة بواقـع معقـد ، فهي من أصـل اقطاعي ،برجوازيـة صغيرة ،عاشـت الشوط البرجوازي الكومبرادوري فــي الجزائر ،اثناء الثورة المسلحنة ، وتقيم فيها بعد الاستقلال حيث الارهاص بالثورة الاجتماعيـة ، وبشائر الاتجاه الاشتراكي ؛

وهذا الوضع الذي يجعل الانسان في الجزائر ،وفي العالم الثـالث عموما ،انسانا ممزقا لا يجد الانسجام في هذه التركيبة المهتزة ،جعـــل نفيسـة تحتك بالقيم الاقطاعية السائدة في الريف ،وبالقيم التحرريـــة الفردية والجماعية في المدنية ،بالاضافة الى اللغة الغرنسية التي تثقفت بها ، فمنحتها دراستها بعض التغريب والابتعاد عن جوهر الحضـــارة العربية الاسلامية ،مدينة الاسلام في شخص المسلمين ،فالفتاة تعيـش عوالم ثلاثة متباينة ،عالم الريف وعالم المدينة وعالم الكتب والنص التالـــي يضيء هذه النقطـة تماما " فكرت نفيسـة في كلام العجوز ،وحاولت أن تتصـور جدواه من خلال ما تحلم به من حياة لها في المستقبل ،فلم تجد أي نقطـة للمقارنة بين هذه الحياة الساذجة البسيطة التي يحياها أهلها وكل سكان البادية ،وبين الحياة الحضرية المعقدة التي عاشت منها قليلا لدى خالتها بالجزائر وقرأت عنها الكثير في الكتب والقصص السينمائية ،أين هذه الحياة من حياة " سيسي " الامبراطورة و " الأميرة ثريا " و " اليزابيت تايلور " أو " الأميرة قراس " وغيرهن من الاسماء اللامعة التي تكاد تكون حروفها قـــد قدت من نور ؟ انها لا تفكر في أن تتزوج بالبادية وتحيا فيها حياتها فذلـك

أسفل ما يمكن أن ينزل اليه خيالها ،وخصوصا أنها تعرف قصة أختها زليخة التي رضيت بالزواج من ذلك الفتى القروي مالك الثائر الذي كان سبب قتلهـا والذي هو الآن شيخ بلدية . . . لا ،لا ،هذا لا يكون الزواج بالبادية شيء غريب جدا وبشع الى درجة تصوق واذن ما الفائدة في أن تتعلم خرف البادية ؟ ان الحياة التي تحياها الآن بين أهلها لا تختلف عما قرأته بخصوص عصور ما قبل التأريخ "(1).

فالرواسب الاقطاعية والثقافية التغريبية واضحة في حلم الفتاة ،الذي يذهب بها الى الحياة الامبراطورية وهذه النبتة الرجعية ترمز الى أطماع فئة معينة ، أما رفضها للحياة في الريف فلا أجد أنه كذلك لأن الغربة التي تطوقها ليست خفيفة الظل ،والى الآن فان أغلب المثقفين لا يخصصون للريف سوى زيارات موسمية ،وأكثرهم التزاما ، يقومون بالتطوع لمدة معينة ولكنهم يقيمون بالمدينة .

الصورة الاجتماعية للعجوز رحمة :

ان الفنانين الشعبيين ،كالحرفية العجوز صانعة الفخار ،رغم أنهم ليسوا أجراء ،فلا يمكن وضعهم ضمن الطبقة الوسطى ،بل هم ألصق بالطبقة الفقيرة ،فالعجوز تشكو الجوع ،وهي لا تجد حتى الحاجات الضرورية ،وقد أدرك رابح أن الجوع هو الذي سبب لها الاغماء لا السقطة (2).

والعجوز ورثت الحرفة عن أمها ،حيث أن هذه الحرفة ،تنتشر في الأرياف ،وتمارسها أغلب النساء ،وان كانت تمهر فيها بعضهن ،فيكفين الأخريات.

---

1 - الرواية . ص ،33 .

2 - الرواية . ص : 122 .

ولكن الشيخوخة أثرت على العجوز فصارت تنتج كمية أقل من الأواني وتأخذ مردودا أقل بالتالي ،ومع ذلك فهي تهدي منها ،وهي تقري الضيف، ولا تقبل استضافة الآخرين لها الا تحت الالحاح .

والعلاقات الاجتماعية في القرية فيها حد أدنى من التكافل العام كالهبة والصدقة والاطعام الجماعي في المناسبات ،وكرم الضيافة ،والنجدة، وتبجيل الكبير ،وعيادة المريض ،وحتى البلدية توزع الدقيق ،وهو الغذاء الأساسي ،في الريف ،ومع ذلك فعيش الكفاف غير مضمون لاغلبية سكان القرية. والعجوز التي فقدت كل أهلها وزوجها ،صار لها أهل القرية أهلا ،وصاروا يعاملونها وهم يشعرون كأنها أم لهم جميعا ،وهي تعاملهم كأبناء .

الصورة الاجتماعية لخيرة :

ان كونها زوج عابد بن القاضي ،قد منحها امتيازات مادية ،وان كان نمط المعيشة اليومي بسيطا ،فهي لا تتعرض للحاجة ،ولها مصاغها ومع ذلك فهي تقوم بتربية الدجاج ،لفائدتها الخاصة ، لأن الرجل في الريف عامة ،لا يتولى الا المصاريف الكبيرة فقط ،وهي تقوم بحلب الاغنام وبالخدمة المنزلية ،التي تشكو عبء القيام بها وحدها ، أما في المناسبات فنساء القرية يتعاون كلهن ،وهكذا فغنى زوجها جعلها من جهة كريمة، تتصدق بسخاء ،وتكسب ود الناس ،ولكنه جعلها ،أسيرة النظرة الاستبدادية السائدة التي لا ترى المرأة الا تابعا وخادما للرجل ، ولعل لفقدان أغلب أهلها أثناء الحرب دخل في ذلك ،كما أن بؤس الاغلبية في القرية جعلها تدرك أنها محظوظة ،وعليها الحفاظ على زوجها ،وبالتالي مكانتها.

الصـــورة الاجتماعيـــة لأم رابـــح :

أم رابح من الطبقـة الفقيرة ،حيث ابنهـا يرعى أغنـام عابـد ،مقابـــل مردود عيني ،بحيث يتكفـل عـابـد بالحـد الأدنـى من مصـروفهمـا ، أما هـــي فذات نشـاط وهمة في عملهـا المنزلي ، ممـا يهيئهـا للعمـل حتى خـــارج البيـت وهي تخضـع لسلطـة ابنهـا حتى في القرارات الخطيرة ،يقـول رابـــح "لا ،لا تستطيـع أن ترفـض فأنا الذي أتصـرف عنا "(1).

وعبر الصـورة الاجتماعيـة لهـؤلاء النسـوة رأينـا الصـورة الاجتماعيـــة للقريـة ،أو القـرى عامـة ،في الجزائـر بحيث تنفـرد قليـل من العائـــلات بحيـاة متوسطـة ولا أقـول مرفهـة ،بينمـا تحيـا البقيـة ،في البـؤس والعـوز ، تقـول احـدى النسـاء" لست أدري لماذا لا تكون جميلـة ... الأكـل الطيـــب والراحـة والظـل ... لو ذهبـت أسبـوعا واحـدا الى الحقـل تحصـد لرأيـــت ذلـك الجمـال كيـف يذبـل "(2).

---

1 - الروايـــة ، ص ،252 .

2 - " " 189 .

الصـــــورة النفسيـــــة

الصـورة النفسيـــة لنفيســـة :

وهكذا تجيء صورة نفيســة ،شخصيــة منشطــرة أشتاتــا ومفتقدة الى التكافؤ المنطقي فلا نجد عندها النظرة الواضحة المتسقة في مجملهـــا بل هي أشبه بشخصيـات دوستو يفسكي " شخصيات مزدوجة في نوازعهـــا يتعذر الحكم (عليها) باخضاعها لمنطق معين ،سوى منطق توزعهــــا النفسي بين أشتات الحوادث المتنافرة التي تقع فريسة لها ... ولهذا قـــد يتجاور فيها في آن واحد ، ما هو جليل سام ،وما هو دنيء حقير ، كمـــا يتجاور الحب والبغض كذلك " (1) .

وقد تعمد الكاتب تصويرها كذلك ،مشيرا في السرد عددا من المرات الى تمقدها وازدواجها ،يقول : " لم تكن تفكر في شيء مخصوص ولا في حياة أخرى واضحة الافاق وانما هي تفكر في كل شيء وفي لا شيء " (2) .

لقد عاشت في المدينة عيشة متحررة تحررا واسعا ، فهي تخرج متى تشاء وحتى في الليل ،وتتفسح ،وتذهب للسينما والبحر ،ولها حق الصداقة مع الجنسين ، ولها حق التفكير في المجموع ... ولم ترفض من قيم المدينة سوى الاباحية والتكلف ،وهذه الحرية الواسعة لم تذهب سدى ،فقد منحتها وضوح الهدف من البداية للنهاية ،قالت في حديثها النفسي وهي تفكر في الزواج تفكيرا عفويا " لا ،لا لاأستطيع أن أتزوج الآن ... دروسي ،حياتي هذه يجب أن أنهي دراستي أولا ،وأغير حياتي بعد ذلك " (3) .

---

1 - د . غنيمي هلال الموقف الأدبي . ص ،9 .
2 - الروايـــــة . ص ،9 .
3 - الروايـــــة . ص ،9 .

ولهذا قررت تحمل الغربة مؤقتا حتى تهيئ نفسها ، ولم تكن تخفي عن أمها أمر تحولها ،ولا حتى عن العجوز رحمة صديقة العائلة ، فتذمرها من الوضع عامة ورفضها لبعض الاملاءات بين ،ولكنها تقع في الفخ مبكرا ، وتتعرض لاختبار حرية صعب ،فالوالد يقرر وحده انقطاعها عن الدراسة لتزويجها ،وهذه قمة الغربة التي حاصرتها ، لانها ترمي بكل آمالها عرض الضياع .

وتقول نفيسة " الافق هنا محدب ،لكن ليست كل الافاق محدبة... يتعين علي أن أختار أفقي ،أختار مهما كلفني الاختيار "(1).

فغايتها واضحة في جوهرها ،وان كانت غير محددة في تفاصيلها وهي ان كانت قد أرجأت التطبيق فذلك لفجاجة الظروف وعدم نضجها على كل الاصعدة ،ولهذا فهي وان افتقدت الى الوسيلة الجماعية الثورية المنظمة ،فقد تمردت بحسب ما تسمح به ظروفها القاهرة وطبيعتها التي لم تصل بها الى درجة من الجرأة تواجه بها الوالد بدل الهروب فقد كانت " حائرة وحيرتها أكبر من أن تعود الى سبب واحد . كانت حيرة جافة ،صارمة ، تعبر عن عجزها أمام هذه الغيبيات الكثيرة الخارجية التي تخط للناس مصائر لا مناص لهم من حياتها ،سواء لاءمت آمالهم أم حطمتها ،أبوها يقرر منعها من العودة الى الجزائر ،من مواصلة الدراسة ،يقرر تزويجها ويختار هو من تتزوج به . أمها ترى أن سنها بلغت حدا لم يعد يسمح لها الا بالانزواء في حجرة مظلمة ! القرية لا تهضم حرية فتاة بلغت سن الرشد كأن الرشد انحراف عقلي تقيد فيه الحرية ! الدين أيضا له كلمة حتى في الملبس ،عليها أن تلبس أثوابا لا تسمح للنور بملامسة جزء من ساقيها

---

1 - الروايـــــة . ص ، 201 .

أو ذراعيها أو صدرها ،وليكن الحر شديدا أو خفيفا ذلك لا يهم . الحظ أيضا له كلمته ،عليها أن تذعن لما يقدر لها من حياة ،غيبيات وظـــروف خارجية تتحكم في مصيرها . تقاليد بدائية تقيد سلوكها . . . ماذا عساها أن تفعل وحدها لمواجهة كل ذلك ؟ هل تثور ؟ ولكن أية ثورة ، وفـــي أي اتجاه ؟ فلا فرع هناك للمنظمة النسائيــة ، ولا لشبيبة الحزب ولا غيرهما لكنها مع ذلك لابد أن تثور ،أن تعارض كل سيطرة خارجية مهما كانت (1). ثورتها وحدها هي التي تستطيع تحديد الاتجاه والطريق "(2).

الصـــورة النفسيـــة للعجوز رحمة :

صوّر الكاتب العجوز رحمة ذات نظرة موحدة . شخصية ذات تكافؤ منطقي حتى في تناقضها أحيانا ، وهناك سمتان رئيسيتان يعد امفتاحـــا شخصيتها هما حب العمل ،وحب الناس ،وهما سمتان منقطعتا النظير ،فهي تطمح للابداع رغم سنها ،ولا يردها شيء عن عملها الا الموت ،وهي حتى حـــين تستبعد عابد بن القاضي مثلا من دائرة المستقبل فانها لا تؤذيه ، تماما كما يفعل مالك الذي تعامله معاملة انسانية يثني عليها هو نفسه ،ويظهر أن حبهـــا لأطراف الصراع جميعا قد أوقعها في بعض التناقض ،فهي تحب نفيسة مثلا ، وتتفهم تطلعاتها التحررية مع بعض التحفظات الواقعية ،ولكنها تشعـــــل الأمل في قلب مالك للزواج منها ،وهذا يرضي عابد بن القاضي أيضـــا . وعلى كل فالعجوز أشبه بأم لمالك ،ولناس القرية جميعا ،وهي قد داوت جرحه سنة 1957 أثناء الثورة المسلحة ،ومستعدة لعلاج جرحه العاطفي القديم-الجديد .

---

1 - الصحيـح تكن .

2 - الروايــة ص 88 .

وهي تعتقد أن زواج مالك من نفيسة صعب(1)ولكنه ليس مستحيلا ،اذ واصلت السعي في هذا الاتجاه ، ويبدو أن هذا حدس الجميع ، رغم تذبذبهم ،فمالك لا يخاطبها رسميا ،ولا يتنازل عنها ،وهي لم تصل الى حدود اللارجوع ،والوالد يلعب اللعبة ،لانه يرى نفسه مضطرا اليها ،وليس أمامه غيرها .

وزواج مالك من نفيسة ليس شرطا ان يكون زواج الاقطاع بالسلطة فقد يكون زواج القيم التحررية الشعبية العامة ،بالسلطة الممثلة للانفتاح الاشتراكي أو هو تحالف لفئات الطبقة الوسطى الثورية .

ولذلك جعل الكاتب الاتية الجديدة غير منجزة ، ونفيسة غير مرتبطة بمالك ينأى عن الفخ ، وان بدا الأول وهلة ان العجوز ذات نظرة تقليدية في الزواج .

والعجوز رحمة " رحمة " للجميع ،فقد فتحت خيرة لها قلبها وشكت لها ابنتها ،وفعلت نفيسة معها نفس الشيء فشكت عبوديتها وسخطها ورابح الذي عاش منغلقا طوال عمره ، تهديه الهجاء الأول لتاريخ قريته وعائلته ، فيكتشف أنه كان كأحد الاكباش جهلا ،وهي تقترح تناول الأمور دوما بحكمة وواقعية ومرونة ، وعلى حسب المثل الشعبي " لا تكن حلوا فتبلع، ولا مرا فتدفع"(2) وهو الحل الفعال الذي تراه .

الصورة النفسية لخيرة :

ان خيرة تقدر كونها زوج أغنى رجل في القرية ، ولانه يوفر لها مستوى معيشة ميسورا بالنسبة لاهل القرية الفقراء فهو جدير بأن تخضع له في

---

1 - الرواية . ص ، 38 .
2 - " " 28 .

أفراد العائلة . وهذا الخضوع يكاد يشكل شخصيتها عامة ، فنجد أنهــا مرتفعة النبرة حين تتحدث عن مقاصد الزوج ،ومنخفضة النبرة حين تتحدث عما هو شخصــي .

وهي تؤمن بأن " من لا يحدثه قلبه لا يفيد تذكيره"(1). ولذا لا تحاول اقناع زوجها برفض نفيسة الزواج ، أو حتى اشعارها هي بمسؤولية الأمومة في هذا الموضوع ،كما لم تحاول اقناع ابنتها بالمشاركة فــي العمل المنزلي ،رغم شعورها بالارهاق والغبن ، وكل ما يقع لها تفســره بالقضاء والقدر ،متقبلة اياه ،مخففة عن نفسها بالصلاة ،والبكاء والتصدقات.

وهي مؤمنة بالجن والسحر ،وفاعلية الأحجبة التي يكتبها الشيوخ .

وتبدو مع نفيسة ،ومع زوجها انطوائية ،وتعبر عن مشاعرها بالبكــاء أو التفاني في الخدمة ،أما مع العجوز رحمة ومالك ،فتبدو انبساطيــــة ، وذلك لصدقهما معها .

أما آمالها فلا تتعدى كسب احترام الزوج ولو قليلا ،وكسب محبة واهتمام نفيسة ،وعدم انقطاع المعيشة الميسورة نسبيا .

الصــورة النفسيــــة لأم رابــح :

أم رابح امرأة انبساطيــة رغم البكم ،تعبر عن ذلك بما تمنحه من ابتسام واشراق متصل ،وحيوية في العمل المنزلي .

وهي تخضع لابنها في حب ،وتدافع عنه في عنف .

---

1 - الروايــــة . ص ،28 .

وقد عرفت الحب مع أبي رابح ،ورغم اصابتها بالبكم ،كان وفيا مخلصا ،وأكمل الزواج وأنجب منها رابحا ثم توفي ،ولم تفقده هو فقط بل كذلك أغلب أهلها .

وقد جعلها الكاتب تنطق اثر الحادثة موظفا النظرية النفسية التي تقول أن الصدمة تداوي الصدمة .

صـورة المـرأة ،موقفـا ، ونموذ جـــا

أ) صـورة المـرأة موقفـا :

موقف نفيسـة من الزواج : ترفض نفيسـة الزواج التقليدي الـذي يكون فيه الوالـد هو الحاكم المطلـق ،وتتطلـع الى اختيار شريك الحيـاة بنفسهـا ،عن طريق تعارف عفيف ، وانسجام في المشاعر والتطلعات التحررية التي تريـد لها التحقق ،ومع احساسها بالحاجـة الجنسية وتفكيرها عفويـا في الزواج ،فهي فتاة عاديـة منضبطة ، ذات بعد نظر ترى ان تكمـل دراستهـا وتنير حياتهـا أولا .

انها تكره عبـودية الآباء والأزواج ،وصورة أمهـا ،صورة مفرة تجعلها تصرخ في وجههـا بعصبية " الذل الذي عشت فيه أنت لن أعيشه ! كوني أما لغيري ان شئت ،وليكن أبـا لمن أراد ،أما أنا فلن أدع هذه اللعنـة تبلـغ مني ما بلغت من غيري لست امرأة ، أفهمت لست امرأة ! "(1).

وقـد فكـرت نفيسـة في عـدد من الحلـول ،وجدتهـا غير محتملة النجاح وشرعت في أحدها ،اذ حملت رابح وضـع الرسالـة التي كتبتها لخالتهـا في صندوق البريـد ففهمهـا فهما خاطئا تماما ،وهكذا تحـول العزلة التي تعيشهـا ،والعادات والتقاليد السائدة ، والحـل في اطار القريـة ،ولذا هربت والهروب سلوك تقليدي تمردي شائع على كل حال ،ولكنـه يتكـرر مع هذه الفتاة المتعلمة وهو يشير الـى ما سبـق أن ذكرنـاه من كون نفيسـة مازالت تحـت سيطـرة الرواسـب الاقطاعيـة .

---

1 - الروايـــة . ص، 89 .

أما مستوى وعيها النضالي فهو أعلى ويشير الى الحل الصحيح المنتظر في المستقبل ،تقول نفيسة "هل تثور ؟ ولكن أية ثورة ؟ وفي أي اتجاه انها لا تعرف أحدا في القرية وحسب أنها عرفت ماذا يجدي ذلك ؟ فلا فرع هناك للمنظمة النسائية ولا لشبيبة الحزب ، ولا غيرهما ،لكنها مع ذلك لابد أن تثور ،أن تعارض كل سيطرة خارجية مهما كانت (1) ،ثورتها وحدها التي تستطيع تحديد الاتجاه والطريق "(2).

والحقيقة أن هذا الدور الهام الذي تشير اليه نفيسة مازال غير متحقق الى الآن ،فالحزب والمنظمات لا تقف مواقف فعالة من أزمات مناضليها ،ولهذا يخشى دائما على المناضلين من خفوت الحماس عندهم بعد التجربة ،بل ومن تحولهم الى نقيض ،أو الى فوضويين ولا منتمين .

موقف نفيسة من الجنس :

"نفيسة هي أول فتاة جزائرية في الأدب الجزائري العربي ،وعت حقها في امتلاك جسد ، وهو ليس جسدا مدنسا ،ولا وسيلة لتفجير كبت الكاتب ،انها فتاة عادية ،وقد طرح مشكلها الجنسي بلا مبالغة فوضع حدا بين الاشارة والخطأ . فنفيسة في الرواية تعي حاجات جسدها ورغباته وتنام وهي تحلم برجل بجانبها"(3).

---

1 - الصحيح تكن .
2 - الرواية . ص ، 88 .

3) AHLEM MOSTEGHANEMI EL RASSI : La femme dans la litterature Algerienne contemporaine Tome I : Thèse pour le doctorat de 3eme cycle des hautes etudes , sciences sociales 1980, Directeur de recherche JAQUES BERQUE P : 393.

يقول الكاتب" القرية غافية بين أحضان الجبال وسكانها نيام ،لكن نفيسة لم تستطع نوما ،تقلبت عشرات المرات في فراشها وأغمضت عينيها العشرات فلم يزدهما التقلب والاغماض الا أرقا على أرق ،أحست في هذه الليلة شيئا ربما أحسته في الماضي ولكنه لم يكن مثيرا الى هذه الدرجة... انها تحس دبيبا وألما في أسفل صلبها وتشنجا في أعلى فخذيها وجزء من بطنها وهي لذلك تشعر بالحاجة الى جسم غريب يلامس جسمها ، أو أيد قوية تقبض بشدة على أماكن تؤلمها كأيدي الراعي وبما أن لا سبيل الى هذا الجسم الغريب فهي تتقلب ولكن التقلب زاد جهازها العصبي يقظة وتوترا .

هناك لحظات توتر يمر بها الانسان ،فتزيل عن حيوانيته كل القيود الأخلاقية وتنعدم فيها صلاحية المقاييس المنطقية وكل الاعتبارات المثالية والقيمية .

لحظات تبقى فيها حيوانية الانسان وحدها ذات الدفع المطلق ولعلها هي المنقطة التي تنشأ فيها كثيرا من الانحرافات السلوكية والشذوذات الجنسية ، ان لم يكن جواب من الطرف المقابل ،أو وجدت هناك قوة معارضة .

ان كثيرا من الحقائق الواقعية هي في بدايتها فروض ذهنية قابلة للوجود ولعدمه ،لكن الاستمرار في عرضها على الذهن وترديدها على التصور يبرزها في النهاية للوجود ويعطي لها شكلها الثابت . وهكذا الراعي لم يكن موجودا في ذهن نفيسة من قبل ،وها هو الآن موجود في ذاته وموجود في ذهن نفيسة باعتباره الطرف المقابل لما تمليه الغريزة ومن بدري قد يصل عقلها الى التفكير فيه يوما فيضفي عليه فيما قد لا تكون فيه .

ومهما يكن الأمر فان نفيسة الآن في فراشها وهي قد بلغت أعلى ذرى التشنج ،كانت تشعر بالحرارة تزداد كلما مرت دقيقة في تلك الليلة الطويلة ،بالرغم .. من أنها من ليالي الصيف ،وبالرغم من أن الحرارة كلما تقدم الليل تنخفض ! لكن الحرارة كانت لدى نفيسة نفسية فيزيولوجية أكثر منها طقسية" (1).

وعلى كل فقد صور الكاتب أهواء المراهقة عند نفيسة ، ولم يصور حبا جديا ،ولذا نجدها موزعة بين رضا الجميل الحيي زميلها في الجامعة الـــذي لا جدوى منه لأنها لا تقبل المبادرة ،وبين رابح الذي أثارها جماله وشبابه ، وأنغام نايه ،الى درجة كبيرة ، ولكن عندما احتكت به أثناء هروبها واقامتها في بيته ،عاد الى حجمه الحقيقي ،ونزل من المثال الخيالي ، الى الواقع العادي ،ونفيسة تثار حتى بفعل الحرارة ، ومع ذلك فقد رأيناها عفيفة ترفض ما اعتزم عليه رابح بل وتجد في الحياء خلقا حسنا ،تمدحه في نساء القرية ،وتجده حتى في نفسها ،عند زيارة مالك مثلا .

موقف نفيسة من العمل المنزلي :

ترفض نفيسة العمل المنزلي " الريفي " ،وتقبل العمل المنزلي "المديني" الذي أتقنته عند خالتها زبيدة ،وتلقت طرفا منه في المدرسة في الجزائر. وهي تقول في نفسها حين فاتحتها العجوز في الموضوع " أنظر الى أمي وأعمل مثل ما تعمل ! ... مسكينة هذه العجوز الطيبة انها لا تدري أنني لا أريد أن أكون مثل أمي "(2).

---

1 - الروايــة . ص، 103 - 104 .
2 - الروايــة . ص، 33 .

كما أنها ترى أن لا داعي لتعلم العمل المنزلي " الريفي " لأنه لا مكان له في مستقبل أيامها .

فهي تفصل ما يتفق ونظرتها ،ولا تفكر في شقاء الأم ومساعدتها ، وهي أول من يقوم وآخر من ينام ،وهكذا تبدو قاسية وأنانية .

ومع هذا ففي أعماق نفيسة يتبلور مفهوم أبعد من الاستعلاء عن العمل المنزلي الريفي وقبول المديني ،وهو التعاون بين المرأة والرجل في هذا المجال .

يقول الكاتب " كانت الأم البكماء بصدد تقشير " الهندي " وكان رابح جالسا القرفصاء يناولها الثمرات ثمرة فثمرة بعد غسلها بالماء لازالة الشوك عنها وكانت الساعة حوالي الخامسة مساء والطقس في غاية الاعتدال على خلاف الأيام السابقة ،وكانت نفيسة واقفة بعتبة الباب تنظر الى الأم وابنها وهما يتعاونان في بساطة وعفوية رائعة" (1)

موقف نفيسة من العودة والنكوص :

لا تواصل نفيسة هروبها بعد الحادثة العنيفة التي اعتدى فيها الوالد على رابح ،وتلقى ضربة فأس على رأسه من الأم البكماء .

فهي بعد أن خاطرت في سبيل حقها ،ترى لها واجبا تجاه الأب " وقفت أمام الباب الخارجي لحظات تفكر فيما يجب أن تقوم به ... لأن تطور الحوادث قلب مشروعها رأسا على عقب فهي إن كانت تعتزم السفر الى الجزائر في هاته الليلة ولكن بعد كل ما وقع لم يعد ممكنا هذا السفر" (2) .

---

1 - الروايـة ، ص ، 259 .

2 - الروايـة ، ص : 265 - 266 .

علاوة على أن القلب قد خفق حنانا " كانت تشعر بالحقد على أبيها وهو واضع ركبته على بطن الراعي ، ثم كيف تحول هذا الحقد الى حنان بعد أن ضربته المرأة البكماء بالفأس ووقع على الارض والدماء تتدفق من رأسه ! وتذكرت كيف تحول تقديرها وعطفها على الأم وهي ترى ابنها يهاجم ظالما ويلقى على الارض ليذبح ، تذكرت كيف صار كل ما كانت تجده من ولاء لهذه العائلة واعجاب بها الى خيبة أليمة "(1).

والحق أن الجزائر كسائر البلدان العربية الاسلامية لها ارث ثقيل متداول في معاملة الوالدين ، يتغلغل في الاعماق الى درجة مخيفة تشل الحركة الثورية في أحيان غير قليلة ، وكثيرا ما يعاني الابناء صراعا مريرا بين نداء الحق وبين ضلال الوالدين وحبهما المسيطر على النفس ، ولذا فالاستقلال الشخصي عندنا ليس قرارا بسيطا ، بل هو معاناة شديدة القسوة .

فهل انتصر الكاتب للجانب الذاتي على الجانب الموضوعي ؟ أن التمزق العائلي ليس حلا ، والغرب صورة من ذلك بشعة ، والكاتب قد جعل نفيسة من لحم ودم ، تعود لأن والدها في خطر ، لا تدري حتى ان كان سيعيش أم يموت وهو كبير السن .

بالاضافة الى أن " نفيسة لا يمكن ان تنجح في هروبها ، لأن تلك مغالطة فالمرأة الجزائرية والعربية لا تزال تعاني والمشاكل لا تزال مطروحة اذ من الخطأ القول بأن المبادرات الشخصية تحل مشكل الحريات ، فهذا لم يقم عليه أي دليل في التاريخ "(2).

---

1 ـ الرواية . ص : 266 .

2 ـ AHLEM MOSTEGHANEMI EL RASSI : La femme dans la litterature Algerienne contemporaine P : 396.

موقف العجوز من العمل :

هو موقف فنانة تجد سعادة لا تقدر في ممارسة حرفتها ،وتعمل حتى الموت ،وتردد كثيرا " أنا والفخار الى الابد "(1) .

أما شقاؤها في عملها ،والناتج عن شيخوختها ، وهو تعب جسدي ، ومردود ضئيل لا يبتعد بها عن الفقر والجوع والخصاصة ،هذا الشقاء لم يستطع أن يحد من طموحها لصنع الآنية الجديدة ، ففيها ينابيع لا تنضب من الارادة والأمل والقوة المعنوية .

تقول العجوز "الانسان يجب أن يرى الحياة دائما بعيون المستقبل لا بعيون الماضي ... والا ما معنى الحياة ؟ ان الغد الذي أنتظره هو الذي يحرك رجلي اليوم ،عندما أحفر الطين لا أفكر في الغد القريب ، ولكن في الغد البعيد ،البعيد ... لأن التراب يجب أن ييبس ثم يدق ثم يبل ،ثم يبنى أواني ... ثم بعد ذلك يأتي صقلها ،ثم تبقى أياما لتيبس ثم ترقم وتزخرف ثم توضع في الفرن ... وليست العمل ينتهي هنا لأن الفرن يعطي لها أحيانا ألوانا وأشكالا غير التي كنت أنتظرها ،وحينئذ أجد نفسي مضطرة للاعادة ،وهكذا أبدأ وأعيد أبدا ،وأنا سعيدة بذلك لأن نفسي تحدثني أنه لابد أن يأتي اليوم الذي أصل فيه الى الاتقان الذي أنشده وأجد الصورة المثلى التي أبحث عنها "(2) .

وهي بهذا درس في الأمل والاتقان ،ولكنها في لحظاتها الأخيرة أحست بأنها قدمت للآخرين ما عندها بينما هم لم يقدموا لها شيئا ،نظروا اليها مثلما ينظرون الى الأشياء الجامدة ،ولم يغوصوا في أعماقها التي تفجرت

---

1 - الرواية . ص : 16 .

2 - الرواية . ص : 64 .

في هذه الصرخات "(1) عند عذيانها "أنا آنية ... أنا فخار ..من يشتريني أنا أحسن من كل الأواني ،الفخار لا يتكلم وأنا أتكلم ... من يشتريني ،أنا آنية أصلح للماء ،للطعام ،للزهور ... أنظروا الى النار التي تلتهمني ،انها تصهرني لازداد جمالا ... أنا آنية أصلح للماء ،للطعام ،للزهور ، أنتم لستم أواني ،أنتم مازلتم طينا لم تصقلكم يد مثل التي صقلتني ولاصهرتكم نار مثل التي أنا فيها "(2).

---

1 - عبد الله خليفة ركيبي تطور النثر الجزائري الحديث . ص : 183 .
2 - الروايــــة . ص : 141 .

ب - صـورة المـرأة نمـوذجـا :

تمـرض صـورة نفيسـة مرحلـة متقـدمة عن صـورة زليخـة ،رغـم التشـابـه الذي أقـامـه الكاتـب بينهمـا ،في مستوى التعليم الجامعي ،وفي السـن والصـورة الفيزيـولوجيـة ،والقصـة التي تتكـرر مع الوالـد ومالك ،والاختـلاف موجـود في موقفي الفتـاتين ومصيرهمـا .

فزليخـة رغـم تعليمهـا الفرنسـي النخبـوي ،ترضـى بمالك المجاهـد زوجـا ،وفي ذلك رضـا بالثورة نفسهـا وقـد كانت شخصيـة منسجمـة ، لا تجـد في الريـف أي احسـاس بالغربـة ،ويبـدو أن الام تظـل تذكـرهـا لذلك ،متلمسة الفرق بينهـا وبين نفيسـة ،وهي لم تفـد الوالـد بغرضه باستشـادهـا ، واذ قضى الكاتب عليها بالاستشهاد قبـل الزواج ،فقـد جنبهـا الاحتكاك العميـق بالوسـط الريفي ،وهو الموقـف الذي ستجـد فيه نفيسـة نفسهـا ،بعد الاستقلال حيـث تعيـش الغربـة في أقصـى توتـراتهـا .

وقـد لا يكون ذلك هو الواقـع الحرفـي ،أي ما كان ، ولكن ما يجـب أن يكون في تلك الفترة عمومـا ،فالروائي يرى أنه لا وقت للصدام بين القـيم، والحـق ان الثورة قد جمعت أغلب الناس ،وان كانـوا ذوي نظـرات وأصـول اجتماعيـة مختلفـة ،جمعتهـم في بوتقـة واحـدة ،وجعلتهـم يتشـوقـون الـى الاستقـلال أولا .

وتشتـد حيويـة صـورة نفيسـة لكونهـا تجسـد نموذجـا يرهص بالثـورة الاجتماعيـة ،ويشـير الى انقـلاب الموازين ، وتناول هذا الموضوع من خلال شخصية امـرأة خطـوة تقدميـة هامـة ،لانهـا تبادر الى وضـع النسـاء في الطليعـة حيـث يجـب أن يكـن ،كمـا أن المرأة تمثـل التناقضـات في حـدهـا الاقصـى فالحمـل دائمـا ثقيـل ، والوضـع دائمـا يؤذن بالانفجـار ،وتكفي مقـارنـة

غربة الشخصيات النسائية في الرواية ،بغربة الشخصيات الرجالية ليتجلى ذلك تماما ،فغربة النساء حادة ،مسنونة تقل فيها العناصر التخفيفية في الغالب .

والحقيقة أن هناك عددا من الشخصيات في الرواية ، تمثل جوانب الارهاص بالثورة الاجتماعية ،وتستشعر غربة الشرط الاقطاعي ،وتسير الى خلخلته عن وعي أو بعفوية .

ونفيسة تكاد تستفرد بجانب مقاومة القيم البالية ، داخل الوسط الريفي الأسري ،بينما يمثل مالك الجانب السياسي ،وقد عاد بالقرية ليحقق حلمه الذي ترعرع ابان الثورة المسلحة ألا وهو الاصلاح الزراعي وهناك احتجاجات شعبية غير منظمة وتطلعات للعمال والفلاحين الصغار ، تدخل في سياق التوجه الاشتراكي ،ولا يسكت المعلم الطاهر عن نقد النظام ذاته (البلدية ورئيسها) ، ويتشوف شاب مهاجر الى استخدام الآلة في الفلاحة ، أما العجوز رحمة فتتعاطف مع تطلعات نفيسة ، وحتى الحاج قويدر القهواجي يصغي جيدا للمقولة السياسية علة يجد سر التحول ورابح يتخلى عن الرعي مكتشفا الفوارق الطبقية ،ساعيا بعفوية من أجل بناء مستقبل أفضل ،أما البكماء أمه فتضرب عابد بن القاضي على رأسه بالفأس ،وتصيبه اصابة بالغة ،والرأس رمز لسيادة الاقطاع الذي آن له أن يتصدع ،والفأس رمز لجماهير الفلاحين الفقراء ، والبكماء رمز لسكوتهم في الماضي ،أما الانفجار فهو صوتهم المنبعث بعد الاستقلال ،وبعد تحرشات الاقطاع التي تهدف الى احتواء السلطة (مالك) .

ويجب أن يفهم أن الارهاص بالثورة الاجتماعية ، تمتد جذوره في الماضي ،وهذا واضح من أعمار بعض الشخصيات التي أوردناها ،ويستعمل

الكاتب لذلك شخصيات عديدة ، فالعجوز رحمة من مواليد 1887 ،حيث كان عمرها في سنة 1957 سبعون سنة والكاتب يعيدنا من خلالها الى الحرب العالمية الثانية ، حيث مات زوجها الأخضر ومات الكثير من الجزائريين فقد كان عام مجاعة أو كما يسمونه "عام البون" (1) ، وفي هذا النطاق يمكن وضع حكاية الشيخ حمودة الصالح الدرويش الذي باع رأسه من أجل أن يحيا أهل قريته ويسقط المطر أخماسا في أسداس ،وكذلك اصابة الحاج قويدر في الحرب العالمية الأولى ،وحالات الثكل التي تعرض لها الكثيرون فأصبحوا كأنهم مقطوعون من شجرة .

فوضع الشخصيات صور بقصد الايحاء بضرورة تبدل الأوضاع .

صورة العجوز رحمة ،جزء هام جدا ،من أجزاء الصورة العامة المرهصة بالثورة الاجتماعية ،انها نموذج المرأة العاملة ،علاوة على كونها رمزا للعنصر الحضاري الخالد .

---

1 - "عام البون من أعوام الحرب العالمية الثانية ،وعملية تقسيط بيع المواد الغذائية على السكان امتدت من حوالي 1941 ،الى سنة 1949 ،وكانت معظم سني الحرب جدب ومجاعة فشمل ذلك التقسيط القرى والمداشر وكان لكل أسرة ورقة بها عدد أفراد ما يستظهر بها صاحبها في نهاية كل شهر لدى البائع المعتمد من طرف السلطة الحاكمة لشراء بعض المواد الغذائية كالدقيق والزيت والصابون والقهوة والسكر ،وكان ما يوزع على السكان من غذاء ،فاسدا في معظمه فانتشر الوباء في القرى ،فكان الموت يحصد الناس حصدا."
الرواية . ص : 25 .

بل يمكن القول ان روح العمل نفسها جزء من هذا الرمز الحضاري الايجابي ،والعجوز رحمة لا تنفرد بهذه الروح العالية ،والايجابية التراثية النافذة ،بل في الرواية أشخاص آخرون من الجيلين يؤكدون على ذلك ماضيا وحاضرا .

فالحاج القهواجي يعمل مثلا من الرابعة صباحا حتى العاشرة ليلا ، وهو في عطه فنان كالعجوز ، فننمة حركة العمل ،تمده بموسيقى أشبه بالصلاه ،مثل العجوز ،وتحمله الى عالم منسجم ونشيط ،وهو كريم وفصيح وأمين ومؤمن الى آخر الصفات الحسنة التي تتميز بها العجوز " وهو في غسله للفناجين يشبه الى حد ما العجوز رحمة صانعة الفخار فمنايتها في صقل الاواني وعنايته في تنظيف الفناجين يتسمان بنوع من الخشوع الذي يكاد يكون صلاة ! والشبه بينهما لا يقتصر عند(1) هذا بل يتعداه الى كثير من الامور ، فكما أنها لم تفارق التربة طوال حياتها لم يفارق هو القرية منذ رجوعه من الحرب العالمية الاولى ،وكما أنها كانت تعرف كل ما جرى في القرية من أحداث منذ أكثر من نصف قرن فهو أيضا يعرف حياة السكان فردا فردا ويدري أخبار القرية ،وما تعاقب عليها من أيام منذ مطلع القرن" (2) .

فالمرأة والرجل كلا هما عامل حتى في سن الشيخوخة ووالد الطاهر وهو من نفس الجيل له نفس الهمة يقول " كانت أرضنا بورا ولم يكن أبي قادرا وحده على اصلاحها ،كان يأخذني معه وأنا طفل ،وكان عندما ينتصف النهار ويشتد تعبه يقف متأملا في (3) الربى المحاذية للرقعة التي هو آخذ

---

1 - الصحيح . على

2 - الرواية . ص : 160 .

3 - الصحيح . متأملا الربى

في حرثها ثم يقول : آه ياربي القمح ،لو وجدت فؤوسا ! . . . ثم يلتفت الي ويقول : الفأس يا بني الفأس ،هو عدو الجوع . . . فأحببت الارض وأحببت الربيع ، ولما اشتد ساعدي كسرت البور وأصلحت أرضنا ،أرض أبي فلم يبق بها مكان لا يقبل البذر ،كنت قويا شديدا آكل الخبزة ،وتمر الساعة فاذا بي كأني لم آكل شيئا" (1).

ويمكن تعداد شخصيات أخرى ،تحب عملها ،وتخلص في أدائه ، كالمعلم الطاهر ،ورابح الذي صارت الاغنام بالنسبة اليه كالبشر يتألم لألمها ،وأمه النشيطة في العمل المنزلي .

وهذه الارادة العارمة في العمل يركز عليها الكاتب ،حتى في قصصه كما في قصة الفلاح (2) ، من مجموعة الكاتب وقصص أخرى ،والكاتب عبر هذه الصور التي تكشف عن طاقة انسانية هائلة في العطاء يفند رأي عابد بن القاضي وأمثاله ، الذين يرون أن الريفيين لا يحبون العمل .

نعم هناك انقلاب في مفاهيم العمل ،والتماس عفوي في أغلب الاحيان للاستغلال ورفضه ، والتطلع الى تحرر في مستوى التضحيات ،وهذا يضايق الاقطاعي عابد الذي يقول :"ان الناس لا يحبون لا خدمة الارض ولا غير الارض ،ظنوا أن الاستقلال يعطيهم الراحة والعيش الكريم ،خذ الراعي مثلا من تصور يوما أنه يترك رعي الغنم بين عشية وضحاها فجأة ،وبلا سبب لم يعطني حتى مهلة أسبوع لابحث عمن يعوضه . . . ماذا أستطيع أن أفعل له ؟ لا شيء أصبح يبيع الحطب الى القهواجي لينتهي به الامر في النهاية الى . . . لعب الميسر كالآخرين . . . انهم لا يحبون العمل ولا من يعمل

---

1 - الرواية . ص : 73 .

2 - الكاتب وقصص أخرى . ش.و .ن.ت. الجزائر ط2 منقحة 1982 .ص: 35 -

فسدت طبائع الناس ،وفسد حتى كلا مهم . . . صاروا يتشدقون بكلمات لست أدري من أي مكان أتوا بها ،الحزب ،النضال ،العدالة الاجتماعية الاشتراكية الثورية . . . لو بت أعد حتى يطلع النهار لما انتهيت . . . ليس هذا فحسب ، بل هم صاروا يطالبون بما يسمونه العطلة السنوية والعطلة الأسبوعية وتحديد ساعات العمل . . . لو سمعهم من لا يعرفهم لظن أن هؤلاء الناس منذ ولدوا من بطون أمهاتهم وهم يعملون . . . بينما هم في عطلة أبدية" (1) .

صورة زليخة ،تعبر عن أثر الحرب ،وتخريبها ، فقد استشهدت ضحية ،كما استشهد الكثيرون دون أن يباشروا الحياة العسكرية ،وهناك الى جانب ذلك المعطوبين كالحاج قويدر القهواجي " في حرب الهند الصينية ، حيث زج بالجزائريين البؤساء في حروب لاناقة لهم فيها ولا جمل ،كأغلب المستعمرين ،وقد أصيب الحاج بشظاية . في رأسه ونجا ،والبكماء أم رابح التي سبق أن ذكرنا أنها أصيبت بالبكم في فترة الحرب العالمية الثانية بعد مرضها بالتيفوس اثر المجاعة ،كما أن الضحايا من آباء وأولاد وأقارب وأعزاء قد تركوا للأحياء فراغا كبيرا وغربة وجدانية ،والعجوز رحمة التي صارت وحيدة مقطوعة من شجرة خير مثال على ذلك ،وخيرة والبكماء ،اللتان فقدتا أغلب الأهل ،ورابح الذي لم يجد والدا ولا قريبا يمنحه التربية اللازمة فنشأ على الفطرة تقريبا ،ومالك الذي ظل جرحه العاطفي مفتوحا ،بالاضافة الى فقدان أهله جميعا ،ماعدا العجوز رحمة التي تربطه بها صلة رحم بعيدة .

---

1 - الرواية . ص : 182 .

ومالك يتذكر قلق زليخة على مصيرهما ويتذكر " جملة قالتها له . . . ذات يوم : " الناس يتزوجون في السلم ونحن تزوجنا في الحرب ترى أي مصير ينتظرنا " (1) .

وقد سبق للكاتب ان تناول في قصصه مثل هذه الصورة ، ففي قصة المسافر (2) تستشهد الخطيبة على اثر غارة ، كما أن حادثة انفجار القطار لها ما يماثلها في قصة يد الانسان " (3) ، مما يجعلنا نستنتج أنها قد تكون حوادث حقيقية استلهمها الكاتب ، لتأثره بها .

ولكن الجديد هو أن يبعث الكاتب صورة زليخة في صورة نفيسة منميا اياها ، دون قطع خيط التواصل .

---

1 - الروايـــة . ص : 56 .
2 - مجموعة الأشعة السبعة ص: 17 .
3 - المصدر نفسه . ص : 27 .

الخصائص الفنية

ريح الجنوب " حدث ثقافي يستجيب لمتطلبات واحتياجات الأجيال الصاعدة (1) ،و" ثمة أمور عديدة تلفت الانتباه في هذه الرواية وتعطيها قيمتها الفكرية في رأينا ولعل من أبرزها قدرة الروائي على خلق واقع قصصي ذي انسجام داخلي يتمتع بقدرة على الاقناع من حيث مسيرة الحوادث وتسلسلها ،وهناك الى جانب ذلك، قدرة الروائي على تقديم عدد كبير من الشخصيات المتميز بعضها عن بعض بسيماته السيكولوجية ، وبعده العاطفي والفكري ومن وراء ذلك خلفية للحياة في هذه المنطقة من الجزائر "(2).

وأخالف سعيدة هوارة في كون الكاتب " لا يكاد يقوم بأي انتقاء أو اختيار لما هو موجود في الواقع ،بل يكتفي بما يقع عليه بصره حتى وان كان من الجزئيات التي لا تساهم مساهمة فعالة في عملية انعكاس الواقع ، وتضعف العمل في أماكن كثيرة "(3) ،يقول الكاتب "كان أحد الأحمرة الثلاثة قد توقف عن السرح وأخذ يغازل أتانا . . . وحانت من نفيسة الشفاتة فرأت الحمار مستقضبا يستعد لاعتلاء الأتان فحولت بصرها وقالت في نفسها باستمصاص .

---

1) ABDELMADJID MEZIANE, ABDELHAMID BENHADOUGA, l'ecrivain n'est jamais pessimiste El Moudjahid n° 4265 du Lundi 19 Mars 1979.

2 - جورج سالم ، المغامرة الروائية ، ص : 67.

" ياللفظاعة ! بالمقبرة ،لكن الفضول الفريزي لدى الفتاة دفعها مرة أخرى الى النظر في هذه الحادثة الغريبة التي تشاهدها لأول مرة في حياتها ... وما أحدثه المنظر في نفسها من شعور ليس يسيرا تصويره . على أي حال غباوة الأحمرة مكنتها من مشاهدة " المطية " من البداية الى النهاية وعرفتها رغما عنها ،بحقيقة طبيعية ،بيد أنه ان كان من المؤكد أن الحمارلن يلد الا حمارا . واذن فالمقبرة والمزرعة بالنسبة اليه سواء ،فان الانسان غير ذلك ... قد يلد انسانا ،وقد يلد حمارا لا يفرق بين المقبرة والمزرعة في مثل هذا وغيره من أنواع السلوك وهي كانسان منحتها الطبيعة كل الاستعدادات التي تمكنها من التصرف الواعي ،فلا يمكنها بحال أن تستسيغ بأن يصير مكان الفناء والموت مسرحا لعملية البقاء والاستمرار وقالت: بالمقبرة ... فظيع أن يجري مثل هذا بالمقبرة" (1) .

فالكاتب عموما " يطلعنا على تفصيلات شتى من حياة الناس وواقع القرية ،وعلائق الافراد بعضهم ببعض متوقفا في أحيان عديدة عند التفصيلات الدقيقة الصغيرة التي تمنح هذه الرواية الى جانب خصالها الاخرى مذاقا واقعيا" (2) .

وهذا تفصيل من تلك التفصيلا ت التي ،يوظفها لينفذ خلالها الى الهدف الأخلاقي الذي يتوخاه في الرواية من خلا ل شخصية نفيسة والأحداث التي تتفاعل معها ، ومن خلا ل الشخصيات الأخرى كذلك .

والتيار الأخلا قي قوي عند الكاتب وهو مثلا يهدف الى تصوير " الأخلاق الاشتراكية" (3) .من خلال مالك في الرواية ،مالك الذي يفرق بين ما هو انساني

1 - الروايـــة . ص : 23 ، 24 .

2 - جورج سالم المغامرة الروائية .ص : 68 .

3 - من مقابلتي الأولى للكاتب.

وشخصي وبين ما هو عقائدي .

والحقيقة ان رواية ريح الجنوب ذات وحدة قصصية لا مسرحية ولذا فعقدتها مركبة مهلهلة ،لا بسيطة متماسكة ،بحيث " تتشعب الأفكار.. ، وتتعدد فيها الشخصيات والمصائر حتى تخفى وحدتها على القارئ لأول وهلة ،ولكنه حين يدقق النظر ، يرى من وراء هذا التعدد محورا ترتكز عليه " (1) ذلك أن القصة مرنة والوحدة فيها أو العنصر السائد ينتج عن " سلسلة من الحوادث أو عن شخصية من الشخصيات أو عن فكرة من الفكر ،أو عن صورة لمجتمع في فترة معينة أو لجماعة من الجماعات" (2)

وريح الجنوب تؤرخ للمجتمع الجزائري من خلال الريف في فترة 1964م، أي بعد الاستقلال بعامين ،وقد انتهى من كتابتها ابن هدوقة في سنة1970م، ومن خلالها يحس القارئ أن الجزائر كانت " في فوران وغليان ،و... على وشك مشاهدة أحداث ... تهزها" (3) ، كما أنها تلتفت للماضي أيضا ماضي الثورة التحريرية ،والى الحرب العالمية الأولى والثانية .

وأعتقد أن الكاتب قد ارتفع فنيا الى مستوى الواقع المعقد المتناقض الحي الذي صوره في الرواية .

* * *

صوره عن طريق شخصيات تجمع بين الخاص والعام ، نماذج ترهص بالثورة الاجتماعية ،وأخرى تتهيأ للوقوف ضدها ،ومن خلال ذلك علاقات ومشاعر انسانية .

---

1 - د .غنيمي هلال ،النقد الأدبي الحديث . ص : 545 .
2 - د .محمد يوسف نجم فن القصة بيروت للطباعة والنشر . 1955 . ص: 11
3 - د . السيد عطية أبو النجا عالم الفكر . ص : 27 .

وريح الجنوب لا تقدم بطولة فردية ،بل بطولة جماعية ، حيث تظهر الشخصيات فيها بمستويات وأدوار متفاوتة متقاربة ،وهذا شأن الرواية المعاصرة حيث انحسرت الهالة الرومانسية للفرد ،وتأكد دور الجماعات الانسانية ، والكاتب على وعي بذلك يقول "لا ألتزم بتصوير البطولة الفردية بل أصور البطولة الجماعية "(1) ، ولكل شخصيات الرواية أهميتها رغم توسع الكاتب في شؤون بعضها ،وتضييقه بالنسبة للبعض الاخر .

وقد قدم الكاتب شخصيات تظهر في أول الرواية ،حاملة صفة واحدة سائدة ، أي بسيطة في تركيبها ، ولكن استغراقها في هذه الصفة ،يجعلها نامية ، لانها تضطر الى مواجهة أحداث وشخصيات ،فتؤول في مصيرها الى ما لم تتوقعه في كثير من الاحيان ،وتتعقد بفعل ذلك ،وتكشف عن جوانب شبيئة ،نفسية واجتماعية .

فعابد بن القاضي قد ظهر بمظهر المصمم على تنفيذ خطته الى الاخر حفاظا على مصلحته الطبقية ،ولكن هروب نفيسة قادة الى اليأس من ذلك(2) والتصرف على هامش ما أراد ،وتبدلت غايته في النهاية ،فصارت انتقاما وثأرا ومحوا لعار على حسب الفهم الريفي لذلك لا أكثر .

ونفيسة أيضا قدمت مأزومة ولكن صابرة ،لانها تعتقد أن قضاء العطلة في الريف ،وغربتها فيه ،ما هي الا محنة مؤقتة ،خططت لانهائها بمخطط مستقبلي يجعلها تقيم في المدينة نهائيا بعد التخرج ،ولكنها فوجئت بقرار والدها ،فانتقلت الى التمرد وهربت ،ثم عادت من هروبها بعد

---

1 - من مقابلتي الاولى للكاتب .
2 - الرواية . ص : 255 - 256 .

اصابة والدها ورابح ،فالكاتب قد عرض شخصيته لتجارب عديدة متتالية سمحت بالكشف عن جوانب عديدة ومتناقضة أحيانا عندها ،وهكذا فصل الكاتب مع رابح ، والعجوز رحمة ،وأم رابح .

وهناك شخصيات ثابتة لم تغيرها الأحداث ، كشخصية مالك المؤمن بالاصلاح الزراعي والاشتراكية ، فهو لا يتنازل عن هدفه ،وان عمل في نفس الوقت على الاصغاء الى نداءات القلب ،ولكن على أن لاتتعارض معه .

وكذلك شخصية خيرة التي يغلب عليها الخضوع لزوجها .

وتركيب شخصيات الرواية ،منه ما تغلب عليه الايجابية ،ومنه ما تغلب عليه السلبية ومنه ما يجمع بين نسب منهما تتوازن حينا ،وتختل آخر .

والتركيب المعقد ،المزدوج ،الذي يجسد الصراعات والتناقضات هو الغالب على الرواية ،وهو صورة صادقة للمرحلة الانتقالية كما سبق أن بينت ذلك وقد قدم الكاتب شخصياته بأسلوب متنوع ،بالسرد ،والمونولوج ،والحوار والفلاش باك ،وعن طريق الحلم والهذيان والتخيل

فالعجوز رحمة مثلا قد قدمت في حوارات متعددة طويلة ومتوسطة مع عدد كبير من شخصيات الرواية ،مع خيرة ،ونغيسة ،ومالك ،وعابد ورابح .

وقد كشف الحوار عن علاقاتها الاجتماعية المتعددة ، وعن رحابة صدرها وأفقها ،فهي تتعامل مع كل شخصية بما تراه ملائما . من خلال تجاربها الطويلة وتصوراتها .

كما قدمها الكاتب بالمونولوج ،وهي في وحدتها ، تحدث زوجها الراحل ،أو تحدث نفسها ،عن أعمق أعماقها ،وأدق تفاصيل حياتها ، وقد

كشف المونولوج عن أمانيها الحميمة ،وعن عذاباتها ،التي تأنف من البوح بها أمام الآخرين .

كما قدمها الكاتب بأسلوب الهذيان عند مرض الموت ،هذا الهذيان الذي عبر بعمق عن خيبة رجائها في صنع الآتية ،وعن مأساتها الانسانية .

*　*　*

ولا يتردد الكاتب في اشعارنا بأنه يقص ،وعلى سبيل المثال قوله : " لا داعي أن نطيل الحديث عن القرية فالمهم هو أن أخبارها تجتمع في المقهى ككل القرى المجاورة "(1) .

وهذه سمة من سمات الراوي في تراثنا ،وهي في نفس الوقت سمة حداثة رومانسية ،تمنح الكاتب الحرية في أسلوبه ،وقد وظفتها الرواية العالمية لاشعار القارئ بالواقع الفني .

ويبدو ابن هدوقة في سرده محايدا ،يذكر الحقائق والتأويلات بهدوء واتزان ومن غير طابع وجداني بحيث يبرر الآراء بالأحوال والدواقع لتبدو موضوعية .

ويقدم هذا السرد في اطار درامي حينا (الحوار والمونولوج) أو خارجه .

وتدخلاته في الغالب خاطفة ،يقول مثلا " ونحن كما قلت نستطيع أن نشعر بهذه المحنة ونتصور هذا اليأس الذي يكتنف نفيسة لكن بشرط واحد : هو أن نؤمن بأن أنوثة المرأة ليست نقصا طبيعيا ،كما أن ذكورة

---

1 - الرواية . ص : 42 .

الرجل ليست كما لا طبيعيا أيضا"(1).

فالخطاب موجه من الكاتب للقارئ مباشرة ،ولكن قصر هذا التدخل هو ما يجعله مستساغا ومقبولا .

وابن صدوقة ينظر الى الحقيقة من وجهات نظر مختلفة مثل" اندريه جيد "والوجوديين عامة ،حيث الموقف القصصي ذو تشعبات كثيرة تفصح عن فلسفة الاشخاص وسلوكهم ،مما يترك القارئ موزع الفكر في اتجاهات مختلفة ومتاهات نفسية واجتماعية ليهتدي فيها بنفسه ،وهذا الحياد يدعو القارئ الى بذل جهد كبير للوقوف على ما تزخر به الرواية من تيارات .

ويمكن ان نلمح هذا التعدد في الحوار التالي "دخل رابح الى المقهى ودخوله أثار فضول من فيها ،فلم يكد يتخذ له مقعدا على الحصير حتى سأله أحدهم :

-" والغنم يا رابح ؟ "

وقال الاخر :

-"لعله تخاصم مع صاحبه" يعني صاحب الغنم"

وقال الثالث ساخرا :

-"رابح كبر ولم يعد يصلح أن يبقى راعيا"

قال الرابح معارضا :

-" رابح عاقل لا يخاصم ولا يتكبر على الرعي"

وتكلم الخامس ناعيا من سبقه :

-"دعوا الرجل وشأنه . أذئب دخل السوق ؟"(2)

---

1 - الروايـــــة . ص : 203 .

2 - الروايـــــة . ص : 113 .

فهناك جوانب نفيسة واجتماعية متقابلة في الموضوع ، ووجهات النظر فيه ،في غير هذا الحوار ،تساق عددا من المرات في الرواية على ألسنة عدد من الشخصيات (1) ، وهذا التعدد والتقابل متوفر في موضوع المرأة ،والأرض ،... الخ .

ولقد برع عبد الحميد بن هدوقة في الوصف على طريقة النزعة السلوكية ،وهو أسلوب يقتصر على تصوير الظاهر ،وما يصدر عن الشخص لا أكثر ،وبذلك يضمر أشياء ويبرز أخرى ،ويوحي ايحاء قويا . وقد وصف الكاتب اللباس والشخصيات والمنازل والطبيعة ،ويصف وضع العجوز بعد سقوطها قائلا :

"كان رأس العجوز في القفة ،ونصف جسمها عاريا والحبل مشدود على ذراعيها وعنقها "(2) . ورغم هذه الدقة ،والاقتصاد اللغوي ، فهي لوحة مؤثرة حقا .

ويقول الكاتب واصفا مشهدا آخر" أخذ رابح عصا وذهب الى المكان فوجده مازال هناك فقرب منه العصا فحرك هذا رأسه قليلا دون أن يختفي أو يغادر المكان ،وبقي ينظر الى رابح فلمسه بالعصا فوق رأسه فرفع رأسه وفتح فمه وأراد أن ينهش العصا ،فجذبها رابح ،فأخذ الثعبان يلقلق لسانه لقلقة سريعة ،واتقدت عيناه غضبا"(3).

ففي هذا النّص اضمار لمشاعر رابح في الموقف وابراز لحركة رابح والثعبان الظاهرية ،وفي ذلك ايحاء قوي بمشاعر الخوف والشفقة على رابح

---

1 - الرواية . ص : 14، 26، 27، 43، 193، 194، 195، ...الخ .

2 - الرواية . ص : 119، 120 .

3- الرواية . ص : 123 .

وتبدو ثقافة الكاتب الواسعة طبعا ،من خلال هذا الوصف الحسي الدقيق الذي يحتل مكانة بارزة في تراثنا .

ولا يهمل ابن هدوقة التحليل النفسي لشخصياته سواء بأسلوب السرد أو المونولوج ، فهو يفسر كل شخصية بسلوكها وأثر كل حدث عليها ،وتغير هذا الاثر بتغير الحالات ،وبهذه الطريقة كشف عن أعماق عابد بن القاضي ،ونفيسة ،وخيرة والعجوز رحمة ،ومالك ، ورابح .

ومن أمثلة السرد الذي سيتبطن به الكاتب شخصياته مايلي "كان عابد بن القاضي وابنه الصغير عبد القادر قرب الدار يساعدان رابحا راعي الغنم على الخروج بها من الممر الضيق الذي يشق بعض بساتين القرية... وتنهد تنهدا حزينا وهو يرى الغنم أمامه ،ذلك أن الاشاعات التي كانت بدأت تروج منذ صدور القرارات المتعلقة بالتسيير الذاتي ،حول الاصلاح الزراعي قضت مضجعه وصارت منشأ همومه ومحل تفكيره الدائم .

وبعد أن ابتعدت الغنم رجعا الى الدار . سأله ابنه قائلا :

- " هل أذهب معك اليوم الى السوق ؟ "
- " اذا أحببت ..."
- " أنأخذ الحصان أم البغلة ؟ "
- " البغلة ،لاننا سنشتري بعض الأدوات الفلاحية ."

وخطرت بباله فكرة قديمة وهو يرى نافذة حجرة نفيسة ما تزال مغلقة فكرة بعثت في نفسه سرورا غامضا . وكان مضمونها يتلخص في تزويج ابنته نفيسة بمالك شيخ البلدية . طبعا الفكرة كانت جميلة ومسرة في نفس الوقت ولكن تحقيقها ليس هينا ،فقد لا يرغب شيخ البلدية في هذا

الـــزواج "(1).

وفي النص يرافق السرد الذي يستبطن به الكاتب اعماق شخصيـــة عابد ،الحوار الخارجي ، وهذه سمة تغطي الرواية كلها ،فالكاتب يـــزاوج بين الاسلوبين في الغالب ،عندما يجتمع أكثر من شخص ،ولا يستعمل المونولوج الخالص الا في عزلة الشخصيات .

* * *

وأغلب شخصيات الرواية ،لها ظاهرها ،وباطنها كما سبق أن ذكـرت حيث يسود انعدام الحوار الصريح ،في مسائل تتصل باهتمامات الشخوص، فنرى عابد لا يناقش ضرورة تزويج نفيسة بمالك الا في عالمه الداخلـــي ونرى نفيسة ،لا تستعرض خطة خروجها عن عبودية والدها الا في نفسها ، ونجد مالكا لا يظهر اهتمامه بنفيسة ،الا مع نفسه أيضا ... الخ .

والمونولوج لا يكشف عن عمق الشخصية فقط بل ويوجه الأحداث ، فمنولوج نفيســة (2) قد جعل القارئ يتوقع رفضها للزواج وتمردها من بداية الروايـة مثلا .

ويعبر الروائي بالصورة الرمزية عن المشاعر الغامضة المستعصيـــة يقول :" غاصت وراء الأنغام تستكنه ما توحي به من مكنونات الريف وأسرار جماله وتخيلتها صارت أجنحة خفاقة وهي فوقها ،أجنحة تعلو بها ،تعلو بهــا أبدا الى أجواء كلها صفاء واشراق وكلها طهر وسحر . وتمثلت نفسهـــا قد وصلت بعد تحليقها الى ربوة عالية وراء السدم واستقرت عليها واذا بها

---

1 ـ الروايـــة . ص : 7 ، 8 .

2 ـ الروايـــة . ص : 8 ، 9 ، 10 ، 13 .

تجد نفسها جالسة ،الى جانب عازف الناي ! كان يشبه أميرا له كوكب وحده ، أجمل من أمير سانت ايقزو بيري" وكوكبه لا يسكنه غير أغنامه وتخيلت أن هذا الأمير لم يحفل بها وراح يعزف ألحانه الى(1) التي غنمه وخرافه ،متنقلا بها من مرج الى أخصب منه ،من عين صافية الى أخرى أصفى وأعذب يناديها فتستجيب ويأمرها فتطيع ويعزف لها حنانه وشوقه على نايه فاذا هي نشوى فسكرى"(2).

ومشاعر نفيسة الغامضة تجاه رابح تظل محل عناية الكاتب حتى النهاية وهي تعبر في نظري عن قوة روحية تجمعهما كضحيتين للاقطاع.

وأعتقد أن رواية ريح الجنوب رواية تثير الذهن والفكر وتدفع الى قراءة ما وراء السطور ،وأن الرواية لا تستوفي حقها الا بقراءة ذات مستويين قراءة ظاهرية ، وأخرى رمزية كما فعلت في هذه الدراسة في الغالب .

والكاتب من أجل هذه الرمزية ،لا يلتزم المستويات الثقافية للشخصيات الا في الحوار الخارجي ،أما في الحوار الداخلي فهو يستعمل لسان الحال بدل لسان المقال ،ليعبر عن مكوناتها ،بما يتفق وهدفه الأدبي .

يقول على لسان العجوز رحمة " ليست يداي هما اللتان لم تهتديا الى صنع ما أريد ،انما عقلي هو الذي لم يجد الصورة التي تطابق احساسي ... أحب أن أصنع أواني اذا رأيتها من بعيد لا تفرق بينها وبين الأواني القديمة ،ولكن اذا اقتربت منها وأمعنت النظر فيها وجدتها جديدة في البناء ؟ في الصقل في الزخرفة ،في كل شيء ! قالت لي ،

---

1 - الصحيح ، لغنمه .
2 - الرواية . ص : 15 .

عندها كتب فيها كثير من صور الأواني ،وعرضت علي أن ترينيها لأصنع مثلها . قلت لها أنا أحب أن أصنع أواني جديدة لم يصنعها أحد . . . هي مسكينة تريد مساعدتي وتعتقد أنني أريد صنع ما لا مثيل له في بلادنا (قريتنا) . . . لكن أنا أبحث عن شيء آخر ،يعرفه قلبي ولم تستطع صنعه يداي "(1).

فهذه الدرجة من الوعي ،وهذه الدقة في التصور والتعبير لا يمكن أن تتوفر للعجوز ،انما في ذلك وجهة نظر الكاتب التي يحملها اياها فادراك علاقة التواصل بين القديم والجديد ،وتصوره للآتية الذي هو تصوره للمستقبل الذي لا يبنى في رأيه على نسق مستورد وانما يبتدع ابتداعا داخل الوطن ،أشياء يؤمن بها الكاتب .

ويتبع هذا الأسلوب الرمزي ،تكرار الأحداث ،كما يفعل بريشت في مسرحه فرابح يقتل الثعبان في بيت العجوز ،ويمص سمه من ساق نفيسة ، وهو ينقذ المرأتين ،وكلعبة عابد مع مالك مرتين بعد الاستقلال وأثناء الثورة المسلحة ،وفي ذلك وضع رابح في مستوى رمز الخلاص ، وما يوحي به كراع من انتمائه الى الطبقة الفقيرة الواعدة بالثورة ،ومن رمز أصيل اذ أن أغلب الأنبياء قد كانوا رعاة في طور من أطوار حياتهم ،أما لعبة عابد فتوحي بأن التاريخ يعيد نفسه ،وأن ما حدث بالأمس ،مازال حيا ،يتطور اليوم ، والكاتب رأيناه يلم بأغلب وسائل بريشت في مسرحه لا بخاصية التكرار فقط ، فهناك ازدواج الشخصية ،وتضمين الشعر ، والافادة من وسائل الاخراج في دور الخيالة ،والافادة من النزعة السلوكية حيث "الصلة بين الأحداث محكمة تبين عن جوانب الموقف الفكرية ،في وحدة ذات ايقاع ذهني تستدعي تفكيرا عميقا" (1).

---

1 - الرواية . ص : 22 .

2 - د . غنيمي هلال الموقف الأدبي . ص : 117 .

* * *

والكاتب يعتمد على الأسلوب الدرامي ،واللوحات الدرامية المأساوية بارزة في ريح الجنوب ،كسقوط العجوز رحمة (1) ،وكمغامرة رابح باقتحام غرفة نفيسة ليلا (2) ،وكمرض العجوز (3) واحتضارها ،وعلاج العجوز لمالك أثناء الضرب (4) ،ومحاولة عابد قتل رابح ، وضرب الأم له (5) ،وكلدغ الثعبان لنفيسة (6) ،... الخ . وهي لوحات تثير الرحمة والشفقة على الشخصيات المأزومة ،وتعرض العنف والشر لا اغراء بهما ، بل بقصد نقدهما ،فالقصد خلقي ،في تصوير ما هو لا خلقي .

ولعل الكاتب متأثر بدراسة للتمثيل في توظيف الجانب الدرامي .

* * *

وفي الرواية يوفر الكاتب ايقاعا متنوعا ، لتلوينه في الأسلوب كما رأينا فهو "يبسط ... الأحداث على نحو هادئ ممتد" (7) في البداية ،حيث يحتاج تطوير الشخصيات الى شيء من الاطالة ،ولكن حين تبلغ الأزمة ذروتها "تتسارع حركة الرواية" (8) .

---

1 - الرواية . ص : 118 - 119 .
2 - الرواية . ص : 104 - 111 .
3 - الرواية . ص : 138 - 141 .
4 - الرواية . ص : 146 - 154 .
5 - الرواية . ص : 262 - 266 .
6 - الرواية . ص : 241 - 242 .
7 - د . جورج سالم ،المغامرة الروائية . ص : 67 .
8 - المرجع نفسه . ص : 70 .

* * *

والحوار الخارجي أسلوب دارمي كالمونولوج ، يجيد الكاتب توظيفه ،اذ يخدم حركة الحدث ،ويضيء جوانب الشخصية ،وهو يطيل فيه ،ويقصر ، بحسب ما يقتضيه الحال ،ويخلطه بالسرد والمونولوج حينا ،ويسوقه مستقلا حينا آخر .

ومن أمثلة الحوار القصير ،مايلي :

" في المساء عندما عاد زوجها الى الدار سألها هل أخبرت لغيسة بما أوصاها أم لا ،فقالت :

- " هي هناك بحجرتها ،تستطيع أن تقول لها أنت ."
- " أحدثتها وأبدت معارضة ؟"
- " قلت لك لم أحدثها ولن أحدثها . هي أمامك ان شئت أن تحدثها أنت."
- " أنا قررت أن تتزوج وقراري قضاء . اذا كنت لا تستطيعين حتى اقناع ابنتك فلماذا تصلحين ؟"
- " أصلح لكنس المماطن ! "
- " كنس المماطن ... أتريدين أن أكنسها أنا" (1).

فالمعجم اللغوي لخيرة يدل على أن الحوار مقطوع بينها وبين ابنتها وعلى وعيها على أن دورها لم يتعد الخدمة المنزلية .

والمعجم اللغوي لعابد يدل على استبداده بالرأي مع البنت والأم، على تصوره لدور المرأة ،بحصره في الخدمة المنزلية .

---

1 - الروايـــة . ص : 90 .

أما الاقتصاد اللغوي ،فيدل على فهم كلا من عابد وخيرة لبعضهما ،فهي لا تأمل تغيير موقفه ، وهو يؤكد لها ذلك بأوجز العبارات .

فعبارة (قرايي قضاء) مثلا ،استعارة ،يضع فيها ابن القاضي نفسه في مرتبة الاله . وعبارة ـ "أصلح لكنس المعاطن !" كناية عن المدور الكريه الذي وضعت فيه خيرة والمرأة عامة .

وقد دل هذا الحوار على اتجاه الأحداث ،حيث مضى عابد في تنفيذ خطته ،واستسلمت له الزوج دون أدنى معارضة ،حتى النهاية .

واللغة التي وظفها الكاتب على طول الرواية ، لغة ذات مستوى واحد ، فالعربية الفصحى البسيطة الخالية من التعقيد ،ومن الدارجة في الغالب ، هي التي جسدت طبيعة الشخصيات الروائية المختلفة ،تجسيدا صادقا وواقعيا وحيا .

يقول مالك في مكالمة هاتفية " أتعتقد ذلك ؟ . . . لا أبدا . . . انك مخطئ ،انه في طور الطفولة . . . ولن يستطيع أحد أن ينتظر نجاحه في ظرف سنة أو سنتين . اذا استطاع العمال أن يخدموا الأرض فلن يستطيعوا من الآن القيام بكل مقومات التسيير . . . المعدات وحدها ليست هي كل شيء ،فهناك أمور أخرى لا تخص يتوقف عليها نجاحه . . . كيف ؟ لا . . لا ،أبدا ،لست واهما ،ولا متعصبا . . . من ؟ الاصلاح . . . الاصلاح . . لا أعبث مطلقا الاصلاح الزراعي هو السبيل الوحيد . لا . . . لا ، الشعب . . . عمال الأرض لا يرغبون فيه ؟ . . . هذا هو عين الوهم . . . طبعا أعرف أنه لا يتم اليوم ولا غدا ولكنه . . . كيف ؟ لا شك في ذلك . سوف ترى . . في خمس سنوات ؟ المدة لا تهم . . . عندما يتم شرح كل المبادئ التي يرتكز عليها والغاية المرجوة منه . . . هم أنفسهم يأخذون الأرض قسرا . . . سوف ترى

ان حييت ... أعرف أنك تحيا .....ماذا تخسر أنت اذا وقع ؟
ـ أنا ؟ لو لم يكن يهمني لما اخترت دفن نفسي في هذه القرية ... هل تشك في ذلك ؟ الزواج ؟ ... الارض أولا ... نعم ... الى اللقاء." (1)

فالنص يكشف عن نظرة مالك الاصلاحية والثورية ، والالفاظ والتعابير المستعملة تدل على هذه النظرة دلالة واضحة : الاصلاح ،الشعب ،عمال الارض ،هم أنفسهم يأخذون الارض قسرا ،لو لم يكن يهمني لما اخترت دفن نفسي في هذه القرية ، الزواج ؟ ... الارض أولا ... الخ .

وحتى في حديث القرويين (2) يستعمل الكاتب اللغة العربية الفصحى ولكنها لغة بسيطة ،وفنية ،تكشف عن المستويات الواقعية للشخصيات ، وحديثهم عن الجنة ،والنار ،والحساب ،والاشتراكية ، يمثل خير تمثيل نظرتهم.

ويقع الكاتب في أخطاء صرفية ،ونحوية ، في الرواية ،ومنها على سبيل المثال قوله : " هذان الهديان الطويلان اللذان يعطيان ..." (3) .والصحيح وهذه الاهداب الطويلة التي تعطي .

وقوله :" لكنها مع ذلك ،لابد أن تثور ،أن تعارض كل سيطرة خارجية مهما كانت " (4) ،والصحيح " تكن " لا كانت .

وكذلك قوله :" يقف متأملا في الربى" (5) ،والصحيح متأملا الربى .

وأيضا قوله :"الشبه بينهما لا يقتصر عند هذا" (6) ،والصحيح على هذا .

---

1 - الرواية . ص : 227 - 228 .
2 - الرواية . ص : 177 ،178 ،185 ،186 .
3 - الرواية . ص : 37 .
4 - الرواية . ص : 83 .
5 - الرواية . ص : 73 .
6 - الرواية . ص : 160 ..

* * *

ويوظف المؤلف الجمال الطبيعي فعندما تهب ريح الشمال تحا...... الحياة ويسود الهدوء ،وعندما تهب ريح الجنوب تعصف بكل شيء ... وبالانسان .

والريح في الرواية تحمل " قيمة رمزية فكلما هبت أطلقت غرائز ... القرويين من عقالها وفجرت مشاعرهم العنيفة "(1).

كمشاعر عابد بن القاضي ليلة الجمعة (2) ،ومشاعر ابنته (3) ،وزوجـ... ومشاعر العجوز رحمة (5) ، ومشاعر المعلم الطاهر ليلة تدشين المقبرة (6) ، ومشاعر الأم يوم مفاتحة نفيسة بقرار تزويجها (7) ... الخ .

ولعل ريح الجنوب تشبه في وظيفتها الروائية " الشمس " في رواية الغريب لالبير كامو ،فهي تثير الغضب الى درجة تدفع للقتـــل ،وكذلك الشمس التي تطلق الحمل من عقاليه في مسرحيات كاتب ياسين ...... وجبسان (8) .

---

1 - د . السعيد عطية أبو النجا عالم الفكر . ص : 268 .
2 - الرواية . ص : 7 .
3 - الرواية . ص : 8 ، 10 ، 12 .
4 - الرواية . ص : 11 .
5 - الرواية . ص : 16 .
6 - الرواية . ص : 54 .
7 - الرواية . ص : 65 .
8 - ...... أبو النجا نفس المرجع والصفحة .

* * *

وظف الكاتب التراث لربط شخصياته وأحداثه بواقع الريف ،والجزائر وظفه توظيفا واسعا جدا ،في عادات الزواج ،وكرم الضيافة ، والشهامة ، وتقاليد المآتم ،والتداوي بالأحجبة ، وزيارة المقابر ،وصناعة الفخار ،والثأر ، والهبة ،والصدقات ،وتبجيل الكبير .

وقد أثرت هذه العادات على منطوق الشخصيات كما أثرت الأمثال الشعبية ،والشعر الشعبي ،والقرآن ، كما أثرت على اتجاهاتها وسلوكاتها أيضا .

وجاء تضمين القرآن الكريم تضمينا موحيا ،فبعد سؤال الفلاح عن الاشتراكية ،والتفسير الساخر اليائس الذي أعطاه لها الشيخ ،والنقاش الحاد الذي دار بينه وبين عابد ،قرئ القرآن لفض النزاع في المأتم .

يقول الكاتب " ولما رأى شيوخ القرآن أن الكلام اتخذ منعرجا خطيرا أو مأوا الى بعضهم بعضا باستئناف التلاوة الجماعية ،وعوذ المسن فيهم: "بسم الله الرحمن الرحيم ،تبارك الذي بيده الملك ،وهو على كل شئ قدير الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أحسن عملا "(1) فهناك ايحاء يشير الى الحل الاسلامي فيما أعتقد .

" وابن هدوقة كذلك يميل الى استخدام الأمثال الشعبية وبخاصة في رواية " ريح الجنوب "وهو بارع في هذا الاستخدام لدرجة أن هذه الأمثال تتلاحم مع الفصحى في صياغة واحدة معبرة ،ان لابن هدوقة من البراعة في

---

1 - الرواية . ص : 187 .

هذا الاستخدام بحيث يجعل القارئ وكأنه يعيش في القرية فعلا ،وهو ما يضفي على الرواية قيمة تاريخية خاصة "(1).

"ويأتي المثل الشعبي في ريح الجنوب (يتردد أحد عشر مثلا) ليعبر عن مواقف وتجارب وليكشف عن نفيسة الشخصيات وخاصة شخصية العجوز رحمة ،ويساهم في تطوير الحدث ،وذلك في عبارات فنية قصيرة تقبلها لبيئة الحوار الفني "(2).

وقد اتخذ ابن هدوقة موقفا مستنيرا من التراث " اذ فرق بين العنصر الايجابي فيه ،والعنصر السلبي فتعاطف مع الاول وجعل له دورا هاما في بناء الرواية ،وتناول الثاني برؤية نقدية فكشف عن زيفه ،وترك القارئ يحس أنه ظاهرة مرضية "(3).

* * *

أما نهاية ريح الجنوب فهي نهاية مفتوحة معلقة شبيهة بنهايات الخيالة ،القوية ،الموحية ،المثيرة للفكر ،ولا أرى عيبا في استعمالها في الرواية ،بقصد اشراك القارئ في الحل ،وهذه سمة من سمات الرواية المعاصرة ، في سعيها لأن تكون روايات بحث ،لا روايات حلول مستهلكة وهي تعكس عمق الرؤية وامتدادها عند الكاتب ومرونتها في التعامل مع الواقع المتجدد أبدا .

---

1 - د . محمد مصايف ،الرواية العربية الجزائرية الحديثة . ص 19 .

2 - عبد الحميد بورايو مجلة آمال السنة العاشرة ،العدد 51 ، 52.ش.و.ن.ت. ص : 10 .

3 - عبد الحميد بورايو ،نفس المرجع . ص : 11 .

* * *

أ - عرض علينا الروائي عن طريق مصير شخصية نفيسة ،مصيرا معلقا .

نجهل بعده الجهل كله ما اذا كان الأب سيعود بابنته الى نقطة الصفر فارضا عليها الزواج نفسه أم لا ،وان كان سيعاقبها ،بالضرب ،أو بالحبس والانقطاع عن الدراسة أو هذه الاشياء جميعا ،أم يسامحها ، اذا عاش طبعا .

وهذا المصير المعلق مثير جدا ،يذكرنا بالمسرح الملحمي لبريشت ذي الايقاع الذهني ،وتترتب عليه نتائج هامة :

1 - ان القراء سيجدون أنفسهم يحاولون صياغة التحديدات التي سكت عنها الكاتب .

2 - ان اختلاف مواقف القراء سيفرز تحديدات متنوعة .

3 - ان هذه التحديدات المتنوعة ،التي تصدر عن مواقف متنوعة ،كمن يعقد مجلس شورى حول أمر معين ،فتظهر الذوات الجماعية الاخرى ،لا ذات الكاتب الفردة فقط ،مما يكشف عنده عن توجيه غير مباشر ديمقراطي وعن موضوعية كبيرة .

4 - ان النهاية المعلقة تعني أن الكاتب ترك النهاية المحددة اطمئنانا الى الأولى ،أكثر من الثانية ، ايمانا بأن الموقف المعالج لا زال في حالة تشكل ولم يأخذ مسارا لا رجعة فيه بعد ،والى الآن فان تسييس الموقف النسوي مسألة طليعية محدودة الانتشار .

5 - وفي هذه النهاية تتجلى روح تجريبية أصيلة لا تأخذ بالتنبؤ

المزيف بقدر ما تكشف عن الواقع والحقيقة وهي روح عريقة تسري في القصص التاريخي المروي بالاسانيد ،هذا القصص الذي يعكس طبيعة العربي الذي تجذبه الحقيقة الواضحة ،ويبعد عن الخيال الخرافي الوثني .

6 - ثم أن النهايات المحددة تحديدا كاملا ،في جوهرها ، وتفاصيلها تطلب في المصائر والقضايا الماضية التي حدثت بالفعل فصارت مصائر أو قضايا تاريخية نهائية ،فنحن اذا أخذنا مسألة الاصلاح الزراعي في " ريح الجنوب " نجد الضربة التي تلقاها عابد بن القاضي رمز الاقطاع من البكماء أم رابح كرمز للطبقة المستضعفة ،لم تكن ضربة قاضية ،وبالفعل فان الاصلاح الزراعي نفسه من سنة 64 التي جعلها الكاتب اطارا زمنيا لحوادثه الى سنة 70 التي انتهى فيها منكتابتها لم يكن أمرا مقضيا تماما ، ولم يظهر ميثاق الثورة الزراعية الا سنة 1971 .

وتذكرنا هذه النهاية ،بنهاية رواية الزلزال للروائي العربي الجزائري " الطاهر وطار " الذي جعل بوالارواح يجن ويطارده الأطفال ،وتأتي الشرطة لتأخذه الى مستشفى المجانين ،فالضربة في الرأس في " ريح الجنوب" و الجنون في الزلزال" شئ واحد ،يوحي بانحلال العقلية الاستغلالية ،ولكنه لا يقضي عليها ،فشفاء الرجلين وارد كعدم شفائهما ،وتملصهما من التأميم وارد كعدم تملصهما أيضا ،والمهم أن النهايتين غير محددتين تحديدا كاملا ،وذلك لأن اتجاه الريح آنذاك لم يكن واضحا كل الوضوح ولا قويا كل القوة ولا حاسما كل الحسم وتلك طبيعة السلطة البرجوازية الصغيرة على أية حال .

ونفس الشئ ينطبق على مسألة المرأة بصفة عامة ،فالمؤكد أنه قد ظهر جيل جديد لم يعد يأكل لقمة الخضوع ولا يستسيغها ،وتنبعث فيه روح ترهص بالثورة ،ولكنها في الأخير ليست الا خطوات فردية على

الطريق تعزنها الجماعية والتنظيم .

ذلك أن الظروف في هذه الرواية لم تنضج لتقبل الثورة بعد ،كما أن تركيب الشخصية "نفيسة" فيها حب للحياة السهلة ،وحياة الثوري ،هي الحياة الصعبة اذا شئنا الحقيقة ، ونفيسة تكتشف ذلك قبل تمردها فتقول"الموت أفضل من حياة أقضيها في الكآبة والندم"(1).وهذه هي بذرة الثورة لأن الثائر يعطي ويضحي أساسا .

ب - عبد الحميد بن هدوقة روائي يمتاز بالموضوعية والصدق والأصالة، وها هو من أول رواية له ، يصور شخصية ترمز الى التواصل الحضاري الايجابي لتكون الضياء الماضي الذي يلتحم بالأفق العادل ، والطريق السليم الذي يتمثل في العمل المتقن .

وهو ليس شوفينيا متعصبا للذات المحلية ، بل يؤمن بالتفاعل ،وقد جعل شخصية نفيسة التي ترمز للآتية الجديدة التي تتشكل تستنير ببعض العناصر الثقافية الغربية .

كما أن الأشخاص الذين يرون ضرورة انقلاب الأوضاع في الرواية يستمدون نظرتهم من المساهمة الأساسية للريفيين البؤساء وهم الأغلبية في الحرب ، وعن طريق الهجرة حيث يتم اللقاء بالفكر الانساني الغربي والشرقي ، وعن طريق الاذاعة والجرائد أي الأجهزة التي تنقل الحل الاشتراكي عموما .

والعجوز رغم شقائها ترى ان الاستقلال في حد ذاته مكسب" لا تبكي يا خيرة ،ان أيام الأحزان تقابلها أيام المسرات . والثورة الآن انتهت ونحن

---

1 - الرواية . ص : 238 .

ـــــــــــــمداء في أرضنا ،من ظن أننا نحيا حتى الآن ! ألا تذكرين تلك الأيام السوداء التي عشناها ؟ كانت أياما تشبه القرون ومع ذلك انقضت والحمد لله ،بهددت فرنسا وزمجرت وملأت الأرض والسماء دويا ،ولكنها في النهاية أنكسرت وأنسحبت وبقيت الأرض لأهلها ..." (1).

والعجوز تحس بشقائها وتعتقد ان لا فرق بين حياتها وموت زوجها الأخضر ،وهي ان كانت توحي بحل المسألة الاجتماعية عن طريق السلطة الشورية للبرجوازية الصغيرة (تريد زواج مالك من نفيسة) فانها تركز في نفس الوقت على العمل ،وكأنما ترمز الى ضرورة تطور الانتاج الى جانب تطور السلطة وكأن العمل والسياسة وجهان لعملة واحدة .

وقد جعل الكاتب العجوز تموت ،وفي ذلك ايمان بالعنصر القدري في أفول الحضارات والدول أو المراحل الكبرى كما تنص على ذلك الآيات القرآنية الكريمة " وما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون "(2) و " لكل أمة أجل ،فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون "(3).

وهو ما يعتقده ابن خلدون أيضا (4).

وقد واجهت العجوز قوى كبيرة ،الشيخوخة والعجز العقلي عن تصور الآتية التي تريدها بكل ذرة فيها ، والفقر ،فكم من مرة سقطت وكم من مرة جاعت ،وكم قاست من الوحدة " كيف تطفيء هذا المارج الملتهب في حناياها ؟ من أين لها وهي في تلك الحالة أن تصل الى قربة الماء المعلقة في فناء

---

1 - الرواية . ص: 30 .
2 - سورة الحجر الآية . 5 .
3 - سورة الأعراف الآية 33 .
4 - كتاب مقدمة ابن خلدون العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. مطبعة عبد الرحمن محمد القاهرة ص:121

الدار ؟ لم تستطع أن تحرك لسانها وتشكوها تجده من عطش . كل جوارحها لم تعد قادرة على الحركة ولا الشكوى ،كانت روحها فقط هي التي تشكو، وهي التي تصرخ ،ولكن صرخة الروح لا تسمع ! ما أمر الوحدة اذا ساكنت الشيخوخة والمرض !

" العطش ،العطش ،العطش ،!
ثواني الظمأ آباد وحدها .
" الحمى ،الحمى ،الحمى ! "

لحظات الألم هي العمر الحقيقي لكل انسان يا لبشاعة الكمال الذي يسعى اليه الانسان !" (1) .

أما أعوانها فهم عاجزون مثلها ،فمالك لا يفعل شيئا للعجوز ،ولا لغيرها سوى توزيع الدقيق ،ولكن رابح يساعدها أحيانا ،وقد انقذها وأسعفها وقتل الثعبان في فناء بيتها ، كما أن أسرة عابد بن القاضي تستقبلها ،وتستضيفها ولكن الرجل يرضى بحرمانها وهو يقول " ما أود هو أن يتعاون الناس ويعملوا بلا ثرثرة مثل ما كانت العجوز رحمة رحمها الله " (2) ، كما يقول " لكن الفقيدة سعدت بحرمانها أكثر مما سعد المحظوظون بمايملكون" (3) .

ومع ذلك ففي توزيع تركة العجوز ،البيت تصير مدرسة ، والأواني توضع في متحف القرية المركزية ، وباقي الأثاث للفقراء ،اشعاعات رمزية ، فالتعليم والتاريخ ،وتوريث الفقراء ،مسائل من صلب حضارتنا ،بل ومن صلب الحضارة العالمية التقدمية حتى ،وفي ذلك نجد استمرارا وتخليدا لروح الفقيدة.

---

1 - الرواية . ص : 141 .
2 - الرواية . ص : 183 .
3 - الرواية . ص : 180 .

ج - يقول الكاتب عن معالجته لصورة المرأة في الرواية " لست شيوعيا ،لدي ميول اشتراكية ،ليست لدي معارضة عقائدية مسبقة ضد المنظور الاسلامي ، ولكني لا أنطلق منه في حل قضية المرأة ،لانه لا يجد تطبيقه على أرض الواقع ... ومن الذين يعتقدون بأنهم شيوعيون من يتعاملون مع قضية المرأة على أنها القضية الاجتماعية العامة لا أكثر ولا أقل ،ولذلك فهم يرون في حل القضية العامة حلا لقضية المرأة النوعية ،بينما تظل قائمة وحية في الواقع "(1).

ويقول الاعرج واسيني ان "ابن هدوقة لم يتخلص أبدا من تصوراته الموروثة ،التي تركز على المسائل الثانوية ،وتعتبرها جوهرية في الصراع الاجتماعي ، فالاعتراف بقضية الصراع بين الرجل والمرأة ،كصراع جوهري محدد لمصائر الجماهير النسوية المسحوقة . أمر مغلوط وشكل من أشكال التصور البدائي للقضية ،أليست نفيسة ضحية لبطش الاقطاع ؟؟ ورابح ألا ينطبق عليه القول نفسه ؟؟ فهناك اختلاف في درجة الاستغلال وليس في الجوهر . فكلاهما موجود تحت ضغط وضع لا يحسد عليه ، وطرح العداوة بين المرأة والرجل ،تاريخيا ،كما يطرحها الكاتب في أحايين كثيرة ،أمر مدخول ،وربما بدون وعي وتمويه لقضية الصراع الجوهرية المطروحة اجتماعيا بين مستغل ومستغل سواء أكان امرأة أم رجلا ، فكلاهما عبد للعلاقات الاقطاعية السائدة ،ويفترض في الكاتب ،في مثل هذه الحالات التوجه لاعداء الطبقة المسحوقة ، لا للامور الثانوية التي لا يمكنها أن تحل المشاكل الجوهرية بقدر ما تؤكدها وربما تكرسها بدون وعي منها ،وطرح ابن هدوقة هذا يحدد تصوره وموقفه من المرأة بشكل عام ... وصدق ابن هدوقة أو صله الى لمس جوهر المرأة المنتجة ،المرأة التاريخ وذاكرة الثورة من خلال العجوز رحمة "(2).

1 - من مقابلتي الاولى للكاتب
2 - الاعرج واسيني "اتجاهات الرواية العربية في الجزائر . ص : 350 .

وهكذا بينما يلح الكاتب على القضية النوعية ،علاوة على القضية الاجتماعية يلح الاعرج واسيني على المسألة الطبقية أولا ،ثم يناقض نفسه اذ يكتشف صدق الكاتب ،وبأنه لم يتناول القضية كقضية نسوية معزولة عن اطارها العام ،وهذا ما تصل اليه أحلام مستغانمي اذ ترى " أن مشكل المرأة في ريح الجنوب مطروح في نفس المستوى مع الأرض والثورة الزراعية أليست الأرض في بلدنا كالمرأة يعود أمرها الى نفس السيد الذي لا يرغب في الاعتراف بحق الفلاح في الملكية ،ولا بحق المرأة في الحرية ، في وقت تصنف فيه المرأة مع أدوات الاقطاع مثلها مثل القطيع ،ولا تملك حتى أهمية الأرض ،ففي ريح الجنوب يضحي ابن القاضي بأبنائه من أجل المصلحة من أجل الأرض" (1).

وفي نظري أن العلاقة بين قضية المرأة والقضية الاجتماعية العامة ، علاقة جدلية ،لا جامدة فالمكاسب النسوية تساعد على دفع عجلة التقدم العام والعكس صحيح ،وموقف المرأة من الثورة ،والثورة من المرأة في فترة الحرب المسلحة ،قد كان نموذجا لتوحد وانصهار الآمال العامة والنسوية وان كان زمن الاستقلال قد عطل هذه الحركة الايجابية المزدوجة ،وخاصة في المجال السياسي ،حيث لم يسمح للمجاهدات القادرات على الافادة بخبراتهن السياسية ،بالممارسة فالواجب يحتم الآن مشاركة المرأة على جميع الأصعدة ،وفي جميع المستويات التي تقدر فيها على العطاء .

---

1) AHLEM Mosteghanemi EL RASSI : la femme dans la litterature algerienne contemporaime tome I P : 393.

ملخص الروايـــــة :

يسافر البشير الى مدرسة القرية ،وفي طريقه ،يتعرف على بؤس المنطقة وتناقضاتها ،فالاطفال رعاة ، وأغلب البيوت المتفرقة تعيش من عرق المهاجرين والادارة بعيدة عن مشاكل السكان الفقراء ، والمالك العقاري الكبير يســـوق أغلبهم كالقطايع ،ومع ذلك فقد وجد البشير في كرم الريفيين وصفاتهـــم طبيعة واعدة بالاصلاح والثورة .

وبعد أن يتعشى عند كبير القرية ،يعود الى بيته بالمدرسة ،ويستغرق في الذكريات الماضية ،مع زوجه رقية ،ثم في أرض المعركة ،ثم في الجبـــل ثم بتونس ، وألمانيا الديمقراطية حيث عولج ،ثم بتونس ثانية حيث درس ، متذكرا حياده السياسي آنذاك أو خطأه ،وتطاحن القادة على السلطـــــة واهمال المحتوى الاجتماعي للثورة ،وحبه لناجية زميلته الطالبة التونسيـــة وعودته الى قريته المدمرة بعد الاستقلال ،وفقدان الأهل ، ثم الاقامـــــة بالعاصمة . ،وتربيم المدرسة فيخرج ولا يرى أحدا .

يستيقظ فجرا ،ويذهب الى المقهى ،مستفسرا عن امكانية شراء مـــواد غذائية ،وأواني للمطعم المدرسي . يدله التاجر محمد على أم الحركـــــي صانعة الأواني ، فيحكي له القهواجي منفردا حكاية هذه العجوز البائســـة فيقرر البشير في سره تشغيلها بالمدرسة ؛ وتحدي أهل القريـــة .

يزور البشير المسجد ،فيحدثه الامام عن اهمال الدين والعربية ،وحول انحراف المرأة كما يراه ،ويطرح عليه البشير فكرة الارتحال الى قرية جديـــدة فيجد جبلا من المعارضة ،فيتركه ومنظر الاطفال البؤساء يحز في نفسه .

فريدة تخرج حين ينادي بوغرارة جدتها ،خائفة لاهثة ساعلـــــة

فيحس البشير بعطف عميق نحوها ،ويلاحظ شبهها برقية ،ولكنه يستبعد بقاء ابنته حية ،وفي بيت حركي .

العجوز ربيحة تخرج خائفة هي الأخرى ،بوغرارة يخبرها أن المعلم يريد أواني ،كما يعرض عليها العمل ،فتطير فرحا ،لأنها ستعمل بأجرة مائتي دينار في الشهر .

طيبة البشير حديث الكنة والحماة ،رقية تسأل عنه وتجد إحساسا عاطفيا غامضا تجاهه ،وأحست بسرور وخوف من احتمال عودة زوجها الأول البشير ،وبكت لتعود الى ذكرياتها الماضية : خطوبتها التقليدية في الرابعة عشر ،وزفافها في الثامنة عشر ،يوم 1 نوفمبر 1954م ، وخوفها على زوجها بعد التحاقه بالجبل بعد شهر واحد من الزواج ، ثم الحمل والولادة ومصاعبهما ،وتفكيرها في حمل السلاح ، وتغلب نداء الأمومة عليها ،وحياتها وحياة القرية القاتمة المفزعة ،ومقتل الشامبيط ،واغتصاب العساكر الفرنسيين لها ،وانتقام الشيخ حمودة لشرف ابنه ،وقتله لثمانية عساكر ، وتحدي العجوز سعدية لأوامر السلطة الفرنسية ،ومحاولة دفنها لزوجها ، واستشهادها ، وبقاء رقية وحيدة هي وابنتها فريدة .

بوغرارة والبشير يتجولان في بساتين القرية ، التي يملك أغلبها ابن الصخري ، ويتحدثان عن ملكيته اياها ،وطريقة في ذلك ،واستغلاله للأجراء ، ومعارضته لنقل الماء ،ثم يعودان الى المقهى ،فيواجهان سخط الناس ،ويقف معهما القهواجي ناصحا البشير أن يطلب منهم ايجاد عاملة أخرى اليوم ،ان أصروا على رفض العجوز ،وبعد تشاورهم مع ابن الصخري والامام يعودون ،ويعرض عليهم المعلم الأمر ، فلا يرضون .

في الليل يصطدم البشير بمشكلة انعدام الكهرباء ، فيفكر في شراء

مجموعة كهربائيــة ، ثم يعود الى ذكرياته مع ناجية ،وحبهما ،وتمردهما على أهلهما ، وعملهما بالجزائر وزواجهما ،وطلاقهما ،ودخوله مستشفى الأمراض العقليــة .

تهدد العجوز ،فلا تذهب الى المدرسة ،ويأتي اليها بوغرارة ليعيدها الى عملها ،ويذهب هو والمعلم الى ابن الصخري ،فلا يتفقون ،ويهدد كـل طرف الآخر ،ثم يذهب بوغرارة الى رئيس البلدية لاخباره بالأمر ، تلافيـا لتلفيق تهمة للعائلة ، فابن الصخري يستطيع أن يفعلها ،ويشتري معـه الأعمدة الحديدية والأسلاك التي يحتاجها البشير لتسييج المدرسة .

الطفلة فريدة تموت ،فتخبر العجوز المعلم ،الذي يخبر بدوره مـن بالمقهى ،فيسخر منه أحدهم ، ويتخاصمان ،ثم يشتري المعلم لوازم المأتـم ، ويبعثها الى البيت ،شاعرا بالذنب لأنه لم يعجل بعرض الطفلة على الطبيب أول ما رآها .

يحضر المأتم بوغرارة والقهواجي والامام وابن الصخري وثلاثة من قراء القرآن علاوة على البشير .

وفي الغد صدفة تلمح رقية البشير وتتعرف عليه ،فتقع مغشيا عليها وتتحجب جيدا عند مرافقة الجنازة لئلا يعرفها .

البشير يتعزز لوضع القضبان فيأتيه ابن الصخري لسبر أغواره فيهاجمه مباشرة بينما يعرض عليه الرجل العمل في مزرعته ويشككه في مبادراته .

قدور يأتي فجأة ،لاخبار والده بأن نقل الماء الى المدرسة سيتم ، فيطلب منه والده ابن الصخري المعلومات المجموعة حول البشير ،ويجد في حادثة دخوله مستشفى الأمراض العقلية ،وانتمائه ،وسيلة لطرده ،اذ يكفي

أن يشيع عنه أنه مجنون ،وشيوعي .

تصل البشير رسالة فيها خبر نقل الماء ،والأخرى حول قبول العجوز كعاملة بالمدرسة ،فيخرج ،ويدفع ثمن القهوة للجميع ،وينسجم مع أهل القرية .

يصل رئيس البلدية ،وكذا المهندس والآلات والمعدات ،ويحاول ابن الصخري احتواء الموضوع بدعوته الجميع الى بيته مباشرة ،ولكن رئيس البلدية يعتذر ،ثم يخطب في الناس ،فيصيحون بين معارض ومؤيد ،ويتدخل ابن الصخري لتعطيل المشروع ،فيأخذ الكلمة المهندس ،ويفحمه وتعلو التصفيقات وتتجاوز الأحداث الاقطاعي . على الخامسة صباحا ،توقظ العجوز البشير، مخبرة اياه بانفجار المسجد ،يخرج فيرى جماعة قادمة ،صارخة مهددة ، تنصحه العجوز بالدخول ،وحين يشتد الرجم ،يخاف أن تدمر المدرسة فيخرج ثانية ،فيصاب في عينه ، ويصل بوغرارة وشخصان آخران شاهرين السلاح ،فيعود الجمع من حيث أتى .

يجري التحقيق ،فيتهم الامام المعلم ، أما الضابط فيواجه ابن الصخري بالتهمة ، أما البشير فيخفي اسم ضاربه ،وشكوكه . البشير يباشر تسجيل الأطفال ،ويطلب من العجوز أوراق ابن ابنها السعيد ، فيكتشف أن كنتها زوجه الأولى ،وأن فريدة ابنته .

يطلبها فتأتي ،وكل منهما متخوف من الآخر ،وفي النهاية الأولى يغادر القرية ،أما في النهاية الثانية فيطلبها للزواج .

* * *

مـــدخـــل :

1 - صورة رقية ،صورة قريبة من الأولى ،تكاد تتجاذب مع البشير نفس المرتبة في الرواية ،مثلها مثل شخصيات أخرى ،وهي تمثل نموذجا مدنيا لضحايا فترتي الحرب ،وما بعد الاستقلال وترمز الى جزائر الثورة الوطنية (الماضي) خاصة ، كما ترمز الى الطبقة الفقيرة ، والى الوطن بصفة عامة .

2 - صورة ناجية التونسية ،وهي شخصية ثانوية ، ولكنها ذات أهمية فمن طريقها ينقد الكاتب الاتجاه الليبرالي في تونس ،وفي العالم العربي والاسلامي عامة .

3 - صورة العجوز سعدية ،مكملة لصورة رقية ،نموذج للتمرد على السلطة الاستعمارية ، والجيل العجوز ،والبؤس الطبقي أيضا .

4 - صورة العجوز ربيحة ،تطابق صورة رقية في فترة الاستقلال ،وتمثل الجيل العجوز والبؤس الطبقي في الفترة المذكورة .

5 - صورة الطفلة فريدة ،وتمثل ملمحا من ملامح التخلف ،ففقدان الرعاية الصحية يجعلها ضحية للسل ،كما تمثل مثل أمها رقية ،وجدتها ربيحة البؤس الطبقي ، كما أنها رمز لانحسار التيار الاجتماعي الضعيف الذي كان يتشكل في اطار الثورة الوطنية .

* * *

الصـــورة الجسميـــة

- الصـورة الجسميـة لرقيـــة :

" منحتهـا الطبيعـة وجهـا صبيحـا وعينين شهلاوين ، وشعرا أصهـب وأعطتهـا جسمـا مستقيمـا لا عوج فيه ولا أمت ،ليس بالرقيق المشين ،ولا بالغليظ الفاضح كانت بين بين ،وكانت قمحية اللـون ، ممتلئة الصدر بثغرها فلجـة تميزها وتعطي لابتسامها سحرا وسذاجـة "(1).

ويتناولها الكاتب من خلال الشخصيات الروائيـة ، ويقـول البشير في حـوار داخلي " عشت بصورتك ،بكلماتك العذبة ،بدموعك اللطاف ،عشت بذكراك بما كان فـي عينيك من حلم ،بما كان في قلبك من حنان ، عشت بأسماء المشرق بجمال وجهك الاخاذ ، بصفاء روحك ،بحبك . في كل جميل كنت أرى جزءا من ملامحك . في كل نـور أرى قبسـا من نظراتك في كل طيف أستشف لطف شمائلك . كنت أحبـك وأراك فـي نفسي وفي الاشياء "(2).

وهكذا يعطي الكاتب للصورة مستوى ماديا معددا ، ومستوى رمزيا مجـردا يقـول الكاتب " رقيـة هي جـزائـر الثورة الوطنيـة بالتحديد ثورة 1954"(3).

أما الصورة الماديـة ،فتتأثـر بضغوط الواقـع ،والحمل كحقيقة أنثويـــة قد جعل رقيـة تشعـر ببشاعتهـا ، فجسمهـا " راح يفقـد استقامتـه وخفته شيئا فشيئا حتى ثقل فصار عبئا عليها ،وانتفخ انتفاخا منكرا حتى ليخيـل اليهــــا أنها انسلخت عن جسمهـا الجميـل وأدخلت ادخالا في هذا الجسم المنتفخ

---

1 - الروايـــــة . ص : 84 .
2 - الروايـــــة . ص : 255 .
3 - من مقابلتي الاولـى للكاتب .

الغريب . ويعتريها زهد فيما يتصل بمظهرها الخارجي فتعتقد في قرارة نفسها أن الشباب ولى عنها الى الابد وأن زوجها سوف لن يراها الا على أنها فرد من أفراد العائلة " (1) .

واذا كانت بعض النساء أثناء الحمل يظهرون ذوات مظهر بشع ، فالحقيقة أن عاملا آخر ، هو جو الحرب الذي ضاعف هذا الاحساس عند رقية ، فهي بعد الاستقلال ، وقد ظهر البشير تستعيد احساسها بجمالها " كانت تفكر أنها لو لم تصب بمصيبة الزواج بحركي لكان في امكانها الآن أن تفتح قلبها للأمل من يدري ؟ هي ما تزال وسيمة ، لو تعتني بنفسها قليلا لما انتقل النظر عنها الى غيرها . انها تحس بأنوثتها الآن قد اكتملت والاثنان والثلاثون سنة التي بلغتها ليست كثيرة ، انها مستوى النضج الحقيقي للمرأة" (2) .

ونظرة رقية لجمالها نظرة بسيطة ، انه في نظرها وسيلة ترضي وتجذب الرجل لا أكثر ولا أقل .

ونجد أن الكاتب يهتم بانتقاء الجيل الذي أثرت في حياته الحرب فمولد رقية كان عام 1944م ، وزليخة ونفيسة في " ريح الجنوب " من مواليد نفس الفترة ، أي فترة الحربين العالميتين وقد وضحت أهمية هذه الفترة فيما سبق .

---

1 - الرواية . ص : 85 .

2 - الرواية . ص : 170 .

- الصـــورة الجسميـــة لناجيـــة :

تقدم من خلال ذكريات البشير الليلية ،اذ تظهر له "بحاجبيهـــــا العريضين الجميلين ،وعينيها السوداوين الواسعتين ،والشفتين الرقيقتـــين الصغيرتين ، وأنفها الدقيق المستقيم ،ببسمتها المشرقة ،ونظرات ـــــــا (الحالمتين) (1) بقدها الرهيف ،بصوتها العذب ،باشاراتها المنسجمـــة الخفيفـة ،ويديها الصغيرتين الجميلتين "(2).

صـــور أخـــرى :

أما صورة العجوز ربيحة ،فلا يذكر عنها الا أن "من يراها يستضعفها بيد أنها شعلة من النشاط"(3)

أما الطفلة فريدة فقد رأى فيها البشير نسخة من رقية تماما ،وهنا نلمح اهتمام الكاتب بعنصر الوراثة .

أما صورة العجوز سعدية فغير محددة تماما ، وهناك لقطة لنساء في عرس ،أوردها الكاتب" خرجت متتابعات في فساتينهن الملونة الزاهية ، أذرعهن وأعناقهن يحملن كل ما يملكن من حلي . كن كحيلات الاشـــفار، قرمزيات الشفاه وكن في مشيتهن يظهرن نحيفات رشيقات باسقات .تتقدمهن عجوزان بادنتان في رأس كلتيهما علق خلخال ضخم ،تحمل احداهما طبقا من حلفاء والاخرى فأسا . وكن يتنغمن بأغنية عذبة رخيمة المقاطع ،يغنينها في مثل هذه المناسبة . وكانت بعضهن تطلق زغاريد حادة طويلة عند كل مقطـــع" (4) .

---

1 - الصحيح الحالمة .
2 - الروايـــة . ص : 141 .
3 - الروايـــة . ص : 119 .
4 - الروايـــة . ص : 256 .

الصـــــورة الاجتماعيـــــة

صـــــورة رقيـــــة :

تعكس فقر الاغلبيـــة في الارياف ،وفي الجزائر عامة ،في فترة ما بعد الاستقلال الى عام 1976 ، وفي فترة الثورة المسلحة .

ورقيـة ناسجة صوف ،وقد سبق للكاتب أن أبرز أهمية الحرف التقليدية في "ريح الجنوب" ،في مجتمع تنتشر فيه البطالة ،وتنعدم الصناعة ،ويسود الاقطاع .

والمالك الكبير ابن القاضي يستغل عمال أرضه استغلالا بشعا ،حيث أن الاصلاح الزراعي لم يكن قد ظهر بعد الى الوجود ، ويقول عنه شيـــخ القرية بوغرارة :

"هو أغنى سكان هذه الناحية ،الفقراء أمثالي يعملون وهو يجني الثمـــر أرأيت ذلك الواقف الى فأسه هناك انه عامل بالبستان وحارس ،هذا عملـــه طول السنة حتى أكله لا يستطيع تناوله مع أهله ،ولو سألته كم يتقاضى عن عمله هذا وسجنه الدائم لضحكت مرارة ،على أكثر تقدير يتقاضى قنطـــارا من البر ،أي مائة دينار أو أقل في الشهر"(1).

وحماة رقية هي الأخرى حرفية تصنع الأواني ،أما طفلها ذي الثمانـــي سنوات فقد اتخذه ابن القاضي راعيا لأغنامه استضعافا ،فأمه أرملة ،وأبوه حركي قتل رحما يوم الاستقلال ،وجده قتل خطأ على يد مجموعة من الثوار ، ولذلك خان ولده ، والاقطاعي لا يمنح الطفل الا مقابلا عينيا سنويا تافها ،ورغم اشتغال ثلاثة أفراد من هذه الأسرة المتكونة من أربعة أفراد ،فانهم لا يكادون

---

1 - الروايـــة ، ص : 121 - 122 .

يسدون الرمق ،لضعف القدرة الشرائية عامة ،ولمقاطعة السكان لهم ،حيث أن الانتاج تبيعه العجوز في السوق،وابن الصخري يترأس هذه المقاطعة ، ولذلك فانه لما جاء المعلم البشير الى القرية ،وسعى لتوظيفها عاملة بالمدرسة أثار السكان ضده ،ولكنه بمساعدة الشيخ بوغرارة لم يخضع ،هذا الشيخ الذي لولاه لطردت العائلة من القرية يوم الاستقلال .

ويخبر البشير ماضي رقية ،ومأساتها ،فاذا به زوجها الأول المجاهد الذي اختفى اثر معركة من المعارك ، وكان لها منه طفلة لم يرها ،وبعد مقتل الشامبيط في القرية يقوم العدو بغارة ،يغتصب أثناءها النساء ،ومن بينهن رقية ،فينتقم لها حموها بقتل ثمانية عساكر ويستشهد ،ويحرم دفنه فتتحدى حماتها الأوامر وتستشهد هي الأخرى . وأثناء تدمير القرية ،من طرف عملاء وجيش الاستعمار زعموا انتقاما من قتل المجاهدين لافراد من سكان قرى أخرى ، هربت رقية وابنتها الرضيعة ،وقتل وفقد كل أهلها ،وكل أهل زوجها ،فتزوجها الحركي الشاب زواجا غامضا ،ذلك أنه لما أخذها الى قريته لم تعرف بنسب ابنتها لأحد ،حتى اعتقد بأنها ابنة رابح خطأ .

وزواج رقية من مجاهد في 1 نوفمبر 1954 ،ثم اغتصابها ،ثم زواجها من حركي ،رمز لارتباط الجزائر بهذه القوى الثلاث .

وبظهور البشير في القوية بدأ وضع العائلة يتحسن ، ولكن الطفلة المسلولة تموت وفي مأتمها تلمح رقية البشير وتتعرف عليه ،وعند تسجيل الطفل في المدرسة ،يتعرف عليها هو ،ثم يجعل الكاتب العلاقة بين رقية والبشير في مسارين ،مسار يتركها فيه ،ويترك القرية ،بعد أن أعدها لاستقبال زمن جديد ، ومسار يخطبها فيه ،فتتردد ثم تقبل .

والبشير في الرواية هو رمز الاصلاح والتمهيد للثورة الاجتماعية ،ومن

خلاله ،تحرك الصراع ضد الاقطاع . في القرية ،وبدأت حياة الناس تخرج من جمودها .

صورة ناجية :

صورة فتاة برجوازية صغيرة من أصل اقطاعي مثل نفيسة في ريح "الجنوب"، تبدو في علاقاتها حرة حرية واسعة في الظاهر ،ولكنها في الحقيقة خاضعة وقد شهدت خضوعها ،حين حاولت تجاوز قيود طبقتها ،والارتباط برجل أدنى منها طبقيا ،فرفض أهلها ،ووقفوا ضد ارادتها ، ما نعين اياها من مواصلة دراستها الجامعية حتى لا تراه ،وراده ردا مماطلا حين خطبها ،وقد كانت تدرس في الجامعة علم الاجتماع ،من وجهة نظر غربية " كامو ،دوركهايم " مثلا ،ولذا فقد كانت مستلبة ،مثل كثير من الطلبة ،بنوعية هذه الثقافة ، وان تعاطفت مع الفكر الثوري والحضاري للبشير ،وحاولت ناجية اقناع أهلها خلال سبع سنين دون جدوى ،وكانت تراسل البشير ،ثم تمردت ، هربت ،والتحقت به ،واشتغلت ، وتزوجته ،وما كانت قانعة في أعماقها بحياة البرجوازية الصغيرة" ولذا عملت على توجيه البشير ،الى الوسائل الميكافيلية للصعود الطبقي ،وهي وسائل رجعية تبعية لها مكانها في الجزائر في وسط البرجوازية الادارية والمتعاونين ، هذا الوسط الذي غزته ناجية وزوجها لتحصل له على مرتبة وزير أو ما يقاربها ،ولكن البشير رفض وكان الطلاق .

صور أخرى :

هاتان هما الصورتان الاجتماعيتان البارزتان في الرواية ،وهناك صور أخرى ،مثل صورة العجوز سعدية حماة رتبة الأولى ،وصورة ابنتها فريدة وصورة العجوز سعدية حماتها الثانية ، الى جانب صورة بنت الاقطاعي ابن الصخري .

أما الصور الثلاثة فتطابق صورة رقية من حيث البؤس الطبقي وتعمقهـــا وان كانت تقابلها من حيث تقديمها لشرائح من الفئة النسائية ، فغريـــدة تمثل الأطفال ،وسعدية وربيحة العجائز ، ومن خلال هذه الصور نلاحـــظ أن القهر لم يرحم صغيرا ولا كبيرا ،ولا طفلا ،ولا شابا ،ولا شيخا ،فهـــو قهر لا انساني ،كما أن صورة هذا القهر شاملة ، وعامة ،مما يلهب الحـــس الانساني عند القارئ.

أما صورة بنت الاقطاعي فهي صورة مقابلة لصورة رقية ،وباقي الصور، وهي شبيهة بصورة ناجية قبل تناحرها مع طبقتها .

ونلاحظ أن الكاتب من خلال الصورة الاجتماعية في الجزائر ،وفي تونس وفي المغرب (عبر ثقافته) ، يتابع الصراع الطبقي ،محليا ،وعالميا .

الصـــورة النفسيـــــة

صـــورة رقيـــــة :

لا تنتظر من رقية نظرة ناضجة أو منسجمة ، وانما المعول ،في فهمها بالدرجة الاولى ،على سلوكها . لانها تتصرف وفق ما فطرت عليه ،أو وفق بعـــض القيم الشائعـــة لا أكثر ولا أقـل .

لقد تزوجت زواجا تقليديا ناجحا عرفت خلاله الحب ،وكانت " سعيــــدة بخطبتها من بيت شهد أهله ليلة القدر ،وسعيدة بانتظارها لخطيبهـــــا الطالب بقسنطينة " (1) ،وقد بقي معها البشير شهرا واحدا ،ونجح في أن يجعلها تبادله المحبة بلا عقد ،وفي زياراته السبعة خلال الثلاث سنوات الاولى من الحرب ،كان يحاول أن يقنعها بالثورة ،ولكن مهماته كمجاهد لم تسمح له بالكثير ، وبعد أن فارقها ،لم يظهر تأثيره فيها الا قليلا ،فقد سمت ابنتها حسب رغبتها هي .

أما سلوكها بعد ذلك خلال الحرب وبعدها فقد كان يعبر عن الضعف والاستسلام ،كانت تكرة الاستعمار وشعرت بقدرتها على حمل السلاح ،ولكنهـــا وجدت في الامومة مبررا للقعود (2) ،وحتى للزواج ثانية من حركي .(3)

وبعد الاستقلال رفضت طردها لانها تخاف المجهول واشتغلت ناسجة صوف ،حتى لا تموت جوعا ،ورضخت لابن الصخري ،في مسألة تشغيل الطفـــل خوفا من بغيه ،وكتمت مرض ابنتها ،وسكتت عن علاجها خوفا من الطرد أيضا .

وحتى مجيء البشير ،وحمد سهابه ،لاهتمامه بالطفلة لم تبادر الى التحقق من هويته أملا في الاسراع بالعلاج ،بل راحت تغرق في عواطف مضطربة بين

---

1 - الروايــــــة . ص : 84 .

2 - الروايــــــة . ص : 94 ، 95 .

3 - الروايــــــة . ص : 182 .

الخوف والمحبة والكراهية ،حتى قضت الطفلة دون علاج ،وحين تعرفت صدفة في المأتم على البشير أخفت حقيقتها الى أن أجبرتها الظروف على اظهارها .

ورقية لا تخرج عن بعض القيم السائدة ،فقد استحت أن تدقق في سؤال حماتها عن البشير مثلا ،وكانت تفسر ،ما يصيبها بالقضاء والقدر.

والكاتب في شخصها قد أبرز ضعف كثير من النساء الجزائريات أثناء الحرب وبعدها ،وتغلغل الثقافة التقليدية التي تجعلهن لا يبصرن بأنفسهن الا في حماية الرجل وخدمته ،ثقافة تؤهل المرأة أن تكون عبدة لا حرة .

صورة العجوز سعدية :

صورة ثانوية ،من صور الثورة المسلحة ،تقابل وتوازي صورة رقية انها التمرد مقابل الاستسلام ، وقد سبق للكاتب ان قدم مساهمة عجوز في الثورة في " ريح الجنوب " ،العجوز رحمة .

ونظرة العجوز سعدية نظرة تقليدية في الظاهر عموما ، ولكنها بفعل العواطف والقيم والحوادث ،تحركت نحو الفعل الايجابي ،ولو كان تمرديا .

لقد كان زواج ابنهما البشير تقليديا ،هي والشيخ اختارا رقية ،وجرت مراسيم الزواج حسب العادات والتقاليد ،لكن حين تلد رقية أنثى ،لا تعلن العجوز استنكارها كما هي عادة العجائز المستبدات ،ولا تفرض على كنتها تسمية محددة ،بل تكظم غيظها ،وهناك لديها حد من التفتح لا يتحقق في عجائز أخريات في نفس الفترة ،وهذا التفتح امتد . الى الايمان بأفكار الابن المجاهد . واغتصاب رقية هو الذي شرع في تغيير العجوز ،تغييرا جذريا وها نحن نشهد رد فعلها على ذلك "تدخل فتجد رقية منبطحة على الأرض عارية الى النصف فاقدة الوعي فتحس كأن صاعقة نزلت عليها ويسري بسرعة

مذ علمت فشل في عروقها فلا تقوى على البقاء واقفة فتهوي جالسة صارخة "وابشيراه! وارجالاه! واذلاه! وتأخذ في لطم وجهها وضرب صدرها نائحة صائحة ناحبة والدم يسيل على خديها ممتزجا بدموع الحقد المر المنهمرة من عينيها الغائرتين!" (1).

ورد الفصل هذا هو صورة لندب الجزائريات عموما أثناء المصائب الكبيرة فيما مضى، وبعد هذا تعمل عن قصد على تحريض زوجها الشيخ حمودة لينتقم لشرف ابنه، فيتصل بالثوار، طالبا منهم بندقية رشاشة، ويقتل ثمانية عساكر انتقاما لشرف ابنه، ويستشهد، فيمنع دفنه، فتتحدى العجوز الأوامر وقد "علمت العجوز سعدية كثيرا من السكان باستشهاد زوجها وبالأوامر الجديدة التي أصدرتها السلطة، كانت تبكي بكاء مرا على الحياة التي صار اليها أهل بيتها، ولكن بدل الدموع كانت تخرج ولولات متقطعة من حنجرتها الجافة وعزمت أن تدفن زوجها الشيخ الحبيب مهما كان الأمر، ماذا بقي لحياتها الخاصة من قيمة وقد فقدت من قاسمته حياتها الطويلة، بما فيها من عسر ويسر ومسرات وأتراح، كيف تسكن لها جارحة، وجثة أليفها الشيخ ملقاة على قارعة الطريق؟ لن يكون ذلك أبدا ان حياتها الحقيقية لن تكون الا في الأخرى مع زوجها الشهيد" (2).

ووجهة نظر العجوز، كما تشرحها لرقية هي كالتالي "ان الحياة يا بنيتي هي مسؤولية، وزوجك التحق باخوانه في الجبل، وهو الآن قد يكون حيا وقد يكون قتل، وما فعل ذلك الا قياما بمسؤوليته، وأنا . . . أنا سأدفن زوجي في هذا الصباح، مهما كان الأمر، أعرف أني سأقتل، ولكن أليس الموت لمن في سني أفضل" (3).

---

1 - الرواية، ص : 98 .
2 - الرواية، ص : 111 .
3 - الرواية، ص : 112 .

وبهذه النظرة الجديدة تتحول الشيخوخة التي قد تبدو للبعض عكازا للسلبية ،لتصير سبيلا للعمل ، والمسؤولية كقيمة ومبدأ هي فلسفة هذه الرواية بصفة خاصة ،وفلسفة الكاتب بصفة عامة وقد رأينا البشير يحدد موقفه من الماضي على أساسها حيث يرى أن " الهروب من المسؤولية لا يؤهله للمستقبل "(1).

صورة ناجية :

صورة يحكمها التناقض ،فهي تبدو حرة حريةواسعة ،ومالكة زمام أمرها ، وجريئة ،ثم سرعان ما تحاصرها القيود فترضح لها سبع سنين كاملة ، ثم تتمردا ،تمردا ،يجعلها ،تتزوج وتطلق في سبعة أشهر فقط .

ولقد كانت حين تعرفت على البشير تريد أن تحقق سماتها العاطفية بالزواج منه ،مع قبول مبادئه وأفكاره الثورية والحضارية ،ولكنها بعد أن تزوجته لم يعد يهمها الحب والزواج الا بارتباطهما بنمط حياة برجوازية غربية .

وهذه الصورة النفسية ،بالاضافة الى ما تعكسه من تردد ناجية بين القوّة والضعف ،كانسان ،فهي في الحقيقة تعكس أيضا مدى استلاب ناجية ، والمرأة التونسية عامة ،وتونس .

---

1 - الرواية . ص : 268 .

صـورة المـرأة موقفـا ونموذجـا .

أ) صـورة المـرأة موقفـا :

موقـف رقيـة مـن الماضي .

هو الموقـف الأساسي للرواية برمتهـا ، فرقيـة هي رمز الجزائـر ، وابن هـدوقـة يهتم اهتمامـا بالغـا بالموقـف من الماضي ، بربطه بالحاضر والمستقبـل ، فصل ذلك في " ريح الجنوب " ، وها هو يفيض فيـه في هـذه الروايـة أيضا .

ولرقيـة ماض مشـرف مرتبـط بالزواج من المجاهد البشير وانجاب الطفلـة فريـدة منه ، وجانب مظلـم مرتبـط بالزواج من الحركي .

أما الجانب الأول فتجهلـه القريـة التي تعيش فيها ، خافت أن تظهـره فيتعرف اليها أحـد من أهلها أو أهل البشير أو أهل قريتهمـا ممن يكونوا قد بقـوا على قيـد الحياة ، عن طريـق ذلك ، أو يظهر البشير نفسـه فيحاسبهـا ويتهمهـا بالخيانـة .

أما الجانب الثاني فقـد كانت تعامل من خلاله معاملـة باغيـة .

والبشير في الروايـة هو رمز للتيار الذي كان يربط الثورة الوطنية بالثـورة الاجتماعيـة ، ولكن طبيعـة الصراع ، جعلتـه يغلب الثـورة الوطنيـة على الاجتماعيـة ولذلك وجـدت الجزائر نفسهـا بعـد الاستقـلال مدمـرة متخلفـة ، وتابعـة من خـلال اتفاقيـات ايفيـان المجحفـة .

ولكن هـذا التيار عاد من خلا ل انتفاضـة 19 جـوان 1965 متجاوزا تلـك الاتفاقيـات بعـد سنـوات من الحكـم .

وقد جعل الكاتب رقية والبشير ،يرتبطان بحب لم يخب رغم تكـــرار الزواج بالنسبة لكليهما . تزوجت رقية من رابح ابن الرملي ،الذي خـــان بعد أن صدم بقتل أبيه تعسفا على يد بعض الافراد المسؤولين في جهـــاز الثورة ،ومع خيانته كان يقدم خدمات تحمي عددا من أهل عرشه ،وهو بهـذا يمثل فئة معقدة من المجتمع الجزائري في فترة الثورة المسلحة ،وان كان قد نال جزاءه وقتل فان عائلته ،وعائلات أمثاله ظلت ملطخة بالعار ومحتقرة .

وتزوج البشير زواجا حديثا عن حب شان بعد الاستقلال ،من برجوازية صغيرة تونسية ذات طموح الى فوق والى حياة على النمط الغربي وبهـــذا يمثل صراع ما بعد الاستقلال الذي كادت تجنح فيه الجزائر الى نظـــام تبعي .

وكلا الزواجين تحطما ،والتقى البشير برقية ثانية وقد اضطربت حين تعرفت عليه " بالفرحة رؤياه ،وبالهول الارشة "(1) .

" انها لا تستطيع أن تربه نفســـها وقد فقدت فريدة الجزء المشـــرق من حياتها "(2)

والطفلة المريضة ترمز لضعف الحركة الثورية الاجتماعية التي أفرزتهـــا الثورة الوطنية ،وبالتالي موتها وانتهائها .

وبقيت رقية ،جزائر الثورة الوطنية متخلفة مهددة بالاقطاع ومحاصرة الا من بوغـــرارة المجاهد الجريء المنيف الطيب العفوي ،ويرى الكاتب أن" تلك "كانت جريمة شنعاء حقا ولكن بدون مسؤول . فكان الجميع مسؤولين واذ ن فلا مسؤول معين . وانما هي عواقب حتمية لرواسب متعددة ،منها القديم السحيق

---

1 - الرواية . ص : 182 .
2 - الرواية . ص : 232 .

في القدم ومنها الحديث "(1).

وقد احتاطت رقية حتى لا يراها البشير يوم تشييع الجنازة ،ولكنها بعد ذلك قابلته بيأس كبير ،فهي لا ترى نفسها مسؤولة عن مصيرها .

"أبيت فتاة فأصبح زوجة لرجل أحبه والدي ، زوجة ،فاذا المتعة العابرة للزوج تصبح ولدا في أحشائي وأصبح أما ،هل فكرت في الزواج ،هل فكرت في البنوة ؟ هل فكرت فيما يليق ولا يليق ؟ هل كان لي حق في التفكير ، وفي الاختيار "(2).

وهذا الحق الضائع ،ليس هو الحق الشخصي فقط بل هو الحق العام، في الاختيار بمعناه الواسع .

ويقول الكاتب "ورقية في حالتها تلك ،ما يمنعها من لقاء هذا الزوج الأجنبي ؟ ان أراد الامضاء على ورقة أمضتها . وان أراد التعرف على وجهها كشفته ،هو وجه لا ينتمي الآن الى زمن ،بهذا التفكير والعزم ذهبت الى لقاء الماضي "(3).

وقد كانت المرأة فعلا ،والجماهير البسيطة ليس أمامهما الا الاستسلام والمعاناة ،أو الالتحاق بصفوف الثورة المسلحة ،بينما استبعد الاختيار الاجتماعي الذي لم يكن غريبا عن أحلامهما .

وللمرة الثانية نجد الموقف العام ،والمصير ، عند الكاتب يجمعان بين الازدواج والتعليق ، فلا شيء نهائي كما يبدو ،وكل شيء قابل للاهتزاز والانقلاب كما كان ذلك في " ريح الجنوب " .

---

1 - الروايــــة . ص : 40 .
2 - الروايــــة . ص : 272 .
3 - الروايــــة . ص: 253 - 254 .

وجماهير 1967 ،قد كانت متعاطفة مع الاصلاح الممهد للثورة الاجتماعية ولكنها لم تكن واثقة كل الثقة من حقيقة التيار ،لأنّ الاستقلال الذي علقت عليه آمالا كبرى كان قد خيبها في تحقيق العدالة الاجتماعية .

لأنّ هناك عناصر غريبة عن طموحات الجماهير تسلقت السلطة ، ولم تسمح ظروف الأزمة بالتمايز الواضح بين القوى الثورية وقوى "الظلام ". (1)

موقف ناجية من الزواج :

تؤمن ناجية بحق المرأة في اختيار الزوج ، ويتبع ذلك حق فسخ الخطوبة ،وهذا ما سمحت به لنفسها ،فقد فسخت خطوبتها الأولى لترتبط بالرجل الذي تحب ،والذي لم يظهر الا بعد تلك الخطوبة .

وأعتقد أنها في ذلك لم تعدو حقا من حقوقها الشخصية المشروعة ،مثلها مثل الرجل حين يرغب في ذلك، ،لأنّ فترة الخطوبة ما هي الا فترة اختيار ،ان كان الطرفان يصلحان لبعضهما ،أكملا الزواج ،وان ظهر العكس لأحدهما كان له الحرية في التراجع عن اتمام الزواج وبالتالي فسخ الخطوبة .

وهي حريصة على موافقة ولي أمرها ،على زواجها ، كما هو الحال في المجتمعات الاسلامية والعربية في الغالب ،ولذا فقد ألحت على البشير أن يخطبها رغم الرفض المسبق للعائلة وعلى رأسها الوالد .

وقد تسبب رفض العائلة لزواجها من البشير ، تسبب لها في صراع نفسي عنيف ،فقد تمزقت بين رغبة الأهل ورغبة القلب ،وبعد سبع سنين من العذاب

---

1 - ميثاق الجزائر . ص : 29 .

انحازت الى نداء القلب وتصرفت وفق ذلك .

وهذا ما يتكرر حدوثه في حالات كثيرة ،في تونس وفي غير تونس ،حسين تستبد العائلة ،أو وليها بالدرجة الأولى ،وتمنع ما أحله الله ورسوله ، دون أسباب منطقية قوية تجعل الزواج ضارا للفتاة .

ولكن سعادة الحب والزواج ،لم تشبع طموح ناجية ،ولم تصمد ، وهي تجعل دوام هذه السعادة مشروطا بنمط محدد من الحياة لا تحيد عنه مهما كان الحال .

وقد لا يستغرب من امرأة من أصل اقطاعي مثل هذا الموقف ، الذي غذته ثقافتها المستغربة أيضا ، ولكن تضحياتها من أجل هذا الحب والزواج لم تكن تضحيات صغيرة بل العكس من ذلك ،فكيف بعد تلك التضحيات ،أن تدمر كل شيء .

ان ما سهل عليها ذلك هو الوسط البرجوازي المتعفن الذي نجحت في جر البشير اليه مؤقتا .

"كانت في أعماقها تتطلع من وراء هذا الزواج الى حياة أنعم وأرفع . فقد كانت تأمل أن يصبح زوجها ذات يوم وزيرا أو في درجة تقارب ذلك . وهذا الطموح الجامح أشقاها وأشقاه . لم يجد طريقا لاقناعها بأن الحياة الحقة لكل زوجين هي فيما يكون بينهما من ود وتفاهم .

قالت له ذات يوم :" انك رجل يخجله ظله . دعني أنا أفتح بين يديك المجال لاعلى المناصب ."

وكان فتح المجال لديها يتمثل في اقامة الحفلات الخمرية الساهرة في بيتها ا لم تمض أيام كثيرة حتى كثر أصدقاء الزوجين الحبيبين وصار

بيتهما ملتقى لكل البرجوازية الادارية في الجزائر ،ولكثرة من المتعاونين ... ورغم تفتح البشير كان يجد أحيانا كثيرا من الضيق لهذه الفرنسية التي لا تنقطع ،بينما زوجته ،على العكس كانت مغتبطة كل الاغتباط بذلك وأوعمها ما كان يقال لها من طرف المتعاونين الفرنسيين الندامى : تونس بلد غربي الحضارة والتوق لا يشعر الفرنسي فيه باغتراب . بيد أن الجزائر رغم شمول الفرنسية فيها فهي منغلقة على نفسها .

وكان يسرها كثيرا أن تسمع ذلك . وكان يحزنه كثيرا أن تصدق زوجته بذلك ويحزنه أكثر أن تسر بذلك . هو ليس عدو الأي حضارة لكن لا يتوق أبدا أن يرى الجزائر في يوم من الأيام كهذه المجتمعات الغربية : تحيا لتستهلك..

وأخذت أسباب التفاهم بين الزوجين تنمحي وتحل محلها دواعي التنافر والتنابز ،وأنتهت حياتهما الى ما يجب أن تنتهي اليه في مثل تلك الحال : الطلاق . وقبل أن يصل هذا اليوم ذاق علقم الغيرة ، ثم مرارة الاغتراب في في بيته . الزوجة ساهدة في لهوها ،تريد أن تحيا في شهور ما لم تعرفه في كل حياتها السابقة . الأصدقاء يترددون على بيته لمراودة الزوجة عن نفسها أو للسكر . وأصبح في دوامة لا قرار لها من اليأس . انتهت به الى البليدة : الى مستشفى المجانين "(1).

---

1 - الرواية . ص : 142 - 143 .

ب) صـــورة المرأة نموذجـــا .

صورة رقية ،نموذج للضحيــة ،في فترة الحرب ،وكذا الاستقلال ، على المستويين ،الخاص والعام .

فقد سحقت الحرب أبسط حاجات المرأة الشابة وتطلعاتها ،وكـــذا بالنسبة لاغلب الجزائريين .

وعاشت رقية سلسلة من النكبات ،فبعد زواج شهر واحد ،كلل بحب كبير ،التحق البشير بالجبل وصارت حياتها العاطفية حطاما وبلاء ،تلتهـا حادثة اغتصابها ،واستشهاد حموها الشيخ حمودة ،الذي انتقم لها اثر ذلك ولحقته حماتها العجوز سعدية التي تحدت السلطة العسكرية ،وبقيت رقية وحيدة ،وابنتها ، وبعد غارة جوية على القرية ،قتل فيها وفقد كل الأمـــل ، أنقذها رجل تزوجها ،وجاء الاستقلال فظهرت خيانته ورجم بالحجارة ،تاركا لها العار .

والمعاناة قد كانت معاناة عامة ،فلم يتعذب أو يستشهد المسلحون فقط وها هو الشيخ حمودة يحكي للعجوز سعدية فيقول " تعرضنا لكل أنواع الاهانات. شتمنا ،جردنا من ثيابنا ،وأمرنا بالوقوف الى الحائط وأذرعنا مرفوعة للسمـــاء ، لسعات البرد تنهش أجسامنا ،أشد الناس فينا صبرا لم يستطع ابقاء ذراعيه الى السماء أكثر من نصف ساعة ،الامر الذي انجر لنا عنه بلاء عظيم . لقد كانـت أعقاب البنادق تنهـــال على أجسامنا في كل لحظة بقساوة ووحشية لا توصـــف ، وليتهم اكتفوا بذلك .

لقد كان بين فترة وأخرى يمر أمامنا عسكري من العساكر فيبول علينا . . . نعم يبول على أجسامنا ونحـن لا نتحرك كالاموات . ومن تحرك منا نال من الضرب

مالا يطاق ! نعم يا ابنة الناس انهم ليسوا بشرا الا في الشكل . . . أرادوا منا أن نعترف بقتل لم نعلم عنه شيئا . ليس هذا فحسب اننا منذ اليوم نتوجه كل صباح الى المركز للامضاء ومبايعة العلم ،ومن تخلف عد خارجا عن القانون ومنذ اليوم كل السكان مسؤولون عما يقع في هذه الناحية من حوادث"(1).

والكاتب يقول "في نهاية الأمس أردت أن أقدم الملاقة مع الماضي ، ورقية هي بالتحديد جزائر الثورة الوطنية 1954 ،وقد خرجت من الحرب متخلفة أشد التخلف ،انني معني بتقديم الملاقة بها ،ان رفضها رفض الماضي ، رفض الواقع المتخلف ليس حلا ثوريا ،انه الهروب بعينه ،أما الحل فهو توجيهها ،توجيه هذا الماضي ،توجيه هذا الواقع المتخلف الى التقدم والتغيير" (2) .

والكاتب يقدم صورة رقية ،من خلال تقديمه لصور ثلاث عائلات ،عائلة البشير ،عائلة رابح ، عائلة ابن الصخري ،عدا شخوص أخرى وكلها ترصد انعكاسات الحرب في أوانها ،وبعد انقضائها .

فلقد وجد البشير نفسه غريبا في مدينة الجزائر ، عبر جهاز اداري موروث عن الاستعمار الفرنسي يفرز برجوازية ادارية ،ومتعاونين ،لا يمتون بصلة لمبادئه ،وهو مجاهد ،ومثقف تقدمي ينتمي لحضارة يعتز بها ،فطلق الزوج التي تستمرئ الجو ،ليعود الى ريفه الحبيب باحثا عن أصالته ليواجه وضعا بائسا موروثا آخر ،تكرس فيه الاستغلال ،والتخلف .

وقد التقت عائلة المجاهد بعائلة الحركي ،في شخص رقية ،بعائلة

---

1 - الروايـــــة . ص : 100 .
2 - من مقابلتي الأولى للكاتب

ابن الصخري ،في العلاقة الاستغلالية لابنها السعيد الطفل .

ومن ينظر الى صورة رقية كصورة واقعية للمرأة فقط ، قد لا ترضيه هذه الصورة فالكاتب من خلالها " لا يصور حقيقة نضالات المرأة التي ضحت بالنفس والزوج والأطفال ، وعملت الى جانب فئات المجتمع الأخرى من أجل تغيير الواقع . . . يحاصر الكاتب المرأة ويضيق عليها الخناق عندما يحصر اهتماماتها في تربية الأطفال ،. . . ويجعل الثورة . . . عالما لم تعرفه "(1).

ولكنه في الحقيقة كان معنيا بهذه الصورة كرمز أكثر مما كان معنيا بها كصورة واقعية ،زد على هذا أنه "لم يخصص عملا روائيا كاملا للحديث عن الثورة الوطنية ،ولم يتحدث عن الثورة باعتبارها موضوعا ثوريا معينا . . .اذ الثورة الوطنية تفلت من قبضة الماضي أحيانا لتندمج في الحاضر ،بحيث تعيش على ذاكرة كثير من شخصياته الروائية"(2).

انه يصور مواقف متعددة تتوازى وتتقابل ليرفدها موقف عام ،فمعاناة رقية اثناء الحرب صورت الى جانب ثورة "البشير في الجبل ورفاقه ، أدركوا منذ الوهلة الأولى أن أعراضهم في زوجاتهم ستداس لامحالة ، ولكن الدفاع عنها لا يجدي اذا اتخذ معنى الانتقام الفردي "(3) ،كما صور الى جانب ذلك تمرد الشيخ حمودة ثم زوجه .

والثورة الوطنية عند الكاتب تأتي في الغالب لتفسير تناقضات الفترة والفترة التالية ،انها خلفية ضرورية لفهم تناقضات الواقع .

---

1 - سعيدة حوارة . الواقعية في روايات عبد الحميد بن هدوقة والطاهر وطار. ص : 30 .

2 - المرجع السابق . ص : 31 .

3 - الرواية . ص : 107 .

وتناول عذابات الشخصيات المدنية ،الى جانب التي حملت السلاح ليس تحجيما للثورة فالثورة تكون حسب الاستطاعة باليد وباللسان وبالقلب وما كان لجيش التحرير الوطني أن ينتصر لولا الأرضية الصلبة التي يقف عليها ، ويستمد العون منها ،ألا وهي الشعب .

والكاتب اذ يبرز بؤس رقية ،في الماضي والحاضر ،يشير الى هذه الفئة التي تضررت من الحرب وان لم تحمل السلاح ،وينبه الى ضرورة انصافها ، وألا يقتصر التكافل على فئة محدودة دون فئات أخرى .

فعبد الحميد بن هدوقة يقول أن عذاباتها وأمثالها ليست أخف من عذابات البشير وأمثاله ولذا فهي جديرة بمخرج كريم ،وان كان حظ المجاهد يفوق درجة حظوظ من سواه تقديرا ،فان تلك الحظوظ يجب ان تكون مكفولة وكافية .

صورة فريدة ،صورة ثانوية ،مكملة لصورة رقية أمها ،فهي نموذج آخر للضحية مثلها تمثل ملمحا من ملامح التخلف والقهر ،اذ تموت مسلولة بلا علاج .

كما أنها ترمز الى جانب مشرق من الماضي فهي ابنة المجاهد البشير ترمز الى الثورة الاجتماعية التي كانت حلم الاغلبية الذي لم يتحقق بعد الاستقلال مباشرة .

وقد جعلها الكاتب تشبه أمها فيزيولوجيا ،واجتماعيا وحتى نفسيا ،فصور مأساتها تصويرا صادقا ،صور فقرها ،ويتمها ،ومرضها ،وقهرها ،وعريها وجوعها ، وخوفها ، وكراهيتها للاطفال الذين ينادونها ابنة الحركي ،بل وحتى للسعيد أخيها .

وقد كانت تحلم بأبسط الحاجات الانسانية والطفولية ،كالفستان الجديد ،

والاب الحنون ،والذهاب الى المدرسة ،وما هي تحدث أمها عن ذلك قبل احتضارها :

"- أتشتري لي فستانا جديدا يا أماه ؟
- نعم يا عزيزتي ،أشتري لك كل ما تريدين .
- أحب فستانا جديدا لأذهب به الى المدرسة .
- نعم أشتري لك فستاناً جديدا من أجمل الفساتين تذهبين به الى المدرسة ،ويغار منه كل من رآه !

- ومع من أذهب الى المدرسة يا أماه ؟
- مع أخيك السعيد .
- هو لا يحبني ،أنا لا أذهب معه .
- كما تشائين يا عزيزتي . تذهبين مع جدتك ربيحة .
- لا ،أذهب معك أنت .
- نعم ،كما تريدينَ ،تذهبين معي أنا ،وسيكون لك أصدقاء وصديقات كثيرون بالمدرسة .

- أنا لا أريد ذلك . الأطفال لا يحبونني ،ينادونني "بنت الحركي ".
- يمنعهم المعلم من الشيطنة .
- ما هو الحركي يا أماه ؟
- هو الذي لا يشتري الثياب الجميلة لأولاده ولا يحسن التصرف .
- اذن الأطفال لا يكذبون ،أبي لم يشتر لي ثيابا ولا رجع الى الدار .
. . . .
- لماذا أبي وحده "حركي" وآباء الأطفال الآخرين ليسوا" (1) .

---

1 - الرواية . ص : 165 - 166 .

وقد حل الكاتب مأساة هذه الطفولة المعذبة ،في شخص السعيد فالبشير ، وبوغرارة ،والقهواجي يتعاطفون مع عائلته البائسة ومعه ،وقد تكفلوا بمواجهة ابن الصخري ان تطلب الأمر ،فتراه الرعي منذ موت فريدة ،استعدادا للدخول للمدرسة مثل غيره من الأطفال .

وامكانية زواج رقية من البشير ،تفتح أمامه ،فرصة العيش مع رجل قد يكون أشبه بالوالد .

وأما مشكلة انعدام العلاج فقد ظلت قائمة ف" في سنة 1967 ، في عصر التلاحيم ،ومازال السل يعصف بأطفالنا ،ان هذه القرية يجب أن تدمر كليا هي وعوائدها ومارسب فيها من مخلفات القرون المظلمة ،يجب أن تبنى قرى جديدة لكل الناس"(1) ،والمدرسة والمشاريع التابعة لقيامها ،لا ترضي النظرة الجذرية للبشير فهو يرى "أن المدرسة الجزائرية الحقيقية هي تلك التي ستنطلق يوم أن تبرز القرى الزراعية الى الوجود"(2) .

عاش الكاتب في تونس لاجئا ،وطالبا ،وآمن بالوحدة فلا غرابة اذن أن يلم بالواقع التونسي ،وبالمرأة التونسية .

وصورة ناجية هي امتداد لصورة الحبيبة في قصة "دمعة قديمة" وتطويرلها ،يقول الكاتب فيها "أخذت من الاسلام أصفى ما فيه ،ومن الثقافة الغربية أجمل ما فيها ، فاذا أنت مزيج من الحياء الطاهر والتحرر المستقيم"(3)

ولكن النهاية المأساوية التي تجعل الأهل يزوجونها بغير من تحب تدفعه الى تغيير عقلية ناجية من الاستسلام الى التمرد ،وتعميق جانب

1- الروايــــة . ص : 180 .
2 - الروايــــة . ص : 259 .
3 - الأشعة السبعة . ص : 95 .

الصراع الطبقي خاصة ثم النفسي .

فتأتي ناجية نموذجا للبرجوازية العربية الصغيرة المتذبذبة ، فهي تتمرد على طبقتها ، من جهة ،وتحن اليها من جهة أخرى ،ولذا لا تتورع عن الوسائل الميكافيلية ،في سبيل الصعود ثانية ،واصطدام ناجية بالبشير هو اصطدام بقسم البرجوازية الصغيرة الثورية ،والكاتب بهذا يرفض الوحدة التي تقوم على أساس برجوازي تبعي .

وان كانت أحلام مستغانمي ترى أن " عبد الحميد بن هدوقة لا يحبذ الزواج بالأجنبيات حتى ولو كن عربيات ،فان ناجية وان لم يجعل بينها وبين البشير حاجز اللغة والدين كما يفعل عادة مع الغربيات فقد جعل بينهما حاجز المبادئ(1) .

فاني أرى أن الكاتب ينظر نظرة موضوعية للزواج بالأجنبيات ،اذ لا يرى الجانب الايجابي فقط الذي يكمن في صورة ناجية من الجانب الانساني ولكنه ينظر الى الجانب السلبي أيضا الذي يكمن في النظرة للحياة عندها ،وهو جانب يتعدى شخص الزوج الى المجتمع بأكمله .

وقد سبق للكاتب أن صور اخلاص المرأة الفرنسية لزوجها التونسي أثناء معركة بنزرت في حوادث 1961 في قصة منتصف النهار(2) ، وفي قصة " أغنية قديمة "(3) . صور فشل الزواج بامرأة تبدو أجنبية ،في سلوكها ،وقد يكون متأثرا بزواجه الأول من فرنسية ،ولكنه حين تناول هذا الموضوع يبدو فنانا قديرا موضوعيا لأن المصائر مبررة تبريرا قويا .

---

1 - LA FEMME DANS LA LITTERATURE ALGERIENNE CONTEMPORAINE TOME 1 PAGE 231.

2 - مجموعة الأشعة السبعة . ص : 53 .

3 - مجموعة الكاتب. وقصص أخرى . ص : 97 .

الخصـــائص الفنيـــــة

" نهاية الأمس " كـ " ريح الجنوب " وحدتهما في التأريخ لفـــترة محددة ،حيث جعل ابن هدوقة حوادثه تجري في سنة 1967 ،أي بعد عامين من انقلاب 19 جوان ،وقد انتهى من كتابة الرواية عام 1974 م.

أرخ لهذه الفترة أيضا . من خلال الريف الذي ظل بعيدا عن كـــل تقدم ،رابطا الحاضر بالمستقبل والماضي .

وقد وظف في الرواية شخصيات نموذجية تعكس عادات وتقاليـــــد وقضايا الريف ،وتتميز بجوانبها الخاصة أيضا .

واعتمد بناء الرواية على التنويع في الأسلوب ، حيث يتهيكل من خــــلال سرد عدد من القصص التي يشدهما رباط عام يوحدهما في عقدة قصصيـــــة مركبة متكثفة ،ومن هذه القصص ،قصة رقية ،وقصة البشير ،وابن الصخـــري .. الخ ،ويقدم الكاتب سرده مختلطا بالحوار الخارجي ،والحوار الداخلي ، أو منفصلا عنهما .

* * *

و ولا أعتقد أن ابن هدوقة يحتفي في روايته بالبطولة الفردية ،فالبشـــير ليس بطلا في نظري ،لا بالمعنى الملحمي ،ولا بمعنى اهتمام المؤلف به اهتماما أساسيا ، بحيث تبدو الشخصيات الأخرى ظلاله .

ان اهتمام المؤلف موزع على كل الشخصيات توزيعا فنيا مقنعا ،بحيث تبدو كل شخصية ملحوظة فيما هي فيه .

وينطبق هذا حتى على الشخصيات البسيطة ،التي مثلت صفـــة

واحدة ،كشخصية السائق سي التركي ، في سخطها على الوضع الراهن ، وكذا شخصية المهندس ،في وقوفه موقفا علميا منحازا ،الى نقل الماء الى القرية .

وبداية الرواية ،تكشف عن استخدام البطولة الجماعية ، حيث يستعمل الكاتب الحوار الخارجي المختلط بالسرد والحوار الداخلي ،الخفيفين ، بين البشير والسائق ، وبين البشير والطفل الراعي ،وبين البشير ومستقبليه من سكان القرية ،وبين البشير ومضيفه كبير القوم المجاهد بوغرارة ،وبين البشير والامام ... الخ

فالطبيعة الاجتماعية للريف قد فرضت على البشير ربط علاقات منذ الوصول وطبيعة دوره الذي التزم به في القرية ،يحتم عليه ذلك أيضا ،فكيف يقوم بالاصلاح ويمهد للثورة اذا اعتزل الناس .

ونماذج الرواية ،نماذج صادقة ،تعكس الواقع الريفي بأمانة،وبكل ما يرزح فيه من تخلف واستغلال وما يحتمل فيه من آلام وآمال .

وقد أسبغ عليها جوانبها الخاصة ،ليجعلها حية ، لا مجرد قوالب لأفكار مجردة ،وقد تعمق خاصة في الجانب النفسي المركب لرقية ،وكذلك للبشير، كما لم يحرم الطفل والطفلة ،وبوغرارة ،والعجوز ربيعة ،والعجوز سعدية ، من التحليل النفسي كل على قدر دوره في الرواية .

ولكن الكاتب لم يمنح شخصية الاقطاعي ابن الصخري أي عمق ،ولم يفسر دوافعه ،واكتفى بنقل أفعاله الظاهرة ،وكذا فعل مع القهواجي المعتدل في موقفه ، وحتى بالنسبة للامام وغيره من أتباع ابن الصخري .

ولكن هؤلاء استخدم معهم الايحاء بالجوانب النفسية دون التصريح ، عكس ابن الصخري الذي ظل نمطا من الانماط ،لا تنبض فيه عروق انسانية

في الغالب .

ولعل ذلك يعود الى كراهية الكاتب لهذا النموذج من الشخصيات ورغبته في ابراز الآلية الاجتماعية المادية التي لا ترحم في تطور المجتمع والتي أضمرها في " ريح الجنوب " الى حد ما ،مبرزا على حسابها الجانب النفسي .

وفي الرواية شخصيات مسطحة ،لا تتغير من البداية الى النهاية ، كشخصية ابن الصخري ،وكذا البشير .

وتسطيح هاتين الشخصيتين ليس عيبا فنيا بل ميزة ،لأن هذا التسطح قد وظف للدلالة على الثبات على المذهب والصراع ،واستمرار ورسوخ تيارين متناقضين في حركة أولية ،كما تعكس ذلك الرواية .

وهناك شخصيات نامية ،كشخصية الشيخ بوفرارة ، الذي أهله حسه الانساني المتدفق ،وجهاده أثناء الثورة التحريرية ،على الاستعداد للقيام بدور ثوري اجتماعي ،كانت أميته تحول دون تأديته على الوجه المطلوب ،ولكن ظهور البشير ساعده على بلورة وعيه ،والوقوف في وجه الاقطاع .

كما نال التغيير من شخصيات أخرى، رقية ،والعجوز ربيحة ، والطفل ، والطفلة .

تغيير اجتماعي دخلت به العجوز عالم الوظيفة الحكومية المأجورة ، وعلاقات عمل انسانية ،غيرتها وغيرت عائلتها نفسيا أيضا ، فبدأوا يأملون بعد يأس ،في الطبيب ،والمدرسة ، والزواج ،والعشرة ،بعد عزلتهم منذ الاستقلال الى مجيء البشير .

وشخصية الامام قدمت هي الأخرى نامية ،فقد تحول عن دوره المنوط به ،من امامة ،وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر ،الى البغي ضد عجوز لا حول

لها ولا طول ثم الى رجم البشير ،مع سائر الراجمين له بالحجارة واتهامه في التحقيق بدون حجة تذكر ،بتفجير المسجد لكفره!؟

وفي هذه الرواية تبرز الشخصية الايجابية مصورة في شخصيات رجالية غالبا ،كابن الصخري والبشير ، وبوغرارة والقهواجي والمهندس ،ومن النساء ، العجوز سعدية .

وهناك شخصيات تجمع بين السلب والايجاب لعجزها أو لعدم وعيها ، فالشيخ حمودة مثلا أخره عن الجهاد بالنفس وعيه ،ولكنه صحا بعد ذلك أما رقية على سبيل المثال ،فقد أرغمت على تشغيل طفلها راعيا عند ابن الصخري ،لأنها لا حول ولا طول لها وأولما وجدت من يقف معها ،فعلت ما تراه ملائما وكفت الطفل عن الرعي .

فايجابية الشخصيات وحرياتها مرتبطة بدرجة الوعي ، وبالضرورات الاجتماعية معا .

*　　*　　*

استمر الكاتب في تصويره للموقف على أساس من الموضوعية المعاصرة ، بحيث يصبه في اتجاهات مختلفة . والحوار التالي يصور جدل الريفيين ،حول قضية التعليم مثلا :

"ونطق خامس فقال :

- تكلم غالطون ،انه المعلم الجديد !

- فقال الأول :

- أنت الغالط ،من يقبل المجيء الى هذه القرية النائمة ؟

وقال الثالث :

- لعلك على صواب لقد سمعت يوم الخميس (يوم السوق) ذكر تعيين معلم جديد لمدرستنا .

وضحك الرجل الثاني معرضا بالشيخ الذي يعلم الصبيان القرآن وقال في سخرية :

- اذا ضحكت المدرسة بكى الجامع !
- وتكلم الشيخ المسن من جديد فقال :
- لماذا يبكي الجامع يا ولدي ؟ للمدرسة أهلها وللجامع رجاله الله يعمر الجميع .

فأجاب الشخص الثاني الذي لم تصل به حياته بعد الى الكهولة مخاطبا الشيخ :

- يا عمي الصالح ، المدرسة كالجرار والجامع كالمحراث القديم هل رأيت المحراث يتحرك في أرض دخلها جرار ؟ فتدخل أحدهم في الحديث قائلا :

- هل كل أرض تصلح للجرار . ان مدرستنا كسيارة وضعت في ساحة من رمال "(1) .

ففي الحوار نجد مواقف مختلفة من التعليم في القرية ، هناك اليأس وهناك الأمل ، وهناك النظرة الصراعية بين المسجد والمدرسة ، والنظرة التكاملية .

ولغة المتحاورين ، لغة بسيطة ، وفصيحة ، مستمدة من البيئة الريفية في ألفاظها (الجرار والمحراث) مثلا ، ومن البيئة النفسية للريفيين ، كروح السخرية المباشرة (اذا ضحكت المدرسة بكى الجامع) .

---

1 - الروايـــة ، ص : 14 .

*　　*　　*

ويوظف الكاتب الحوار الداخلي لتصوير الصراع الداخلي للشخصيـــة" :
"وحي وأنا أبكي عليه ميتا ! تركني للضياع وأشاع في الناس أنه قتل لكي لا يعود الي ! آه يارب ! ما أقساك علي ! لكن ماذا أقول له ؟ أيصدق أنني كنـــت أحسبه ميتـا ؟ أيصدق أن الحركي لم أدر أنه حركيا ،وأنه أنقذني من المـوت المحقق أنا وابنتي بعد أن قتل الأهل والاقارب ؟ أيصدق أني ذقت كل أنواع العذاب لانقاذ ابنتي من الموت ؟ ليبقى ذكره حيا في الدنيا ؟ أيصدق أنـــني بكيته آناء الليل وأطراف النهار ؟ أيصدق أنني أحببته وحده في هذه الأرض ولم ينفق قلبي بحب سواه ؟ أيصدق أنني في شقائي وعذابي الطويلين لم أنقطع عن التفكير فيه لحظة ؟ أيصدق أنني أشرف امرأة ،وأن الخيانة الملصقـــة بي نزلت علي ظلما من السماء ؟ أيدرك أن الحياة لا ترحم ضعيفا ولا قويا ؟ أيدرك أن الحياة سخرت منه وسخرت مني وتسخر من جميع الناس ! أيدرك أنه يعزينا هنا في موت ابنته ؟ آه يا الهي ما أقساك ! أأصرخ في الملأ أن هــذا المعلم الطيب مجرم ،قتل ابنته وقتلني بغير ذنب ؟ كل الناس مجرمون ،كـل الناس خونة ،كل الناس أشقياء ،لست وحدي المجرمة . لست وحدي الخائنة لست وحدي الشقية كل مجرم ،السماء أيضا مجرمة ،لست وحدي ،لســـت وحدي . . ."(1) .

هذا الحوار الداخلي جرى في نفس رقية بعد الافاقة من الاغمــــاء ومواصلة البكاء على اثر رؤية زوجها الأول البشير المجاهد فجأة في مأتـــم ابنتهما فريـدة .

والبشير سر من أسرارها أبقته في أعماقها ،ولم تحك لأحد عنه ،وماهو

---

1 - الروايـــــة . ص: 183 .

المستتر يطفو على السطح ،لقد هالها ان تزوجت ثانية والبشير حي ،وأن كان زوجها الثاني حركيا ،وان حب البشير مازال ينبض في قلبها أبدا ولكن كيف ستواجهه ،وهي في الظاهر ملوثة ، وعنا تنفجر لتحدد الملابسات الاجتماعية والنفسية القاهرة التي قادتها الى مصيرها ،ولتشير الى المسؤولين عن ذلك . البشير ،الناس جميعا ،الله ،وترى كل الناس مجرمين لمحاكمتهم بالمنطق الذي يحاكمونها به .

وهذا الحوار حوار فني كشف عن الموقف الحائر المضطرب لرقية من البشير ، مما شلها عن أية مبادرة تجاهه ،الى أن تقدمت الأحداث وفرضت عليها مواجهته ففعلت .

والشخصية المأزومة المزدوجة مثل رقية ،في روايات ابن هدوقة تمضي كذلك وقتا ،الى أن يفرض تطور الأحداث عليها استجابة محددة ، وهذا ما يجعل ايقاع حركتها وتطويرها بطيئا الى حد ما ،وهذا البطء مستمد من طبيعة الصراع نفسه ،الصراع النفسي الخفي غير المباشر ،ولذا لا يمكن عد البطء الناتج عن ذلك عيبا فنيا ، لأن ما يلتهب في الأعماق ،مثل لغم ،محتمل الانفجار في أية لحظة يعمل على تشويق القارئ ، بالتوقع والمفاجأة .

أما من حيث اللغة الموظفة في هذا الحوار الداخلي ،فهي لغة حادة عنيفة ،تكشف عن الحقيقة المأسوية كما تعرفها رقية ،وتتلاءم مع الظرف القاسي الذي تمر به .

ومن هذا المعجم اللغوي العذاب ،الموت ،الخيانة ، القتل ،الجريمة . الخ

ومن الايقاع الصوتي المتكرر الذي يلائم التأكيد على معاني بعينها " آه يارب ما أقساك علي ! و آه يا الهي ما أقساك ! "

و " الحياة سخرت منه وسخرت مني وتسخر من جميع الناس " ، فتكرار الفصل بحروفه (السين والخاء والراء والتاء يعطي نغما محددا ، بحيث تجتمع ثلاثة حروف مهموسة وحرف مجهور هو الراء ، وكذلك . . كل الناس مجرمون كل الناس خونة ، كل الناس أشقياء تكرار كلمة الناس .

وبناء الجمل ما بين قصيرة في أغلبها وطويلة هو الآخر يعطي جرسا ملائما.

فاللغة وايقاعاتها وايحاءاتها مناسبة للانفجار الداخلي عند رقية انفجارا ليس هناك ما يشجع على اخراجه ، واعلانه على الملأ.

* * *

ويوظف الكاتب تقنية الرجوع الى الوراء (فلاش باك) بالطريقة الشائعة ، حيث يضيء ماضي الشخصيات والأحداث ، اضاءة قصيرة ، تسمح بالحركة ولا توقفها ، ولكن هذا التوظيف قليل ، لأن الكاتب يبدع طريقة أخرى لهذه التقنية ، بحيث يكون الرجوع الى الوراء طولا ، يتلاءم مع تصوير وحدة الانسان ليلا .

وفي اعتقاده أن الماضي ليل قلما ينجو منه المرء(1). ومن هنا اهتمامه بالذكريات .

والذكريات في نهاية الأمس ، لها أهميتها من حيث التبرير والاقناع وخاصة بالنسبة لشخصية البشير ، ومن ثمة لموضوع الاصلاح عامة .

وبهذه الطريقة يقص علينا الكاتب كيف ودع زوجه رقية وعي في المخاض وكيف جرح في المعركة ، وكيف عولج في الجبل ، ثم في تونس ، ثم في ألمانية

1 - من مقابلتي الثانية للكاتب .

الشرقية وكيف عاد الى تونس ، ودرس بجامعتها ووقف على الحياد من الصراع السياسي ،وكيف أحب طالبة تونسية برجوازية، ورفض طلبه لها ،وكيف تمردت وتزوجته في الجزائر ، وكيف اختلط بالبرجوازية الكومبرادورية ،وكيف اختلف مع زوجه في القيم ،وكيف انفصلا ،وكيف دخل مستشفى الأمراض العقلية ،وكيف خرج منه وهجر المدينة المتعفنة ونذر نفسه للاصلاح والريف .

وابن هدوقة لا يخترق العرض الزمني بطريقته الخاصة في توظيف (الفلاش باك) مطولا فقط ،بل يخصص فصلا كاملا يجري أحداثه في الماضي ،ألا وهو الفصل الثالث (1) . ومع ذلك لا يبدو هذا الفصل منفصلا ،فقد صور معاناة الشعب الجزائري أثناء حرب التحرير ،تصويرا يوحي بضرورة خروج هذا الشعب من تلك المعاناة الى مستقبل أفضل ،وبربط ذلك بواقع القرية ،يبدو ذلك غير متحقق ،وهذه هي المفارقة التي تفجر الصراع .

والفصل يعرض خاصة ماضي رقية ،ويثير التعاطف معها ،من جراء المحن المتتالية التي عاشتها .

واذا كان الكاتب قد خرج على القواعد الأرسطية في " ريح الجنوب " فهو يفعل ذلك أيضا في " نهاية الامس" ،من حيث النهاية ،اذ اختار نهاية مزدوجة يقول عنها أنها " متكاملة "(2) ،ولولا هذا التكامل لما كانت هناك ضرورة للازدواج أصلا ، وهذا التكامل يتصل بنظرة الكاتب للواقع الجزائري ، الذي يراه مرتبطا بالماضي ،والتراث ،وبالعالم وانجازاته في نفس الوقت .

* * *

ويقع الكاتب أحيانا في بعض الاخطاء حيث يقدم أفكاره بصورة مباشرة ،

---

1 - الرواية من ص 83 - 114 .

2 - من مقابلتي الثانية للكاتب .

تخاطب القارئ وكأنه بصدد تحرير مقالة يقول " الشرف بالمعنى القروي هو الذي رفع الغشاء عن بصر الشيخ حمودة وبصيرته ،لولم تعتد عساكر الاحتلال على زوجة ابنه وتفعل فيها الأفاعيل لربما تحمل أنواع الاهانات الأخرى وأصناف الذل الكثيرة التي يتعرض اليها كل من احتل وطنه :

تفكير الشيخ حمودة اذن كتفكير جيله تآكل من جراء سني الانحطاط الطويلة حتى أصبح لا يهتم الا ببعض القشور الواهية والمسائل العامة المتصلة بالحياة اليومية البدوية اتصالا وثيقا كالمرأة والأرض والمال والدين "(1).

" ولسنا ندري كيف أجاز الأديب ابن هدوقة لنفسه أن يسمي قضايا مثل المرأة والأرض والمال والدين قشورا ؟ غير أن الذي يهمنا هو هذا الاستطراد الذي وقع فيه المؤلف ،وتدل عليه بصفة خاصة كلمة " اذن " التي تدل على أن المؤلف عالج قضية الشرف طويلا ،ويريد بهذه العبارة أن يعطي رأيه فيها "(2).

ونحن نوافق ما ذهب اليه الدكتور مصايف ، في كون الكاتب بمبالغاته قد جانب الواقع الفني ، مضمونا وشكلا في هذا النص .

ويوظف الكاتب الدراما في فترتي الثورة المسلحة ، وما بعد الاستقلال ،كوداع البشير لرقية وهي في المخاض ،وكعملية الولادة ،والاغتصاب ، والمعركة ، والغارة ،والتحام الشيخ حمودة بفرقة من الجيش الاستعماري ،واستشهاده ، واستشهاد زوجة العجوز سعدية ،وفي الفترة الثانية ،نبذ عائلة رابح الحركي وموت فريدة ،وانفجار المسجد ،ورجم البشير .

---

1 - الرواية : ص : 106 :

2 - د . محمد مصايف الرواية العربية الجزائرية الحديثة : ص : 121 .

وقد نجح هذا التوظيف حينا ،وفشل حينا آخر ،حين ابتعد عن الواقع فجعل الشخصية ،غير مقنعة ،والأحداث مفتعلة .

وذلك في حكاية زواج رقية الثاني ،من رابح الحركي ،حيث جعل الكاتب رقية لا تعرف بنفسها ،وبابنتها ،لا ناس القرية فقط ،بل وحماتها أيضا حيث تجهل أن والد فريدة مجاهد ،بينما قال الناس أنها ابنة رابح .

والكاتب يعلم أن الأرياف لا تخفى فيها خافية وهو يقول على لسان بوغرارة : " ان الناس هنا لا شغل لهم الا نقل الأحاديث . لا سر في القرية" (1) .

ولعل الجري وراء التعبير بالرمز عن الأفكار المجردة هو ما أوقع الكاتب في هذا الخلل الفني ،علاوة على خلق جو درامي ،حيث يحضر البشير مأتم فريدة وهو لا يعلم أنها ابنته .

* * *

وأسلوب ابن هدوقة يقوم في رواية " نهاية الأمس " على الرمز (2) ،فرقية هي جزائر 1954 ،أي جزائر الثورة التحريرية ،وارتباطها بالبشير هو ارتباط الوطن بالتطلعات الثورية الاجتماعية ،وحياده في سنوات الأزمة ، هو تمييع لهذا الجانب الذي مثله ،وارتباط الجزائر برابح هو ارتباط بسلطة ما بعد الاستقلال ،وخاصة بمن أتموا اتفاقيات ايفيان المجحفة بحق الجزائر،وعودة البشير في 1967 ،هي التصحيح الثوري ،الذي صفى الوجود العسكري الاستعماري ، وتجاوز الفخ التبعي للاتفاقيات المذكورة ،وقام باصلاحات هامة فيما بعد .

والرمز عند ابن هدوقة رمزي بحيث اذ تعارض مع الواقع ،سار مع فكرته المجردة ضد الواقع ،وذلك ظاهر في شخصية رقية كما سبق ان علقنا عليها ، وفي النهاية أيضا .

---

1 - الرواية . ص : 198 .

2 - وقد أقمت دراستي لهذه الرواية وأخواتها ،على أساس المزاوجة بين الأحداث الظاهرة والخفية ،أي بين الواقع والرمز .

وهو يعبر بالصورة عن مشاعر شخصياته يقول : "كانت تتصور وكأنها على شفا واد غزير هائج أسود اللون ،يجرف أمامه كل شيء" (1) ،ويقول "ود" في تلك اللحظات أن يجد نفسه في عربة قطار قرب النافذة والقطار يسير بسرعة مائتي كلم في الساعة لا يتوقف في أي محطة ، بل يشق طريقة أبدا الى الامام" (2).

وهي مشاعر رقية والبشير بعد موت فريدة ،وفي اعتقادي أنها تعبر عن فكرة الموت كما يشعران بها ،رقية تراها رهيبة وحتمية ،والبشير يخافها ويود لو هرب منها .

* * *

ويعمل الكاتب على متابعة أسلوبه المتصل بالتراث ،فيوظف القرآن الكريم، والمثل والشعر الشعبيين ،وصناعة الفخار والحياكة ،وعادات الضيافة ،والكرم والوزيعة ، وليلة القدر ،وحفل الختان ،والمأتم ،ومنصب كبير القوم .

وهو أسلوب يقوي صدق الكاتب الفني ،ويتصل بهدفه الأدبي ،وفي الجزائر حيث يلعب الدين دورا هاما ،حاول الرجعيون استعماله ،مستغلين أمية وجهل الناس ،ولكنهم وجدوا معارضة قوية من المثقفين خاصة ،الذين قاموا بكشف أساليبهم الملتوية .

وفي الرواية يصور ابن هدوقة هذا الجانب ،عن طريق شخصيتي الاقطاعي ابن الصخري ،والمعلم البشير :

" أتدري أن الحكومة بصدد اعداد ميثاق الاصلاح الزراعي ؟

- وماذا يهمني في ذلك ؟

---

1 - الروايــة . ص : 174 .
2 - الروايــة . ص : 187 .

- ومن يهم اذن ؟

- ان هذه القرية أرضها لا تسمن ولا تغني من جوع .

- كل القرى الجزائرية التلية كذلك ،ولذلك لابد من الاصلاح الزراعـي .

- وماذا فعل التسيير الذاتي بالأراضي الخصبة ؟ ألم يصيرها قاعـا صفصفـا ؟

- التسيير الذاتي نجح . واذا كان هناك فشل فلن يعود الى العمال .

- لمن يعود اذن ؟

- للمتآمرين على فشله ،الذين يخشون الاصلاح الزراعي بعده ألا تخاف الاصلاح الزراعي ؟

- ولماذا أخافه مادمت متحققا أنه لن ينجح .

- واذا نجح ؟

- لا يمكن .

- لماذا لا يمكن ؟

- لأنه يخالف طبائع الاشياء .

- فهل من طبائع الاشياء أن يملك شخص أكثر مما تملكه قرية مجتمعة؟

- أصابع اليد الواحدة ليست متساوية . والله خلق الغني وخلق الفقير قال تعالى : " والله فضل بعضكم على بعض في الرزق(1)" لم أقل هذا أنا .

- أكمل الاية ...

- هذه هي الاية . ! انها كاملة .

- لا . الله يقول بعدها : " فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء " أفهمت ؟ سواء "(2).

* * *

---

1 - الاية 71 ،سورة النحل .

2 - الرواية ، ص : 190 .

ولا يتخلى المؤلف عن أسلوب الوصف الظاهري ،وهو وصف دقيق ، يحاول الالمام بأجزاء الصورة كلها ،وله وقع في نفس القارئ ،علاوة على الحركة المتعاقبة في الزمن ،التي تجعلنا نحس كأننا في دور خياله ،بحيث تمسح الكاميرا الصورة جزء وراء جزء ،كما أن هناك ايقاعا صوتيا ،من ناحية الألفاظ الموضوعية الهادئة ،وقصر الجمل وطولها ،وتعاقبها .

يقول الكاتب في وصف بيت الاقطاعي ابن الصخري "بناية ضخمة ناصعة البياض بترميد أحمر قان بستان واسع يمتد أمامها على بضعة مكتارات.أشجار كثيفة متراصة تحف بالطريق المؤدي اليها . أبقار عديدة من النوع الحلوب في مرج بالبستان الشاسع "(1) .

ويقول في وصف بيت الفلاح الصغير الشيخ بورغرارة :"كان الفراش حصيرا من حلفاء وحنبلا قديما من صوف ،ومسندا ،في زاوية البيت بردعة بغل ومحراث عتيق من خشب ،في الحائط الايسر وتد معلقة به سكة حراثة . في الحائط الايمن ضربت لوحة صغيرة فوقها مشكاة غاز زجاجته اسودت قصبتها فكان نورها خافتا باهتا . ليس هناك ما يعكس ذلك الضوء القليل ،حتى الحيطان شهباء مرشوشة بجبس محلي . أما السقف فهو عيدان بنية من شجر العرعر، تلحفت بشوب كثيف من الأدخنة المتصاعدة اليها ،عندما توقد النار أيام القر"(2)، وهذا الوصف رغم حياده الظاهر يوحي بالتفاوت الطبقي بين الرجلين .

* * *

ويوظف ابن حدوقة الشعر ،أبياتا ،وقصائد قصيرة ،أبياتا تأتي كجزء من مونولوج الشخصية ،وتنسجم مع مستواها الثقافي ،وقد خص شخصية البشير المثقف بذلك دون غيره :"سكت البشير ،وقد أثار في نفسه حال هذه المائلة شعور بالحزن واليأس معا . وتذكر ذلك الطفل الراعي الذي رمى في

---

1 - الروايـــــة . ص : 147 .

2 - الروايـــــة . ص : 25 .

وجهه حبات الحلوى التي أعطاها اياه بالأمس عندما سأله عن أبيه : "هل هو ابن الحركي . . . ؟ ان كان فمسكين ! لقد فتح عينيه على حياة تجرمه بذنب لم يقترفه ،وخطر بباله بيت المعري المشهور :

"هذا جناه ابي علـيّ * وما جنيت على أحد "(1)

وابن هدوقة يستخدم الشعر " لتصوير الانفعالات النفسية التي قد يعجز النثر على اسعاف الشخصية بمكنون حقيقتها النفسية فاستعانة القاص بالشعر هنا ليس فضولا ولا حلية ،وانما هو لجوء الى أقرب الأدوات الى التعبير عما في داخل النفوس"(2) .

يقول عند استعداد رقية للقاء البشير :

"عندما تنشف العيون من الأحلام والدموع ،ويصير القلب مضخة للدم. . .
عند ما يصبح الايمان يأسا ،والحياة خطيئة.
عندما الشوك يخلف الثمر
عندما الجروح لا تندمل ولا تسيل .
عندما . . .
يفقد الألم معناه ،
يفقد الشوف معناه .
ورقية . . . في حالتها تلك ،ما يمنعها من لقاء هذا الزوج الأجنبي ان أراد الامضاء على ورقة أمتتها ،وان أراد التعرف على وجهها كشفته هو وجه لا ينتمي الآن الى زمن "(3) .

---

1 - الروايـة . ص : 62 .
2 - الدكتور أحمد ابراهيم الهواري نقد الرواية في الأدب العربي الحديث في مصر. ط/1 1978 دار المعارف .ج.م.ع . ص : 102 .
3 - الروايـة . ص : 253 .

وقد استعمل الكاتب الشعر المنثور ،الذي يساعد على تصوير حركات النفس في تموجات متنوعة مدا وجزرا .

ولا ننسى أن الكاتب شاعر ،ولعله يهدف الى المزاوجة بين الوظيفة الشعرية والنثرية في الرواية ، يزاوج بين المنطق والشعور ،حتى يمحو الحدود الفاصلة بين النوعين كما يحدث في هذا العصر (1) على أيدي بعض النقاد والمبدعين .

وله في هذه الرواية مقطوعتان سرديتان على لسانه (2) ، تصوران مشاعره ونظرته ،ولعله يعيد الى الرواية التقليد التراثي للراوي ،الذي يتدخل بتعليقاته نثرا وشعرا ،ملونا اياها بمقاطع غنائية .

* * *

ولا يتردد المؤلف عن تنويع الأسلوب بشيء من السخرية ،ومن مثل ذلك حكاية "بني وي وي "(3) ، التي سيقت بواسطة التداعي في نفس البشير ،وهي جزء ينسجم مع الكل في الرواية ،فالمصير المأساوي لمنصور بانقياده الأعمى ، هو رمز لمصير كل من ينقاد مثله ،للسلطة الغاشمة .

ويبدو البشير بهذه الحكاية وغيرها مطلعا كل الاطلاع على كل ما جرى ،ويجري في الواقع ،اذ أن هذه الحكاية ،ترددت في الحرب العالمية الثانية .

وفي حوار داخلي يشبه مسيرة الجزائر "كمثل ذلك الرجل الأبله الذي تحكي عنه الأسطورة الشعبية أنه اعتزم السفر ليلا فقام ليسرج الحصان فوضع السرج

1- د . عبد المالك مرتاض ،النص الأدبي من أين ،والى أين .
ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1983 . ص : 33، 34 .
2 - الرواية . ص : 183 ، 184 ،الرواية . ص : 114 .
3 - الرواية . ص : 18 ، 19 .

على حائط كان أمام مربط الحصان وركب وراح يحرك رجليه ،حاثا " حصانــه" على السير في ذلك الظلام الدامس ولما أسفر الصبح وانجلى الظلام انتبه الى أنه لم يسر خطوة في ليله ذاك الطويل وأنه لم يبرح الاسطبل فقــد قضى ليله راكبا الحائط بدل الحصان "(1).

---

1 - الروايــة . ص : 30 .

أ- رواية " نهاية الأمس لا تختلف عن سابقتها (1) وان طرأ بعض التحوير" (2)

صور الاقطاع فيها اكثر قوة بكذلك الاتجاه المعارض.

فابن الصخري ،لا غبار على ماضيه الوطني ،شارك بالمال والبنين في الحرب التحريرية ،ولكنه بعد الاستقلال ،اقطاعي يحتوي السلطة عن طريق ابنه المجاهد قدور أمين البلدية ،وعن طريق رئيس البلدية ،وعن طريق اشتراكه في خلية الحزب ،وهو يوجه ابنته لدراسة الحقوق ،في مصالحة معها ، تجنبها التمرد ،وتهيئها لحماية أملاك الوالد بالقانون اذا تطلب الأمر ،وهو يتسلح بالقيم الأصيلة نفاقا ،لتسهل له الهيمنه على الناس، وقد أظهر الكاتب تحريفه للمعاني القرآنية ،وكشف البشير له في هذه النقطة بالذات ،وقد عمل على توجيه أهل القرية الفقراء توجيها مضادا لأحلامهم ،وموائما لمصلحته.

فدورابن الصخري في نهاية الأمس قد ازدادت خطورته ،عن خطورة ابن القاضي في ريح الجنوب بل نستطيع القول أنها واحد في فترتين ،بحيث ان الفترة التالية حققت تطورا ،فهو رجعي وأداة قمع وارهاب ،دبر انفجار الجامع لطرد المعلم ،وان كان الأول قد تسبب في تدمير قريته ،وقتل كثير من أفرادها ومن المجاهدين ، بوشايته للجيش الفرنسي في الماضي ،فان استعمال العنف لديه في الحاضر مع رابح جاء كرد فعل لمفهوم الشرف العائلي لا أكثر.

---

1 - ريح الجنوب .

2 - د . محمد مصايف الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية والالتزام . ص : 89 .

وتطورت القوة المعارضة هي الاخرى ،فالبشير ليس مجرد مصلـــح في نظري ،انه مصلح يمهد للثورة الاجتماعية .

لقد وجد أن لا سبيل الى الثورة بين يديه في الآن ،فالتجأ الــى الاصلاح مؤقتا ،وهو مباشر في أحايين غير قليلة ،في مواجهته للعـــدو الطبقي ابن الصخري ،ويكسب الى صفه منذ البداية ،كبير القرية بوغرارة المجاهد القديم الشجاع الطيب ،وكذلك القهواجي ، وللبشير معارفه في جميع الوزارات ،فهو واثق من انتصاره على الاقل في اصلاحاته ،ومن الذين كشفوا لعبة ابن الصخري التركي سائق البلدية ،والمهندس ،والضابط ، وقد رأينا لبوغرارة احتراما لدى الناس ،ورأينا شخصين مسلحين يتبعانـــه لحماية البشير ،وهو يشهر بندقيته أيضا يوم انفجار الجامع .

ب - صورة المرأة أصابها التطور أيضا ، فالبؤس الطبقي ،الذي صور عبر العجوز رحمة ، والبكماء أم رابح في ريح الجنوب ،قد أصبح بؤســا معللا ،له أسبابه المتعددة في الماضي - الثورة الوطنية - التي نجحـت في طرد الاستعمار ، ولم تمح التخلف والاستغلال ،وله أسبابه الحاضرة حيث ،كشر الاقطاع عن أنيابـه .

واذا كان الموت كمصير مجسد في الروايتين ،يموت العجوز رحمـة وموت الطفلة فريدة ،فان المصير العام أكثر اتساعا في نهاية الامس،ورابـح الذي ترك الرعي وأصبح حطابا ،يقابله السعيد الذي ترك الرعي هو الآخر والتحق بالمدرسة ، أما العجوز ربيحة التي أصبحت موظفة حكومية ،وخرجت من الحصار مدعمة ،فانه يمكنها أن تمثل الضربة الاقتصادية للاستغــلال حيث أن وجود الوظائف الحكومية يغني عن العمل عند ابن الصخـــري وأمثاله من المستغلين ،تلك الضربة الموازية للضربة بالفأس التي تلقاهـــا

ابن القاضي على يد البكماء .

أما رقية التي تمثل الماضي والوطن عامة والطبقة الفقيرة ،فقد اختار لها الكاتب موقفا مزدوجا مطلقا ،فقد يتركها البشير،وقد يتزوجها وقد يتبع الطريق الثوري المباشر فيناضل مستقلا عن السلطة ،وقد يتبع الطريق الاصلاحي مناضلا من خلال السلطة ، محاولا تثويرها ،والموقف الثاني أكثر قوة في تلك الفترة ،في الرواية ، لانه استطاع عزمها .

وصورة الفتاة البرجوازية الصغيرة أعطاها الكاتب مخرجين التمرد الاقصى ،والمصالحة ، مجسدا ذلك من خلال ناجية ،وبنت ابن الصخري ، وقد عاشت ناجية دوامة شبيهة بمحنة نفيسة الى حد ما ،ولكنها تجاوزتها كما رأينا ذلك من قبل .

- الفصـــل الثالـــث -

صـــورة المـرأة فـي " بـــان الصبــــح "

ملخص الروايـــــة :

تقوم دليلة في الصباح ،قلقة ،حائرة ،ساخرة من الجميع ومن نفسهـــا وتحدد لعشيقها في الهاتف موعدا ، وتخرج من البيت ،لتذهب الى الكلية ، لا في الحافلة ، بل مع أي سائق سيارة يرغب في ايصالها ، وقد كان السائـق الذي ركبت معه هذا الصباح يرمي من خلال حديثه الى تأثير محدد ،هو تكريس مفهوم الحرية الفردية حد الاباحة عندها .

أما والدها الشيخ علاوة فقد ذهب لحضور أحد اجتماعات الميثـاق وقد خـــرج مهزوما مبكرا ،اذ لم يجد لديه المنطق المقنع ،للدفـــاع عن المنظور الاسلامي ،فهو محدود المعرفة ،وخاصة بالجانب الاقتصـــادي منه ، وقد انتصر عليه شباب يدافعون عن الاشتراكية ، جاعلين بالاســـلام ، وفي محطة الحافلة ينشأ نقاش شبيه ،بنقاشات الميثاق ،وحين ينزل الشيـــخ من الحافلة ،فكأنه ينزل من حلم عاشه خمسا وستين سنة ، حلم بنظام عربي اسلامي معاصر غير شيوعي ،وفي البيت يفتح رسائل العائلة فتمطره كوارثا : ابنه عمر مختلس لأموال الدولة ،ومراد مازال على علاقة بفرنسيـــة ونعيمة ابنة أخيه تأتيها رسالة من مجهول مضمونها انها حامل وعليهـــا الاجهاض .

تذهب العجوز كلثوم ،وزبيدة ونعيمة الى الحمام ، حيث تشبع نعيمة فضولها ،في التعرف ،على تقاليد حمام العروس ،وما يجري في الحمام عمومـــا كما تقترب أكثر من هموم زبيدة العانس ،بينما العجوز كلثوم ،تمهد لخطبة ابنها الجراح من وهيبة بنت الثري بن عبد الجليل ،وتحصل على وعد زواج من عمة وهيبة لزبيـدة .

دليلة في شقة عزوبة كريمو ،تفاتحه في موضوع الحمل ،فيؤكد على قـــرار

الاجهاض ،وأنه بعث لها رسالة في هذا الشأن باسم نعيمة كالعادة ،تحاول اقناعه بالزواج فتفشل ،فتتركه نهائيا .

تصادف نصيرة في طريقها ،تطلب منها مماشاتها ، تكتشف أنها سكرى فتكاد تتركها لتهورها ،ثم تتحملها ، وتأخذها الى سيارتها ،وكل منهما تحكي قصتها مع كريمو ، يصادفان عمر في وضع غير لائق مع امرأة أجنبية ،تزداد دليلة سخطا لأن الأخ الأكبر منحرف عكس ما يدعيه ،حاولت نصيرة التخفيف عنها ،وانطلقت معها في مناقشات ،حول الطبقة ،والاشتراكية ... وكانت تصحح لها وتعمق بعض المفاهيم ،ثم استضافتها الى البيت ،فأخبرت عائلتها وباتت معها واستمر الحوار السياسي بينهما .

رضا ونعيمة يذهبان الى اجتماع في مدرسة الحي ،أحد أساتذة رضا في الثانوي سابقا ،يحاول رد نعيمة الى البيت حتى لا تشارك ،رضا يرفض ذلك ،يحدثها عن أن أهمية الاجتماع لديه تكمن في الدفاع عن الكادحين تأتي الطيابة التي تعرفت على نعيمة في الحمام تحييها وتخبرها أنها ستحطم البرجوازيات ،تبدأ المناقشات بباب الثورة الثقافية فصل اللغة العربية ،وكان أغلبية الحاضرين من العمال ،أحدهم يتحدث عن سوء توزيع الثورة الغذائية التي تكاد تذهب نهبا بين أصحاب المناصب ،وتجار الجملة في السوق السوداء ، منكرا أن تكون تلك هي الاشتراكية ،ورجل آخر يطرح التعريب الفوري الشامل ، وآخر يطرح مصير المفرنسين ،والمسؤول ينفي الطافرة ،وآخر يدافع عن البسطاء من المفرنسين ،وآخر يؤيد نظرة الميثاق ،والازدواج ،رضا يوافقه ،آخر يدافع عن تطبيق التعريب مثل سائر الدول العربية ،آخر يزعم شذوذ وضع الجزائر وأن الصراع رجعي تقدمي لا لغوي ،رضا يراه مزيفا للحقيقة ،وآخر يهاجم التعليم بالفرنسية ،ويحذر من ضرب اللغتين ، ويحبذ بقاء الفرنسية ،والطيابة تطالب بتأميم الحمامات ،ورجل يطلب محاسبة أثرياء الاستقلال ،ويود تسليم

قائمة بأسمائهم للحكومة أمام الشعب ... وينصرف رضا ونعيمة .

في السهرة العائلية تسأل العجوز الشيخ اذا كانت النساء مدعوات للعرس ،وتحتج على عدم اعلامهن مبكرا للاستعداد ،وتختصم العائلة حول الملابس اللائقة لذلك ،ورضا يعرض بعلاقة والده بالثري بن عبد الجليل وأنه دعاه لقراءة الفاتحة لا لصداقته ،وعمر يحاول معاكسة نعيمة عن طريق غير مباشر بالحديث عن الحمام حديثا مغرضا ، وفتى ورضا يشعران بذلك ويضايقانه ،فينفجر غاضبا ،ويرن الهاتف،البنت المتزوجة تطلب أخاها مراد للتوسط لها ،في قسم الاستعجالات ،لأن طفلها مريض جدا ،ومراد يضيق بذلك لكن الأب والأم وعمر يفرضون عليه الذهاب اليها ومساعدتها فيمتثل وترفض زبيدة النوم مع هالة ،لأن دليلة عند نصيرة وتقبل نعيمة ،فتحدثها هالة عن كره زبيدة لها ولكل الشابات لأنها عانس ،وتخبرها أنها ستتزوج مبكرا .

تستيقظ دليلة ،ثم نصيرة ويتحدثان ، عن السياسة والجنس ،ويبدو اختلاف نظرتهما ،ومع ذلك فنصيرة تستميل دليلة الى نظرتها رويدا رويدا.

كبار الأثرياء والنفوذ عند بن عبد الجليل ،يناقشون قضاياهم ويتبادلون الخدمات ،في جو يذكر بترف الأندلس ،بينما يفكر الشيخ علاوة في المحرومين ، ويهاجمهم في نفس الوقت ،ثم يدعى لقراءة خطبة الزواج ،وتعلو الزغاريد ... ويؤتى بسبعة خراف مشوية للرجال وكذا للنساء ،ويسقى الخمر سرا .

في السهرة العائلية يمدح الشيخ أسرة صديقه بن عبد الجليل ،فينصرف رضا ،ثم دليلة ونعيمة ، ويطرح زواج وهيبة من مراد ،فيقبل مراد مبدئيا بتحفظ .

تذهب العجوز وزبيدة الى العرس ،يوصلهما عمر ويعود ليفاجئ نعيمة

التي تغسل الثياب ،محتضنا اياها محاولا تقبيلها ،تظهر مني ،يلعب الدور المقلوب ،تفضحهما أمام الشيخ الذي يربط بين الحادثة والرسالة ويقرر طرد نعيمة ،دليلة ورضا يقفان الى جانبها ،لانهما يعرفان طهرها ،بينما لا تكف هي عن البكاء ،موضحة أنها بريئة .

ذهب مراد للعودة بأمه وأخته ، فذهل من الثراء الفاحش لتلك الاسرة ومدى تحرر النسوة ،وقد رقص مع وهيبة وأعجب بها ، بينما الام وجدت عريسا لزبيدة وعادت مسرورة ،لكن مني استقبلتهما بما حصل ، فتعاونت عليها العجوز وابنتها في الخصام ،ولكن الشيخ اعتذر لمني ،وأخبر زوجه بأمر الرسائل وأكد لها أن نعيمة مذنبة ،فخرجت اليها بوحشية تسبها وتطردها ، لولا حيلولة الابناء دون ذلك ،يأتي والد نعيمة ،تذهب نعيمة اليه ، يعجز الشيخ عن مفاتحته ،ولا تتردد العجوز ، فتدافع نعيمة عن نفسها ،رضا يدخل ليؤكد براءتها ويأخذ صالح ابنته مهددا .

زبيدة تعلم دليلة أن السبب الحقيقي ،لطرد نعيمة رسالة جاءتها تنزل دليلة الى القصبة ، وتكتشف أن البيت الذي اشترته مغلق بأمر البلدية ، وانها وقعت ضحية احتيال ،تلتقي بالرجل الذي ركبت معه ،تتغدى معه ، يتحدثان عن مفاهيم تقدمية ،وتحكي له ما وقع لها بالقصبة ،فيقترح عليها حلا يكفل لها العمل والسكن .

أما صالح فقد عزل نعيمة في حجرة ،وحفر لها قبرا وأخذها في الصباح الى مدينة تيزي وزو ،فتأكد من براءتها من الحمل المزعوم ، تغير تجاهها من أب ريفي تقليدي ،الى أب رقيق ،ووعدها بتلبية كل ما تريد ،وقرر تسجيلها العام القادم بالمعهد التكنولوجي للتربية القريب من القرية .

في سهرة العائلة ،قرار وقف عمر عن العمل الاداري يثير أفرادها ،

الشيخ يقترح توسيط بن عبد الجليل ،عمر يزعم ان له معارفه الذين سينتقمون له بتحليل تسويق انتاج المؤسسة ،مراد يوافق على الزواج ،صالح يطرق الباب، يفاجئهم موزعا حزمة الشهادات الذهبية على الجميع ،مهددا بوشاشة ، غير معتد بالرسالة التي يناصرها الشيخ ،وتحرقها دليلة ،وفي الغد تهتف للرجل وتكتشف أنه في خدمة بن عبد الجليل ،فتيأس منه ،وتزداد غربتها ، تهتف لنصيرة ،تقبل استضافتها أياما ، فتأخذ حقيبتها وتخرج نهائيا ، تهنئها أختها الصغرى على ذلك .

مـدخـل :

صورة المرأة في رواية بان الصبح ،مجالها المدينة عامة يقول الكاتب :" رواية بان الصبح صورة مكملة للجزائر (المدينة) ،أما الريف فقد سبق أن قدمته "(1).

وصورة المرأة في هذه الرواية ،كأبرز ما تكون أخذت أدوارا عديدة من الدور الأول ،الى الأدوار الثانوية ،وتتميز هذه الرواية ،بكثرة عدد الشخصيات عامة ،والشخصيات النسائية خاصة ،فهناك حشد منهن ،حيث يجسدن المواقف المختلفة من القضية الواحدة .

وتتجسد صورة المرأة في الرواية فيمايلي :

1 - صورة دليلة ،طالبة جامعية ،منحرفة ،مستغربة ،متحولة من التيار الليبرالي ، الى التيار الاشتراكي ،تحولا في بدايته ،وهي الصورة الأولى في الرواية كوالدها الشيخ علاوة ، وهي رمز الى فئة من الجيل الجديد ،والطبقة الوسطى والوطن عامة .

2 - صورة نعيمة ،تقابل صورة دليلة ،من حيث كونها ريفية ، ومتخلقة بأخلاق فاضلة ،ووتتجه مباشرة وجهة اشتراكية ،وان راحت ضحية التمزق العام في المدينة مثلها ،وهي تشير الى ضرورة التنمية الريفية في اطار أصيل ،وهي صورة ثانية في الرواية ،ترمز أيضا الى فئة أخرى من الجيل الجديد ،والطبقة الوسطى والوطن .

3 - صورة نصيرة ،صورة ثانوية في الظاهر ،موازية لصورة نعيمة من حيث الأخلاق والانتماء ،وان كانت تمثل تجربة أعمق ،من حيث النضال وهي شخصية رامزة أيضا .

---

1 - من مقابلتي الأولى للكاتب .

4 - صور ثانوية عامة . صورة زبيدة وصورة العجوز كلثوم ،وصورة منى ،وصورة المرأة الارستوقراطية ،وصورة المرأة العاملة .

الصـــورة الجسميـــة

الصـــورة الجسميـــة لدليلـــة :

قدم الكاتب الصورة الجسمية لدليلة من أول صفحة في الرواية تقديمـا " حيويا جدا من خلال اللوحة الفنية التي نقلتها ، (لها) وقد ربط ذلـك بالحالة النفسية التي كانت عليها وبالوضع الاجتماعي الذي تعيشه "(1).

يقول ما زجا بين السرد والحوار الداخلي : " أنت دليلة الحركات الرياضية التي تقوم بها كل صباح وتقدمت من مرآة الخزانة وقالت لها وهي تنظر الى وجهها وجسمها فيها " أنا جميلة " ، أليس كذلك ؟ اياك أن تعكسي أمامي صورة زائفة لحقيقتي ! هذا شعري أعرفه بلونه الخروبي وطوله ، هاتان عيناي المسليتان الحالمتان بتفجير شيء ما ... هذان حاجباي المقوسان الرقيقان هذا أنفي المستقيم الذي يأنف من انحرافي ... هاتان شفتاي الرقيقتـان اللتان تحسنان التدخين والشرب أكثر من القبلات "(2).

وقد صورها في حالة الغضب أيضا " احمر وجه دليلة غضبا وتشكلت على خديها حفرتان من عضها على فكيها ، تحاول بذلك السيطرة على أعصابها فازداد وجهها جمالا وجاذبيه تلما توجد في حالة الغضب "(3).

كما قدمها من خلال نسيمة التي لاحظت على وجهها " شحوبا غريبا وقلقا باديا "(4) ، وذلك بعد صدمتها من موقف كريمو ، من حملها منه ولكنها سرعان ما تخطي معاناتها بشيء من الزينة غير المناسبة (5).

1 - سعيدة حوارة الواقعية في روايات عبد الحميد بن هدوقة والطاهر وطار ، ص:67.

2 - الروايـــة . ص : 5 .

3 - الروايـــة . ص : 76 .

4 - الروايـــة . ص : 117 .

5 - الروايـــة . ص : 120 .

وبدت في بيت نصيرة " في غلالتها كاعبا كأنها في طور المراهقة" (1)
و " نظرت نصيرة مليا تتفحص وجهها ونظارتها ولاحظت أن نظرات دليلة غريبة بشكل مذهل ،لم تكن تعرفها لها من قبل ! كأن فيها مغناطيسا أو أنها بعمقها وجاذبيتها تنبعث من أعماق الزمن " (2).

وهذه الجاذبية المنبعثة من أعماق الزمن تحتوي على دلاله رمزية ،تجعل دليلة ترمز الى الوطن ،وطن الحرب التحريرية وما بعدها بالضبط اذ أنها من مواليد 1954 م ،وتبلغ من العمر اثنين وعشرين سنة في عام 1976.

ودليلة قوية البنية سرعان ما تتخلص من أثر الصدمة فيبدو لها وجهها في المرآة بعد يوم واحد " كما يبدو لنصيرة متكملا يشع أنوثة وحياة وارادة ، (3) وهي تتعهد جسمها برياضة المصارعة اليابانية ،وحركاتها عنيفة .

وقد كانت كامرأة جميلة موضوع مغازلة ،واستغلال أيضا ،"وقفت دليلة في مفترق الطرق بين " حسين داي " و" القبة "... وأخذ السواق يغازلونها من سياراتهم بالاشارات الضوئية والبعض بالكلمات والغمزات ..." (4).

والرواية مكتظة بموضوع المغازلة هذا ،يستوي في ذلك الشباب والشيوخ ، ودليلة نفسها تقدم في الرواية ،ذات حاجة جنسية مسعورة ،هذه الحاجة التي جعلت كريمو يوظفها كأداة طيعة بين يديه ،وسيأتي الحديث عن رمزية هذه العلاقة فيما بعد .

---

1 - الرواية . ص : 178
2 - الرواية . ص : 187 .
3 - الرواية . ص : 192 .
4 - الرواية . ص : 10 .

الصــورة الجسميـــة لنعيمـــة :

جعل الكاتب نعيمة من الجميلات تقول باية " أهلا بك ياكلثوم ،أهـــلا بزبيدة ،وأهلا بهذه التي لا أعرفها والتي جاءت بوجهها الجميل وجسمهـــــا النحيف تتحداني في محلي ... وكانت نعيمة لا تنفك تبتسم وابتسامها ذاك أعلى لوجهها سحرا لم يغب عن صاحبة الحمام "(1).

وكما يفصل الكاتب مع شخصياته الروائية الثانية عادة فهو لم يحدد تفاصيل صورتها الجسمية ،ولم يزد على كونها جميلة الا أنها نحيفة وذات شعر طويل ، ويؤثر على ظاهرها انحطاط معنوياتها ،فهي حين اتهمت زورا" افتقد وجههـا كل ما كان يشع فيه من سحر وجاذبية وابتسام "(2).

ونعيمة فتاة سوية ترفض الانحراف ،وقد تخاصمت مع الطيابة التي تعودت الضغط على الأماكن الحساسة في أجساد بعض زبوناتها ،وان كانت تهتم بسلامـة جسمها وتمارس الرياضة .

وتعتقد منى زوج عمر ،حين تلاحظ مضايقاته للفتاة أن "وجود (ها) هو الذي أثاره"(3) ،كما أن الشيخ بعد اتهامها . يرى أنها "جميلة في مقتبل العمـر بالمقارنة مع منى "(4).

الصــورة الجسميـــة لنصيـرة :

صورها الكاتب تصويرا خفيفا " لاحظت دليلة جمال جسم نصيرة وهـي تبدو كالعارية في غلالتها فقالت في نفسها "انها جميلة " ثم قالت لها جهارا :لك

1 - الروايـــــة . ص : 53 .
2 - الروايـــــة . ص : 233 .
3 - الروايـــــة . ص : 255 .
4 - الروايـــــة . ص : 270 .

جسم مثير" (1) ،وقد ساعدتها في التسريح المناسب لشعرها " الذي يبدو مجعدا صعب التسريح " (2).

ونصيرة قليلة الاهتمام بالتزين عامة وأميل الى البساطة ،وان كانت شابة في الرابعة والعشرين من عمرها ،ولأنها لا تتورع ان تخرج الى الشرفة ودليلة بجسد مكشوف تقريبا ،كما تتحرك في البيت كذلك "خرجنا من الغرفة واذا بهما تلتقيان بأبي نصيرة وكانتا في غلالتيهما الخفيفتين فتراجعتا الى الوراء" (3) ، وهذا التراجع الى الوراء يوحي بخطأ هذا السلوك .

ونصيرة ان رفضت الحرية الليبرالية في أغلب المجالات ،في السياسة والأخلاق ...الخ . فقد مسها التقليد الغربي ولو مسا خفيفا ،والتقليد الغربي يجد مجالا خصبا في مسألة اللباس ،ذلك أن صناعته ،في الداخل ، تعتمد على النماذج الغربية ،ولا تبدع اللباس الحضاري المحلي ،في الغالب ولم يبدأ اللباس الاسلامي في الانتشار الا من فترة قصيرة جدا.

ونصيرة شابة سوية أحست بميل نحو كريمو ،تحطم في بدايته ،لانحلاله ، فهي لا ترى ارضاء الجسد منفصلا عن ارضاء الروح تقول " جئت أقوم واذا بذراعه تمتد فوق كتفي ويميل علي ليقبلني ... قمت مغضبة في انفعال شديد ،ونسيت حتى من أين دخلت ،فارتطمت بالحائط ،خرجت كالمجنونة لا ألوي على شيء. كنت أحس أن روحي تكاد تمزق جسمي سخطا وغضبا ،لقد ظنني ولدت تحت جسر" (4).

---

1 - الروايــــة . ص : 18.. .
2 - الروايــــة . ص : 191 .
3 - الروايــــة . ص : 190 .
4 - الروايــــة . ص · 101 .

الصـــورة الجسميـــة لزبيـــدة ،وصور أخرى :

" لم تكن زبيدة بالرقيقة الهزيلة ،ولا البادنة ، كانت بين بين ،لبست سلسلة من ذهب ثخينة عريضة ، هي الى العقد أقرب منها الى السلسلـــة وسوارا وقرطين وخاتما محلى " بفاروزات "(1) فأضافت للألوان الأولى توشيـة جد جميلة ،فكرت نعيمة أن هذه المصوغات تشكل طاقما واحدا وأنها فـي مكانها من جسم زبيدة تشكل كلا متكاملا . أعطى لها جاذبية لم تكن تعرفها لها "(2).

وسن زبيدة هو ثمانية وثلاثين سنة فهي من مواليد 1938 م، سـن تزيدها يأسا من الزواج ، لاعتقادها كما هو شائع ،أن المرأة كلما تقدم بها السن زهد فيها الخطاب .

ويلاحظ عموما أن الكاتب لا يحدد الصورة الجسمية للشخصيـــات الثانوية الا قليلا ،فصورة منى مثلا لا تكاد تعرف عنها الا كونها متوسطـة العمر ،بدأ جمالها يذبل ،وهي مثل زبيدة تتأثر نفسيا بذلك ،أما العجوز كلثوم فلم يذكر الكاتب عنها الا أنها امرأة لا بدينة ولا نحيفة ،وهي تشكـو الربو في الحمام .

---

1 - الصحيح " فيروزات "

2 - الروايـــة . ص : 221 .

الصـــــورة الاجتماعيـــــة

الصـورة الاجتماعيـــة لدليلـــة :

دليلـة من الطبقة الوسطى ،والدها مستشـار بالوزارة من أصـل ريفي فقير، لجأ الى تونس ولم يختر الكفاح المسلح ،وقد كان من المناضلين المشبوهـــين المطاردين من السلطات الاستعمارية ،وبعد الاستقلال سكن فيلا ،في الجزائر العاصمة ،وقد علـم كل اولاده تقريبـا ، ماعدا اليامنة المتزوجـة لم ترد اليهـــا اشارة بخصوص ذلك ،ـ : فعمر مدير مؤسسة عامة ،وزبيـدة ذات شهـادة ابتدائية ،مكثت بعدهـا بالبيت ،ومراد جـراح درس في فرنسـا ،ورضا طـالـب أدب في مرحلة الدراسات المعمقة ،ودليلة ،طالبة حقوق في سنتها الأخيرة وعالة تواصـل تعليمهـا الثانوي .

وهذا الوالد نموذج للتمزق بين الحضارات والتيارات والقيم ،وان كـان يغلب عليه تقليد الطبقة الثرية فهو كما يقول عنه رضا " مجموعة من قطع الغيار، لا تشابه الواحدة الاخرى ،ولا هي من مصدر واحد . انه يحيا في عدد مـن العصور ،وفي عدد من البلدان في نفس اللحظة يريد ان يكون من عداد الاغنياء ،ومع المثقفين ومع الزعماء ومع الحكام ،يناصر الحق ويناصر الجلادين". (1)

والتمزق أعطى التمزق ،ودليلة كاخوتها لم تسلم من ذلك ،مما سهـــل على كريمو احتواءها ، طلقنا اياها الفلسفة الليبرالية ،على أنها الثورة والتطور، كريمو الشاب الطالب الثري ابن صديق والدها ،الذي حملت منه سفاحا فرفض الزواج منها ،فراحت تتحداه ، وتتحدى عائلتها ،شخصيا وسياسيا ،بالانفصـــال مع الاحتفاظ بالجنين ،وبممارسة النشاط السياسي المضاد .

---

1 - الروايـــــة . ص : 276 .

و " رفض كريمو للزواج من دليلة هو رفض طبقة لطبقة والا فماذا يخسر كريمو الثري باعطائه لدليلة ورقة اجتماعية لا شيء لو أراد "(1).

والحقيقة أن الجزائر تضج بالصراعات المختلفة، ذات الأصداء الاجتماعية الواضحة ،فالحضارة العربية الاسلامية ،والاستبداد أو الاقطاع والبرجوازية ، والاشتراكية جميعها تصطخب .

الصورة الاجتماعية لنعيمة :

نعيمة برجوازية صغيرة ريفية ،هاجرت الى المدينة لبعض عام لمواصلة الدراسة الجامعية ، ثم عادت أدراجها ،كغيرها من الريفيين الذين تسحقهم المدن عند التحاقهم بها .

وقد عرفت نعيمة مآسي وهي صغيرة بعد ،فقد ولدت عام 1956 ،ولم تنعم برؤية والدها المجاهد الا زمن الاستقلال 1962 ،وقد فقدت أمها وهي في الثالثة ،عام 1959 ،وفقدت عمتها التي كفلتها ،بعد ذلك وهي في التاسعة عام 1965 ،فتزوج الوالد منجبا طفلا عوفي سنة 1976 في الثامنة ،ولد عام 1968 ، وطفلة في الرابعة ،ولدت في عام 1972 ،وان كانت زوج الأب أحسنت معاملتها ،فقد ظل مكان الأم خاليا .

والى جانب هذا الحرمان المعنوي ،عرفت نعيمة حرمانا ماديا شأنها شأن أغلب الجزائريين في فترة الحرب ،الى درجة جعلتها تحب الضابط الفرنسي، الذي يسألها عن الوالد ثم يعطيها (الشكولاطة).

وذكريات الحرب لديها ،عمقها والدها الذي يحكي لهم عنها بالاضافة الى بعض الذكريات التي علقت بذهنها ،وآثار الماضي المأساوية تحولت

1 - من المقابلة الاولى للكاتب .

الى حوافز ايجابية في الحاضر ،فالحرمان العاطفي جعلها تتمسك بالرابطة الأسرية ،التي تمنحها ، المحبة ،وتراعي قيمها الفاضلة ،التي تحصنها ضد الانحراف الذي شهدته في مدينة " الجزائر ،والحرمان المادي ،قوى احساسها بضرورة العدل الاجتماعي .

وقد وجدت في أسرة عمها رغم الاستبداد في العمق ،حرية نسبية سمحت لها بممارسة النشاط السياسي .

وتركيبة هذه الأسرة والوسط عامة جعلاها ضحية للتناقض العام .

الصورة الاجتماعية لنصيرة :

نصيرة من الطبقة الوسطى ،نالت شهادة الليسانس في التاريخ ،وعملت باحثة بمصلحة البحوث النقابية ،والدها ميكانيكي بسيط ،وهكذا فهذه العوامل الثلاثة تقربها من المسألة الطبقية ،وتأتي التجربة الحياتية ،في احتكاكها بكريمو ،لتحسم انحيازها الى الطبقة الكادحة والموقف الاشتراكي .

وأسرتها أسرة منسجمة عامة ،أعطتها تربية حصينة ،وهي حرة في حياتها العامة ،والخاصة ،تخوض النشاط السياسي علانية ،وكذا في خروجها للنزهة في سيارتها ،وحدها أو مع الأصدقاء . . .الخ ،وهي ان كانت كاملة الحقوق ،فهي ترى لها واجبات ،فتشارك في العمل المنزلي رغم ان الاسرة لا تتكون الا من ثلاثة افراد الأبوين وهي ،كما تشارك في شراء حاجيات البيت .

وللأسرة تقاليد عربية ،كالكرم ،وعدم سؤال الضيف شيئا " لكن الشيء الذي أثر على دليلة أكثر من الكرم والحظوة هو عدم الفضول والتطلع لم يسألها أحد من هي ولا لماذا جاءت ولا ماذا تفعل ؟ ان سلوكا مثل هذا غريب في الجزائر، ولا سيما بين النساء "(1) .

---

1 - الرواية . ص : 195 .

الصـــورة النفسيـــة

الصـورة النفسيـــة لدليلـــة :

دليلـة شخصيـة لا تتوفـر على التكافؤ المنطقي ،وان أثارت الدهشـــة وفاجأت القارئ ،وهي تعرف أنها لا تملك رؤيـة واضحـة تقـول " ان أفكـــاري مختلطـة "(1) ، معتقـدة ان الحريـة نوعـان ،وفي حـوارها مع نصيرة تسأل" هـل الريح حـرة ؟ - هـل هناك أكثـر حريـة منها ؟ - ريح الشمال أم ريح الجنوب ، هل الحريـة تختلـف ؟! - الرياح هي التي تختلـف "(2) ،وتقـول أيضـا " أنا أتصـور البشريـة يتجاذ بها قطبـان رئيسيـان قطب السراب وقطب الحقيقة ،أحدهمـا في الشمـال والآخـر في الجنوب "(3) .

أما سلوكهـا فتقـول عنه " أنا أشـرب الدخان ،وفي غرفتي أجذب نفســا بعد آخـر بنهـم ، خشية أن تدخل أمي أو أحـد اخواني ،فأرمي السيقارة قبل أن أنال مرادي منها ... أشـرب الخمـر ،واذا شربت أحاول بكل الوسائل أن أسكـــر. لأني أعـرف أنني لا يمكن أن أكون سكرى في كل مكان ومتى شئت ... وان كانت لـي علاقـة جنسيـة برجل أضطـره حتى يكره ما يسمى بالجنس في حياته لأنـي أعـــرف أن بعد ذلك الاتصـال قد أبقى شهورا بلا اتصـال ... حياتي كلها اذن مضغوطـة في لحظـات هي لحظـات سعـادتي وحريتي "(4) .

وتتحـدث عن الخيار فتقـول مثلا :" لو كان لي الخيار لوددت أن أتنـاول قهوة اليوم بحي القصبـة "(5) ،كما تقـول " الحريـة الصحيحـة لا تكون في لحظـة

---

1 - الروايـــــة . ص : 186 .

2 - الروايـــــة . ص : 192 .

3 - الروايـــــة . ص : 184 .

4 - الروايـــــة . ص : 192 .

5 - الروايـــــة . ص : 188 .

وتزول "(1) .فهناك مفهومان ،مفهوم ضيق لا يتعدى اشباع رغبات الجسد ومفهوم مطلق فضفاض لا يعترف بالضرورة ،الأول فرويدي سريالي ،والثاني مجرد ،لا يستوعب الواقع البشري .

ودليلة لا تخلو من " التناقض "(2) ،لأن لها أكثر من نظرة الى المسألة الواحدة ،متناقضة مع الآخرين ومع نفسها ،فهي في الوقت الذي تعجب فيه بأخلاق نصيرة ،الى درجة الندم على انحرافها ،تدافع عن الاباحة الجنسية الى درجة الهجوم على تلك الأخلاق ، عدا التناقض بين الظاهر والباطن الذي تتسم به ،وليس هناك سبب مباشر واحد لتناقضها ،اذ الأسباب كثيرة ، ولكن أهمها على الاطلاق تمزقها ،ثم تأتي أسباب أخرى ثانوية كمحاولة تبرير موقفها ،وحب الغلبة ولو سفسطة . . .الخ . وفي مجال العواطف ما سلمت من التناقض ،داخل الأسرة وخارجها ،فهي تكن للرجال عامة عداء ،ومتأثرة بالطروحات النسوية الغربية الى حد ،ومرتابة حتى في عشيقها ،ولكنها في الوقت نفسه تندفع نحو الرجال في مغامرات عارمة ،وعلاقتها بكريمو معقدة فهي مزيج من الاستسلام اللاشعوري ،والانبهار بالجمال ،والغيرة ،ومبادلة العاطفة ،وحلم الصمود الطبقي ،وانطلاق السكر ، ولذا يصعب تسميتها حبا،" لا تعرف الحب لأنها تختطف اللذات خطفا "(3) .

انها مخاطرة عبثية متحدية ،لا تكاد تحسب للعواقب حسابا ،وتحصر نفسها في اللحظة الآنية ،وهي عملية تفهم أن الحياة الدنيا نسبية ،لا تبخل عليها بملجأ ، فحين رأت ضيق الأسرة بالاباحة ،اتجهت الى الموجة البرجوازية ،وحين رفضتها ،لجأت الى التيار الاشتراكي المضاد ،واذا ضاق

---

1 - الرواية . ص : 308 .

2 - محمد زتيلي رواية " بان الصبح " (خصوص الرواية) ،جريدة الشعب عدد يوم 7 - 2 - 1982 . ص : 11 .

3 - سيد عطية أبو النجا ،عالم الفكر . ص : 285 .

بها افتراضا ،فهي تفكر في الهجرة الى فرنسا ف" المجتمعات الرأسمالية ليست حليفة للطبقات الكادحة ولكنها ليست عدوا للمرأة على كل حال"(1). والحياة فيها " مسألة بر"(2) ،كما أنها تميل الى تفضيل الأساليب السهلة ، فأول ما اعترضتها مسألة حرية الرأي مع والدها الذي "يتحدث وحده "(3) ، رافضا الحوار ،ضعفت عن مواجهته ،وعاشت حياة سرية منحرفة ،وفي ذهابها الى الكلية ،لا تركب الحافلة ،لا كتظاظها ،ولكنها تهرب الى المناصرة ،والركوب مع أي كان من أصحاب السيارات ليوصلوها ،وحين تتحدث مع احدهم تقول" هناك ظروف لا يستطيع الانسان مجابهتها بسهولة "(4) وهي تقصد أن المجابهة مشروطة بالسهولة ،...الخ .

وفي كيان دليلة المهزوز لا يمكن انتظار عزيمة ثابتة ، اذ تتجاذبها نداءات مختلفة ،ولذا فيمكن أن تحتفظ بالجنين ،ويمكن ألا تحتفظ به ،ويمكن أن تكون وفية للتحول السياسي الجديد ،ويمكن ألا تكون ؟! .

الصورة النفسية لنعيمة :

ذات تكافؤ منطقي ،يمكن تفسيرها بمفاتيح واضحة ، منها قوة ومرونة الفكر لديها ،فهي لا تفتأ تناقش وتحاجج وتقرأ ،وهي ليست هدفا سهلا ، للايديولوجيات المتصارعة ،والأحكام المسبقة الجاهزة وهذا ما حصّنها ضد السقوط الليبرالي الذي شهدته .

وقد ظل تصورها للحرية ،معانقا للاستقامة ،تقول في سخرية لدليلة "أنا حرة والحرية لا تقبل الأوساخ "(5).

---

1 - الرواية . ص : 181 .
2 - الرواية . ص : 197 .
3 - الرواية . ص : 66 .
4 - الرواية . ص : 14 .
5 - الرواية . ص : 9 .

كما أن هذه الحرية لا تراها الا في ظل تحقيق العدل الاجتماعي ولهذا بادرت الى الممارسة السياسية ،فتطوعت لصالح الثورة الزراعية ،وشاركت في اجتماعات الميثاق ..

ولكن نعيمة لم تسلم من جانب مثالي اذ اعتقدت أن دخول الجامعة في المدينة يوفر " حياة الحلم والنور والمستقبل الوضاء !"(1).

وعاملت الآخرين على أساس أن الانسان أكثر خيرا ،مما يظهر عليه من شرور ،فكان الامتحان الصعب الذي تعرضت له برميها باطلا بالفواحش والذي وضعها بين فكي كماشة ،لتختار بين أمرين أحلاهما مر ،التخلي عن الدراسة ،أو التخلي عن الأسرة ،وما يتبع ذلك من التخلي عن السياسة أو التخلي عن العاطفة الأبوية .

ان الكارثة قد أضعفت نعيمة فاضطربت اضطرابا نفسيا قويا ،عملت على التأكيد على برائتها ،وغرقت في لجة من الدموع والأحزان ،وقد رفضت اقتراح دليلة ،المتمثل في الهروب معها قائلة " كل شيء ولا هذا ... لن أفارق الدار بهذه الصورة ولو قتلني "(2) (الأب) .

ونعيمة ذات عواطف صافية وعميقة وقوية ،فقد كانت تنظر الى والدها" بشفقة وبشيء من الاحترام "(3) ،وقد عاد بها الى القرية وحين حملها الى الطبيب " الدكتور ... اختصاصي في أمراض النساء " ينثلج صدرها . ترقص أحرف لوحة الطبيب سرورا لها . مدينة تيزي وزو تتخذ فجأة شكلا آخر رائعا في نظرها .

---

1 - الروايـــــة . ص : 255 .

2 - الروايـــــة . ص : 233 .

3 - الروايـــــة . ص : 316 .

تبدو الجبال المحيطة بها مخضرة زاهية ... الشمس تبدو وكأنها استعارت أشعة أخرى لتعبر لها عن فرحها السماء ازرقت حتى كادت تصبح جسما أزرق يلمس! في لحظة تغير كل شيء من السواد الى النور ،من الكآبة الى السرور ،من اليأس الى الأمل ،وقالت في نفسها وهي تحس بحنان عظيم يملأ نفسها نحو أبيها : " أبي ليس غبيا كعمي ... يريد أن يتحقق مما سمع فسلك أقوم طريق "(1).

ونصيمة في مأساتها هذه تمثل بداية حب لابن عمها رضا ،حبا لا تعرف نهايته ،ولكننا نعرف أنه قد كان لها قوة تحريضية لمواصلة النضال أينما حلت .

الصورة النفسية لنصيرة :

ذات تكافؤ منطقي ،وشبيهه بصورة نصيمة ، من حيث الاستقامة والانتماء تقول نصيرة " أنا كلي يسار "(2) ، ولعله يسارا معتدلا كما يبدو من خلال الرواية .

والحرية والسعادة موقفان نسبيان لديها ليس فيهما الطلاق أو جمود " السعادة ليست شيئا تحصل عليه ثم ننتهي منه ونبقى دائما سعداء ، هي كالحرية ،كلاهما يكتسب باستمرار وتجدد "(3) ،وحرية المرأة من حرية الطبقة المستضعفة " ليس الرجال كلهم سواء ،أعداء المرأة في أي مجتمع هم أعداء الطبقات الكادحة "(4) ،والصدمة التي تلقتها في أول تجربة عاطفية لها مع كريمو ،قد آلت الى صدمة يقظة ووعي لا العكس ،فقد تطورت بعد ذلك فكريا وتأكدت من فساد البرجوازية وصارت تكره " الثراء الذي يكون على حساب

---

1 - الرواية . ص : 320 .
2 - الرواية . ص : 187 .
3 - الرواية . ص : 191 .
4 - الرواية . ص : 181 .

الفقراء"(1).

ونصيرة شخصية منبسطة ،وهادئة ،تناقش الافكار المعارضة بدون انفعال وتتحمل المشاق بصبر كبير ،وانسجامها العائلي يساعدها على هذا التوازن الرائع ،تقول عن والدها " يعتقد أنني في مستوى يجعلني أهلا لتسيير شؤونه هو في نفسه ،ان مركبه ،ان كان له مركب ،هو الانقياد الكامل الي !"(2).

الصورة النفسية لمنى :

سلوك منى ،فيه ازدواجية ونفاق ،والمهم في نظرها هو أن تحصل على بعض الحرية ،فتستقل ببيتها ،وتلبي حاجياتها من اللباس الرفيع وغيرها ، وتبقى مع أولادها ، وتبعد من تسلط زوجها .

وهي في سبيل ذلك، لا تتردد عن فعل الشر ،فتتهم نعيمة زورا بما ليس فيها ،وتشترط طردها من البيت والا خرجت منه هي ،ومن عادتهما كما تذكر زبيدة أن تتهم الشابات العميلات بالجري وراء زوجها ،مع علمها بانحرافه.

فهي في صراع مع الزوج الذي تحتقره ويحتقرها ويستعبدها ،ولكن عواطف الأمومة هي التي تمسكها عن الطلاق ،وهي لا تحب الشيخ علاوة في أعماقها ولكنها تتودد اليه ،وقد كسبته بذلك كمدافع عنها في أغلب الأحيان ،ولكنها مع زبيدة العانس ،ومع نعيمة التي لا ترغب في اقامتها في بيت عمها ،تسعى الى وضع أغلب الخدمات المنزلية على كاهليهما ،مشعرة الأولى بعنوسها والثانية بعدم الرغبة في ايوائها .

1 - الرواية . ص : 188 .
2 - الرواية . ص : 191 .

وهذه الصورة النفسية صورة صادقة ،حيث أن الزوجات التقليديات وكذا الأزواج يشعرون أن الأسر هي المسؤولة عن الرباط غير الموثق ،ولهذا لا ينظرون الى العلاقة الزوجية ،كعلاقة بين اثنين ،بل يوسمونها ،وينتقمون من أفراد العائلة .

الصورة النفسية لزبيدة :

صورة مزدوجة تجمع بين اليأس والأمل في الزواج ،لا أكثر ،أما اليأس فقد جعلها تحقد على كل من يتزوج ،وجعلها شرسة الطباع حتى أن شقيقها أطلق عليها اسم " كلمة واعرة " ،وعدا ذلك ،فما عادت تسكت لأحد ،انها تقول رأيها في قوة شاؤوا أم أبوا ،وحتى في الحمام لا تمتثل لوالدتها التي تبحث لها عن عريس ،بل تجلجل بضحكاتها ، وتواصل حديثها الذي شمت فيه الوالدة غمزا ولمزا بأخريات ،وخافت الخصومة .

ومع ذلك، فهي واقعية ،تعرف لماذا رفض الوالد خطابها واحدا بعد الآخر ،وتقبل أن تتزوج زواجا تقليديا ولو برجل مسن ، فالمهم أن تعرف تجربة الزواج ،وتطفيء الحرمان ، وتكف أن تكون خادمة للأسرة التي سحقتها .

صــورة المــرأة موقفـا ونمـوذجـا

أ) صــورة المــرأة موقفــا :

موقـف دليلـة من الحمـل غير الشرعي :

هذا هو الموقـف الأساسي لدليلـة وللرواية أيضا ، هذا الموقف الــذي قد يبـدو للبعض دون مستوى تناول جوهـري للواقـع (1) ،وان كنت أرى عكـس ذلك تماما ،لأن قبـول دليـلة للحمـل غير الشرعي ،هو احدى نتائج قبولهــا للحضارة الليبرالية عموما ،وفي ذروة القبول ،يتولـد الرفض ، ذلك أن هــذا القبـول قبول تحـد واثبات ذات ،لا قبول اختيار ،ومن ثمة تبدأ الرحلــــة للبحث عن بديـل .

علاوة على أن للموقف دلالتـه الرمزيـة في تجسيـد الصراع بين القــــوى الثوريـة ،والقوى المضادة ،فقبـول دليلـة للحمل تحصيل حاصل لأن السلــوك الاباحي لها الموجـه من كريمو ومن ورائـه طبقتـه البرجوازيـة الكومبرادوريـة ،من أربـع سنـوات خلـت ،يسجـل هذا القبول بالقـوة ،وان تأخـر ظهـوره بالفعــل ولهذا فاذا كان علينا أن نتسـاءل عن دوافـع دليلـة الشخصيـةلهذا القبول ،فعلينا ان نتسـاءل بالأحرى عن الدوافـع العامة ،لقبـول الغزو الثقافي في الجزائر .

قبلـت دليلـة الحمـل غير الشرعـي ،رافضـة الاجهاض ،اثباتا لذاتها أمـام كريمو ،تقـول له محتجـة " لكن لماذا كتبـت الي رسالـة فـي موضـوع يقتضــــي المشافهة وتبادل الرأي ... القضيـة لا تحتاج ... قلـت لك كل شيء في الرسالة ..

---

1 ـ أ) مخلوف عامر ،تجارب قصيرة وقضايا كبيرة مقالات نقدية المؤسسة الوطنيــة للكتاب الجزائر 1984 . ص : 49 .

ب) محمد زتيلي رواية " بان الصبح " بناء الرواية ،جريدة الشعب عدد يوم ، 8ـ 2 سنـة ، 1982 . ص : 11 .

لست أول فتاة تحمل ...ان أكثر من عشرة آلاف فتاة يجهضن سنويا ...
آ. تريد هذا ،تريد أن أجهض بالنسبة اليك كل شيء سهل ،ولم لا ؟ ،أتظن الحياة تجري كما تحب أنت"(1).

فالتحدي سمة من سماتها ،التي تجلت فيها منذ احتكاكها بكريمو، وبفكره ،وحين يسألها عبد العزيز عن سبب شربها للخمر تجيبه" لا ثبت لنفسي بأنني أشرب الخمر"(2).

واذا كانت دليلة لم تلجأ الى القضاء" ربما لايمانها بأن العدالة لا يمكن أن تصل الى من هم في طبقة كريمو ،وهذا التفسير هو اعتقاد (دليلة)... اذا وضعنا في الاعتبار كونها طالبة في السنة النهائية بمعهد الحقوق ،أي ابعاد فكرة الجهل واليأس كصفتين سلبيتين لديها ،وهذا موقف متقدم (منها) والكاتب بالدرجة الاولى"(3).

. فانها تعتقد أن الحمل مسألة أنثوية شخصية بحتة" فدفعته عنها وقالت : طبعا ليس هناك أسهل من الاجهاض
- أنا أقصد .
- أنت لا تقصد شيئا ، أنت رجل"(4).

واعتقاد دليلة هذا اعتقاد خاطئ من الأساس ،فالحمل مسألة اجتماعية ، بل ودينية ،والحمل غير الشرعي قد يفسد الأنساب ويوقع في الحرام ،وزواج الأفراد غير الشرعيين فيه حرج كبير ،ولو ترك للنساء ان يحبلن ان شئن ومتى شئن وكيف شئن ،بلاقيد ولا شرط لفسدت المجتمعات الانسانية من حيث اختلاط الأنساب

---

1 - الرواية بتصرف . ص : 76 ،77 ،78 .
2 - الرواية . ص : 306 .
3 - محمد زتيلي . رواية "بان الصبح" شخوص الرواية . ص : 11 .
4 - الرواية . ص : 81 .

والأرحام اختلاطا غير شرعي من جهة ،ولاختلت المجتمعات عدديا أيضا ، فماذا لو قررت النساء عدم الانجاب اذن ،لا نقضت الشريعة ،والعالم الصناعي الذي لا تنجب فيه المرأة الا مولودا واحدا أو اثنين يشكو من نقص قواه البشرية على سبيل المثال .

كما أن الكاتب جعل دليلة تعرف أحاسيس الأمومة يقول على لسان حالها " الجنين الذي في أحشائها لا يذوب ويصير ذرات في دمها بالمصادفة ، فهو اما أن يخرج في وقته للحياة ،وخروجه عندئذ تترتب عنه مسؤوليات لا تحصى ،واما أن يخرج قبل الأوان ،فتترتب عن ذلك مسؤوليات ،ولكن من نوع آخر ، لعلها بالنسبة لغريزة الأمومة فيها أثقل وأمر "(1).

والكاتب لم يركز على هذا العنصر كثيرا لأنه يبدو مستنكرا المثل هذه الأمومة التعيسة الملوثة ،وقد ظهر ذلك عندما جعلها تفكر في الانتحار " الانتحار حل لمشكلتي ،شربت اللذة حتى الثمل ،يجب أن أدفع الثمن ، أنا وجنيني ،هكذا لا يحيا في مجتمع يتصور رجاله كلهم آباؤه ! ولا أنا أحيا بالخزي معه الى الأبد ... لو بقينا لكان كلماناداني صاحب الكلمة في نفسه الوصف الذي يعطى للأمهات . اللواتي تلبسن بالاثم مثلي ،عشنا حكمت عليه الى الأبد بصفة اللقيط "(2).

ان دليلة ،وهي تعترف باثم الزنا ،لا تضيف اليه اثم الاجهاض أو الانتحار،(3) وتفضل أن تنتقم من نفسها والمجتمع ،في نفس الوقت ،بالحفاظ على الجنين ، كشهادة على الفساد السائد ،على شاكلة الانسان كما تصوره الواقعية النقدية .

---

1 - الرواية . ص : 299 .

2 - الرواية . ص : 305 .

3 - قال فقهاء المالكية انه لا يجوز اسقاط ماء التناسل المتكون في الرحم ولو قبل الأربعين يوما وهذا هو المعتمد في المذهب "د .أحمد الشرباصي يسألونك في الدين والحياة " المجلد الرابع ،دار الجيل بيروت ط2، 1980 . ص : 85 .

ورغم ان دليلة قد شرعت في التفكير في الترتيبات،فكرت في العمل ، والاستقلال بسكن ،والتطوع لصالح الثورة الزراعية ،أو تهاجر الى فرنسا اذا تأزمت الأمور ،فان ما نفذته بعد ضئيل ، فقد فشلت في الحصول على سكن مرتين ،وقبلت نصيرة ضيافتها أياما وهي لا تعلم سرها ،كما ان كريمو يتابعها باستمرار ، ولذا فان مصير دليلة وجنينها غير محدد ،بل معلق كما هي عادة الكاتب في انهاء رواياته غالبا .

ونعود الى الجانب العام فنجد أن أسباب التمكين للغزو الثقافي في الجزائر تكمن في "انعدام الحوار"(1) أو الديموقراطية أو الشورى ،والشيخ علاوة " رمز السلطة "(2) ، قد أظهر نفسه كقوة لا تقهر ،فراحت الأسرة رمز الجماهير تحس بعجزها عن مواجهته ،وعن التعبير من الداخل ،فكان التمرد والوقوع في اللعبة الليبرالية من بين الردود لفئة من البرجوازية الصغيرة (دليلة وعمر ،ومراد ،...الخ).

هذه الفئة التي تستغلها البرجوازية الكومبرادورية لاحكام التبعية . وفي الوقت الذي خولت فيه للجماهير فرصة ديمقراطية - مناقشات الميثاق الوطني - يقول أحد المسؤولين ان "حرية التعبير مضمونة في هذا الشهر للجميع"(3) ،شهر ماي 1976 ،فان هذا التمرين الديمقراطي الجماهيري آنذاك قد فضح هذه الطبقة التي " منذ الاستقلال أصبح يخشى أن تتدخل... هذه القوة يمكن أن تظهر بحكم موقعها في أجهزة الدولة والاقتصاد أشد خطورة من أية قوة اجتماعية أخرى موجودة حاليا في البلاد ،بالنسبة للتطور الاشتراكي والديمقراطي للثورة ومرد ذلك الى أن الدولة الجزائرية احتفظت بالهياكل

---

1 - د . السيد عطية أبو النجا ،عالم الفكر . ص : 285 .
2 - من مقابلتي الأولى للكاتب .
3 - الرواية . ص : 145 .

الادارية التي أقامها الاستعمار ،في حين أنها كانت مدعوة بحكم التطور التاريخي للثورة الى القيام بدور اقتصادي لا تتلاءم معه هذه الأجهزة الادارية وبالفعل فان الهياكل التي أقامها الاستعمار كان هدفها تأطير اقتصاد ليبرالي تترك فيه الوظيفة الاقتصادية لمالكي وسائل الانتاج والمقاولين ومثقفي المهن الحرة ... هذه البيروقراطية الادارية والاقتصادية ... بواسطتها يمكن أن ينتقل نفوذ الامبريالية . والفئات البرجوازية الوطنية الرامية الى مناهضة السياسة الاشتراكية وتحريفها وتخريبها" (1) .

وهي لا تستطيع ارضاء حتى جماهير البرجوازية الصغيرة ،التي جندت قسما منها في ركابها " فامتيازات الفئة البيروقراطية ليست امتيازات الجماهير البرجوازية الصغيرة ،لأن الوضع الاقتصادي ،ومستوى التطور الاقتصادي المتخلف لا يسمح باعطاء امتيازات كل البرجوازية الصغيرة كفئة اجتماعية على حساب المجتمع ،وهذا يطرح الاستنتاج القائل بأن العناصر البيروقراطية لا تقف في سعيها للحفاظ على امتيازاتها ضد التطور وضد الطبقة العاملة والجماهير الكادحة وحسب ،بل ضد مصالح البرجوازية الصغيرة ... أيضا" (2) .

ولجوء دليلة الى نصيرة ،هو لجوء الطبقة الوسطى الفاشلة في الصمود الى الخيار الاشتراكي ،ومقابلة الحمل غير الشرعي ،بالتبعية ،أكثر منطقية في نظري من مقابلته بالميثاق الوطني كما يرى محمد زتيلي (3) ،الا اذا اعتبر الميثاق نفسه كأداة لذلك .

---

1 - ميثاق الجزائر . ص : 35 .

2 - مهدي عامل " مقدمات نظرية لدراسة الفكر الاشتراكي في حركة التحرر الوطني ،في التناقض 2 ،في نمط الانتاج الكولونيالي ط/3 . 1980 دار الفارابي بيروت ص : 215 - 216 .

3 - رواية " بان الصبح " أوجه التشابه بين " الزلزال " و " بان الصبح " جريدة الشعب عدد يوم 1982/02/9 . ص : 11 .

موقف دليلة من الجنس :

موقف دليلة من الجنس موقف منحرف اباحي برجوازي مستغرب .

وقد سبق للكاتب أن صور مثل هذا الموقف تصويرا محدودا في تمرد ناجية التونسية في نهاية الأمس ،ولكنه يعود ليتوسع فيه ،الى درجة مكشوفة، لدى شخصية دليلة ذات المستوى الأول في رواية بان الصبح .

وتبدو دليلة يائسة من الزواج كاطار منظم ومشروع للحاجة الجنسية وهو يأس لا مبرر له لو كانت شخصية سوية قادرة على مواجهة الوالد في الوقت المناسب ،فموقفه المستبد مع أختها زبيدة التي رفض خطابها حتى قاربت الأربعين ترك لديها تعقيدات لا تنسى ،وهكذا فقد حكمت على نفسها بالعجز عن المواجهة مسبقا ،ووضعت نفسها بين سطوة الوالد ،وضعفها فوجدت عدم امكانية الزواج ،فارتأت الاباحة مدركة أنها انحراف وقد لقيت فيها شيئا من الاحساس بالسعادة والحرية فاستمرأتها و" جعلت (منها) وسيلة لتعويض الماضي "(1)، وهي ترى الكبت سببا جعلها و" جعل الناس هكذا يسيرون بلا منطق "(2).

وقد واكب هذا العامل النفسي فراغ روحي نتيجة التمزق الذي تعيشه اذ أن الوالد ،يدعو الى أخلاق اسلامية ويمارس الاستبداد ،ويقلد الطبقة الثرية (3) ،هذا التمزق الذي سهل على كريمو دوره كما أسلفنا ،فلقنها من أول لقاء أن التدخين والتقبيل من سمات الطالب الثوري المتطور ،ثم مضى معها في طريق الانحراف موغلا ،وللفراغ الذي تعيشه لم ترفض كما رفضت نصيرة، وكما رفضت نسيمة ،لأنها أصلا فاقدة لأي انتماء محدد وقوي .

---

1 ـ د . السيد عطية أبو النجا عالم الفكر . ص : 281 .
2 ـ الرواية . ص : 202 .
3 ـ الرواية . ص : 187 .

وهكذا فقدت عذريتها مع كريمو ثم حملت منه سفاحا وقد أظهر لها أن علاقته بها حميمة ،ولو أنه اباحي مثلها ،فرغبت عن استعمال أي مانع للحمل منه " أحببت أن أنال منا، ما لم تنله غيري . ولم أرد أن تكون تجربتي كامرأة تشبه الفحص الطبي "(1).

ولم تكن تفكر في العواقب " أحمل في بطني جنينا لم أفكر لحظة لذتي في حمله "(2) ،وهي لا تتورع عن هذه العبثية بعد انفصالها عن كريمو" الذي يهمني هو كأس ويسكي ،لو وجدت اليه سبيلا ،ورجلا "(3).

ودليلة تود لو تقابل الرجال بمثل انحرافاتهم ،ليكونوا أداة جنسية مسخرة للنساء كماهن البغايا بالنسبة لهم" الآن أنا ،وأنت من الناحية البيولوجية في سن تجعلنا في حاجة الى اشباع رغباتنا الجنسية . هل نستطيع أن نبحث معا على رجل ،نشبع منه رغباتنا ثم نرميه ؟ طبعا لا ،بينما الرجال يستطيعون أن يشتركوا عشرة في امرأة واحدة "(4).

بل وتضيق بأنوثتها ،وتود لو صارت ذات طبيعة رجالية " ما أريد ليس الدواء ،ولا الواقي من أي نوع كان ،أريد أن أكون كالرجل ،لا أحمل وأعمل العملية بصورتها الطبيعية!"(5).

---

1 - الرواية ، ص : 41 .

2 - الرواية . ص : 104 .

3 - الرواية . ص : 135 .

4 - الرواية . ص : 143 .

5 - الرواية . ص : 184 .

موقف نعيمة من الحياة المدينية :

لنعيمة الريفية المهاجرة حديثا ،موقف مزدوج من حياة المدينة ،في أول طرفيه القبول والايجابية ،وفي الطرف الثاني ،الرفض والسلبية .

فالحد الذي تمنحه الحياة المدينية من الحرية عامة ، قد مكنها ، من ابراز قدراتها السياسية ، فتطوعت لصالح الثورة الزراعية ،ومضت تعايش وتناقش وتطالع لتعميق خبراتها ،وغايتها المساهمة في دفع عجلة التطور ، وتحقيق مستقبل أفضل ،في اطار ثوري اشتراكي أصيل .

ولكن هذا الحد الذي تمنحه الحياة المدينية من الحرية عامة ، لا يحول دون الانحراف ،وقد كانت ضحية لانحراف أفراد أسرة عمها الشيخ علاوة ،وعلى رأسهم الشيخ نفسه ،الذي يتجسس على رسائل أهله شكا فيهم ،ويرميها بالشبهة ،تجنبيا لهم من الفضيحة ،وابنه عمر الذي يحاول الاعتداء عليها ،ثم يرميها بالتهمة نفاقا ،ودليلة التي تحايلت عليها للمراسلة باسمها ،هروبا من تورطها ،وأنانية ،لقد دافعت نعيمة عن برائتها أمام الجميع ،وأهينت من عمر وفوزي والعم وزوجه ، ولكنها أسلمت نفسها لوالدها ،غير حيابة ،وفضلت أن تقلع دراستها الجامعية ،على أن تداس كرامتها ،وذلك ما حصل فعلا ،وهذا هو الجانب السلبي ، فالتمزق والازدواج والنفاق في المدينة ،اصبح يقف في وجه تطور الانسان عامة ،فما الحل ؟

هل يظل الريفيون يهاجرون الى المدينة طلبا للعلم والعمل . . . الخ ، وتظل المدينة تسحقهم .

هل ينقطعون عن المدينة لتشييد أريافهم ؟ ألا يمكن ان تنتقل اليهم عدوى قيم المدينة ؟ . . .

ان الوالد صالح يشير الى خرف المدينة ، وشيخوختها ،وعجزها عن اقامة الحق ،حين يقول " لماذا كذبت أنت وزوجتك على بنت يتيمة كادت تذهب ضحية كذبكم ،لو لم أعرضها على الطبيب ؟ . . .لو كنت رجلا لعملت معها مثلي "(1).

ويخاطب أخاه وهو خارج " عندما كمنا نحارب كنتم لا جئين .لا تنسوا ذلك "(2).

وهو بذلك يربط بين الحق الذي دافع عنه المجاهدون ،والحق الذي يجب ان يكون الآن ،حق لا يقدمه القاعدون عن الجهاد ، والمتطلعون للترف ماضيا وحاضرا ومستقبلا .

موقف نصيرة من السياسة :

لنصيرة موقف سياسي منظم ،في اطار النقابة ،وغيرها من المؤسسات الشرعية ،وقد خاضت تجربة نضالية أهلتها لمهام صعبة مثل تجنيد وتثوير العناصر الجديدة ،وكانت نصيرة تقف بأحد الشوارع المؤدية الى الجامعة المركزية ، حين لقيتها دليلة ،وهو ليس وقوفا اعتباطيا ، كما حاولت اظهار ذلك لها ،بل وقوف هادف ،الى ربط الصلات وفتح الحوار ،لتدعيم التيار الاشتراكي ،بعناصر جديدة .

وقد صور الكاتب صعوبة هذه المهمة ،في نوعية الانسان الذي يتجه اليه الجهد الثوري ،والذي تمثله دليلة بكل تمزقاتها .

وقد ضاقت نصيرة من سلوكها الطائش وكادت تتركها ،ولكنها صبرت عليها وهي تكتشف أنها في حالة سكر ،وخارجة في الحال من أتون أزمة ، مصدومة ،ومهزوزة ،فواستها وأخذتها الى سيارتها ،والى الشاطئ ،واستضافتها

---

1 - الرواية . ص : 326 بتصرف
2 - الرواية . ص : 327 .

الى البيت .

وفي يوم وليلة بذلت معها جهدا مركزا ،عرفتها عامة من خلاله معرفة أولية ،واكتشفت انها رغم الموروث البرجوازي الثقيل فهي مهيأة بحكم طبيعتها الجريئة العدوانية احيانا وبحكم تجربة انسحاقها المرة ،الى نضال لا هوادة فيه ضد التيار اليميني .

أما الجانب الاخلاقي فقد بدأ يتقوى عند دليلة منذ اكتشافها لنصيرة ، ودورهذا العنصر في رفضها لكريمو وطبقته عامة .

وتزداد مهمة نصيرة صعوبة وتعقيدا ،بالمشكلة التي أخفتها عنها دليلة -أي العمل غير الشرعي - وخاصة أنها قد قبلت لجوءها عندها أياما .

وان كانت نصيرة متعودة على المواقف النضالية الصعبة تقول عن عمر " التقينا في اجتماع بين ادارة المؤسسة التي يديرها والفرع النقابي بها وأسمعني كلاما بذيئا ، كلام رجل يعيش في عصر " القياد " لا في عهد التسيير الاشتراكي للمؤسسات " (1) .

والكاتب هنا يربط بين الثورة والصعوبة ، وهو ربط صحيح ،اذ أن الانسان الثوري لا يمكن ان يكون ،ذلك الذي يبحث عن السهل من الأمور , بل العكس صحيح ،وروح التضحية وحدها هي اساس الثورة الحقيقية ،وأية ثورة تزعم القيام بغير ذلك ،فهي تميل الى الانحراف ،وأذكر ان الثورة التحريرية قد كانت لها سلطة اجتماعية ،فلم تكن تتجنب حل المشاكل المطروحة ،سواء للمنتمين اليها أو لبقية أفراد الشعب ،وكانت ترفع اليها المظالم فتبت فيها ،وتعاقب الظالمين اذا تطلب الأمر ،الى حد الاعدام

---

1 - الرواية . ص : 200 .

أحيانا ، اذا كبرت الجريمة ،ولذلك فان ذلك المهد قد أوحى الى الناس ، بأن المستقبل لن يكون أقل عدلا ،كما أوحى للمرأة خاصة بذلك .

ب) صـــورة المرأة نموذجـــا :

دليلة نموذج للتمزق العام ،الذي يواكب المرحلة الانتقالية الطاحنـــة حيث البنية الاجتماعية ، المركبة التي تفرز واقعا غير منسجم .

وهي نظريا مشدودة بتفاوت ،الى قيم حضارية عربية اسلامية ،وقـــيم استبدادية أو اقطاعية وقيم ليبرالية ،وقيم اشتراكية .

وأسرتها كلها تقريبا يسري عليها هذا التمزق أيضا ،وقد جربت دليلـــة الخروج العملي من هذه الدائرة ،وان لم ينتف الصراع في داخلها ،بالسلـــوك الليبرالي ،الذي وافق أهواءها الجسدية ،وهناك فئة لا بأس بها تنجـــذب الى السلوك المذكور لنفس السبب لأنه يكرس انحرافاتها كحقوق وانتهى بهـــا الى اكتشاف سراب الصمود .

فلجأت في المرة الثانية الى السلوك الاشتراكي الذي جعله الكاتب فـــي مرحلة ولادة بالنسبة اليها ،وان كان الموروث السابق يصارعه بشدة .

وعلى المستوى العام ف" الكل عرف الكل واتضح للجميع ان الجميع لا ينتمي الى طبقة واحدة "(1) في مناقشات الميثاق الوطني .

الا أن الطبقة الوسطى منقسمة ،بين موالية للطبقة العليا ،وموالية للطبقة الكادحة ومن الفريق الأول نجد الشيخ علاوة -عمر- عبد العزيـــز ومن الفريق الثاني نجد رضا نصيرة ،نعيمة .

وهذا التمزق ليس ابن الاستقلال وما بعده بل هو يمتد الى الماضـــي

---

1 - الروايـــة . ص : 122 .

حيث نجد موقفي الأخوين صالح وعلاوة ،موقفين مختلفين فقد اختار الأول الكفاح المسلح ،واختار الثاني الهجرة .

أما القيم الاستبدادية ،فقد وظفها الكاتب خاصة في علاقة الآباء بالأبناء ،أو علاقة الجيل الماضي ،بالجيل الحاضر ،كما وظفها في علاقات الرجال بالنساء - العلاقات التقليدية في الريف والمدينة على حد سواء .

بينما وظف القيم الاسلامية في النوازع الأخلاقية عامة ،فنجد مثلا نصيرة ونعيمة ورضا مستقيمين ،ونجد دليلة وعمر وشبابا كثيرا منحرفين .

والواقع أن هذا التمزق سيظل ملحوظا ، لأن التيارات جميعا تجد فرصة الظهور في الخطاب الرسمي ، الى الآن ،والى أن يحدث فرز ،وثورة ثقافية جذرية ،تواكب ثورة العدل الاجتماعي تظهر الجزائر في سمتها السائدة ، وتنحسر السمات الأخرى الى سمات ثانوية .

هذه المرة الأولى التي يصور فيها الكاتب نموذج المرأة المناضلة من أجل تحقيق الاشتراكية .

ولنا في هذا المجال صورتان ،صورة نعيمة الريفية ،وصورة نصيرة المدنية التي ندرسها في مكانها المحدد .

وصورة نعيمة تبدو ذات مرتبة ثانية في الظاهر ،ولكنها في الواقع كنموذج لتحقيق الاشتراكية تحتل حيزا أكبر ،اذ أن المواقف النضالية لشخصيات أخرى في الرواية تكملها ،كشخصية نصيرة التي تعمل على توجيه دليلة ،وشخصية رضا التي تعمل على تعميق وعي نعيمة نفسها ،وشخصية العمال المضربين الذين ينجحون في تحقيق مطالبهم ،باقالة المدير عمر ، واعادة نشاط الفرع النقابي

بالمؤسسة الى مبراه ، وكالماطلة الجبية التي تشارك في اجتماعات الميثاق الوطني مطالبة بتأميم الحمامات ،كما اممت الاراضي ،لانها مؤسسات مستغلة ،وموقف "عاملين" في نفس المناقشات حيث فضح الأول استغلال الطبقة الثرية للطبقة الكادحة ،وطالب الثاني بتطبيق مبدأ من أين لك هذا على أثرياء الاستقلال ، وأتى بقائمة لهم على ان يسلمها للحكومة امام الشعب .

وقد أعطى الكاتب للمناضلين من أجل تحقيق الاشتراكية أسلوب عمل مزدوج مباشر ،وغير مباشر .

وهذا الأسلوب المرن سبق أن منحه لعدد من شخصياته التي تجمع بين الاصلاح والثورة ،كما لك في "ريح الجنوب" ،"والبشير" في نهاية الأمس ، والأحمر وغيره في "الجازية والدراويش" من بعد .

هذا الأسلوب الذي يسمح باصلاح النظام من الداخل أحيانا ،والضغط عليه من الخارج أحيانا أخرى ،ليتلاءم ويتعدل بحسب الأهداف المرجوة منه .

بل أن النظام نفسه استعمل الديمقراطية المباشرة في مناقشات ميثاق 1976 .

ويبدو أن نعيمة بدأت تألف اسلوب النضال هذا وتتمرن عليه .

ومصير نعيمة ،مصير مأساوي من ناحية انقطاعها عن الدراسة الجامعية ولكنه ليس مصيرا نهائيا .

والمؤكد أن نعيمة قد صممت على مواصلة النضال ،تصميما كبيرا ،وان والدها ،قد تغير بفعل الحادثة ،وهي بعد ان ترتاح من أثر الصدمة ستفكر فيما تفعل،وليس من المستبعد ان يجد الحل المناسب للمشكلة ،وقد زالت كل

الحواجز التقليدية بينهما ،فمنظور المستقبل هنا يشير الى تحالف المجاهدين ، الممثلين لثورة التحرير بالأمس ،بأبنائهم الطلبة الممثلين للثورة الاشتراكية اليوم .

نصيرة هي النموذج الثاني للمرأة المناضلة من أجل تحقيق الاشتراكية في رواية " بان الصبح " .

ويمكن ان تعد تعميقا لصورة نعيمة ،فقد قطعت نصيرة شوطا في مجال النضال ، وتعددت نشاطاتها فلم تقتصر على التطوع لصالح الثورة الزراعية ، أو المشاركة في مناقشات الميثاق ،بل تعدت ذلك الى تجنيد عناصر ثورية جديدة - كما تفعل مع دليلة - ،وتجنيد العمال في الاطار النقابي ، وتنظيم الاضرابات والمطالبات ،واقالة المسيرين الفاسدين ،وهي مهمات أصعب كما يبدو .

وحوارها يوحي بقدرتها على الاقناع ،وهي مع دليلة المستفزة العدوانية والسكرى ، والمصدومة ،وذات الموروث البرجوازي ،تعرض آراءها المخالفة لهما في هدوء واتزان ،كالمدافعة عنها دفاعا ذا منطق قوي ،دون حاجة الى مهاجمة آراء دليلة المناقضة ،وهذه المرونة ،وهذا التوجيه الخفي ،قد أثرا على دليلة الى درجة كبيرة .

وقد أدى نضال نصيرة وغيرها من المناضلين " الى طرد عمر من المؤسسة التي يديرها والى تحقيق مطالب العمال ،وبذلك بان الصبح على الصعيد الاجتماعي بعد ان بدت تباشيره في ريح الجنوب ونهاية الأمس"(1) ، ولجوء دليلة الى نصيرة يعزز ذلك طبعا .

---

1 - السيد عطية أبو النجا ،عالم الفكر . ص : 282 .

صورة من نموذج للامهات الزوجات اللواتي يهربن من مواجهة المشاكل الحقيقية لانهن عاجزات عن حلها ،ويلجأن الى افتعال مشاكل أخرى ،يحققن بها بعض التنفيس والانتقام .

فمنى متيقنة من انحراف زوجها وبراءة نعيمة ،ولكنها تريد أن تشفي غليلها من هذه الأسرة التي لقيت فيها استبدادا وظلما ،وتحوز بعض المكانة ، حين تهبط الفضيحة بأفراد الاسرة الذين كان يظن بهم السمو ،حقيقة أو نفاقا .

فالفضيحة كانت أطرافها الثلاثة ،نعيمة ظلما ، وعمر المعتدي ، ومنى نفسها ،لأن نشاز زوجها لم يكن معروفا من الكل ،ونشازه يعني بشكل أو آخر فشلها معه ،الذي لم تسع يوما الى اظهاره الا بعد ان يئست من صلاحه تماما ،وبذلك فهي لم تخسر في تلك الفضيحة الا عجرفته ونفاقه ،وضميرها الذي مات لحظة رمت نعيمة بما ليس فيها ،وتسببت في انقطاعها عن الدراسة ولو تسرع الوالد ،لكانت أحد الأسباب في قتلها .

ومقابلة الشر بالشر حتى وان اقتضى ذلك المساس بالأبرياء ،رأينا له في " ريح الجنوب " مثلا ،فالقرية يوم الاستقلال بنسائها ورجالها لم تكتف بقتل رابح العميل لفرنسا ،بل نالت من عائلته بمحاولة طردها ،ثم باستغلالها بعد ان استعصت عن الطرد ،ونبذها ،حتى أن الموت كحقيقة كبرى تخشع لها النفوس ،لم يرد أغلب الرجال ولا النساء عن بغيهم ،ولم يحضروا حتى الى مأتم الطفلة فريدة .

لا تتعدى صورة المرأة الارستوقراطية . بعض اللقطات ،للفروس دنيا بنت بن عبد الجليل ،في عرسها ،ولأختها الكبرى فتيحة ،وأختها الصغرى وهيبة،وهن ليست لديهن أية مشاكل جدية ولا يمثلن شخصياتهن بقدر ما يمثلن ابقتهن ،وما اكتسبته من امتيازات " اندهش مراد من ثراء أسرة بن عبد الحليل ،البادي في " الفيلا " الفخمة ، في الحديقة الغناء ،في الباحة ،في لوحتها الاثرية الرومانية ،في الفسيفساء المحيطة بها ،في الأواني الفضية والخزفية الممتازة التي قدمت فيها المشروبات والحلواء . في الملابس الرفيعة التي تلبسها نساء هذه العائلة اللائي كن يتنقلن بين المدعوين والمدعوات ،بلا حجاب ولا تحرز "(1).

وزواجهن ،زواج يرمز الى دعم هذه الطبقة ،باطارات من الدولة ، فدنيا قد تزوجت حسن نائب وكيل الجمهورية ،وفتيحة تزوج لاشاعة مفادها أنها ستزوج بضابط في الطيران ،ووهيبة قبل مراد بن خليل الجراح الزواج منها .

صورة المرأة الكادحة صورة ثانوية جدا ،لا تتجاوز اللقطات السريعة ،التي تشمل ثلاث نساء . خديجة الطيابة أم المحامد وزهيبة الطيابة وعويشة التي سيصيها كريمو فاطمة على عادة الفرنسيين .

أما عويشة فهي خاضعة للاستلاب ،وهي من أجل لقمة العيش ترى الانحطاط في ابشع صوره ،في شقة كريمو ولا تنطق ببنت شفة ،اذ تحولت الى مجرد أداة فقط في يد الطبقة الثرية ،وفقدت أبعادها الانسانية الاخرى .

---

1 - الروايـة . ص : 257 .

أما خديجة فمتمردة ،تسلق بلسانها الحاد ، زبونات الحمام ،اللواتي تعلم ماضيهن وماضي أسرهن الشائن اثناء الثورة التحريرية ،ولهذا تطردها صاحبة الحمام ،كتاجرة لا يهمها الا الربح المادي الذي يأتيها أما الزبونات ، فما دمن يدفعن الثمن ،فليكن شوريات أو خائنات ،فذلك لا يهم .

أما ذهبية فتحاول أن تناضل وتتناول الكلمة خلال مناقشات الميثاق وتطالب بتأميم الحمامات وبالقضاء على الاستغلال .

وهكذا نجد هذه الصورة تجسد نموذجا لمواقف من الاستلاب الطبقي ،تتدرج من الخضوع الى التمرد ،الى الثورة .

الخصائص الفنية

في هذه الرواية، يتابع ابن هدوقة، التأريخ لتطور المجتمع الجزائري، من خلال فترة لاحقة للفترتين المتتابعتين المتناولتين في" ريح الجنوب،" و" نهاية الأمس"، انها فترة ربيع 1976 م أثناء مناقشات المشروع التمهيدي للميثاق الوطني .

وهو يؤرخ هذه المرة في اطار المدينة " الجزائر العاصمة"، لا في اطار الريف، كما عهدنا منه ذلك .

وبناء الرواية يتكون من عدد من القصص المتشابكة في لحمة تاريخية توحدها، وهناك قصص أسر، وقصص تنظيمات، وقصص أشخاص، وتسير هذه القصص، كأنهار تصب في بحر واحد، وتتميز مصائرها بالتنوع، ونهاياتها بالانفتاح .

وهذا البناء " بناء تلفزيوني، يتكون من أربعة عشر حلقة أو فصل ولا يكثر الرجوع للماضي فيه، وليس هناك غير الشيخ علاوة وحده الذي له ماض مكشف "(1) .

والحوار هو الأسلوب السائد في الرواية، يتخلله السرد الخفيف، والحوار الداخلي الخفيف أيضا .

ويكاد الكاتب يكف عن أي تدخل مباشر، اللهم الا اذا أراد المرور بحدث مامرا سريعا وتجاوزه أو استبطان شخصية، أو وصف مكان أو شيء.

---

1 - من مقابلتي الثانية للكاتب .



وقد يمزج الكاتب بين العرض الخاطف للحدث واستبطان الشخصية ،ووصف شيء ،فينجح نجاحا كبيرا .

يقول الكاتب : "انطلقت بهما السيارة من جديد ،عائدة الى الدار كانت نعيمة غير قادرة على الحديث ، بالرغم من المحاولات المتعددة من طرف أبيها لجرها له كانت الدهشة والسرور والحزن وعواطف أخرى كثيرة تحتمل في نفسها ،وكان عليها أن ترتب أفكارها وتعيد الى نفسها تنظيمها المنطقي قبل كل شيء آخر ،وذلك لا يتأتى الا بالراحة ،وفعلا نفذ صالح ما صرح به ، فأقام حفلا دعا له أحبابه وعشيرته وكان في كل مرة يسأل عن المناسبة يجيب : الفرح لا يحتاج الى مناسبة "(1) .

ففي هذا النص مرور سريع برجوع نعيمة من مدينة تيزي وزو بعد الفحص الطبي ،وبراءتها من تهمة الحمل ،واستبطان لشخصيتها المضطربة آنذاك ، ثم عرض لعادة ريفية ايجابية ، وفي هذا التلوين ما فيه من حركة رشيقة مؤثرة حتى ولو كانت سردا .

والى جانب هذه الموضوعية في السرد ،هناك موضوعية سرد المواقف ،التي تجعل من الصعب على القارئ أن ينفذ الى نظرة الكاتب الا بعد جهد جهيد ، الى درجة(2) أن هناك من رأى أن الكاتب يتعاطف مع دليلة بينما هو لم يتعمد في الحقيقة أن قدم مالها وما عليها ،حيث تبدو ضحية لها أعذارها ، وفي نفس الوقت لها مسؤوليتها وأخطاؤها .

* * *

لم يحتج الكاتب الى استعمال الحوار الداخلي في الرواية الا قليلا ، لأن الشخصيات الروائية ،تجد في تشعب علاقاتها مجالا للتصريح والتنفيس ، فاذا

---

1 - الرواية . ص : 221 - 222 .
2 - محمد زتيلي رواية بان الصبح شخوص الرواية . جريدة الشعب . ص : 11 .

كانت الضغوط الاجتماعية في الأسرة مثلا عند دليلة تمنعها من بث لواعجها فانها خارج الأسرة، تتوسع في ذلك عن طريق الحوار مع الآخرين، وعلـــم جـــرا .

ولذلك، فهي لا تنوء بما في داخلها الا في أجواء وأماكن محددة، حيـــث تستشعر غربتها فتحدث نفسها .

وفي محطة الحافلة يجد الشيخ علاوة محاورين مناصرين، ومضاديـــن، فيتحفظ في التعبير عن مشاعره الكامنة، ولكنه في داخله يغلي غليانا رهيبـــا وكان يردد في نفسه " هؤلاء ليسوا عمالا، ليسوا آباء، ولا أبناء، ولا حتى بشرا . هم ملاحدة أو باش، نشالون، هم اشتراكيون ! يشتركون في كل شيء حتى فـي حلائلهم !" (1) .

ويقول " لماذا كافحنا اذن ؟ لماذا تعذبنا ألنصير اشتراكيين ؟الاستعمار على الاقل كان يحترم نفسه ودينه وهؤلاء ماذا يحترمون ؟ أي شيء هم ؟ من أي جنس ؟ بل من أين خرجوا هكذا فجأة باشتراكيتهم وميثاقهم ؟ يا الا هي(2)

وفي هذا الحوار الداخلي يتجسد حقد ورفض الشيخ علاوة للاشتراكيـــة حقد يبلغ أقصى الدرجات بحيث لا يتورع عن تجريد الاشتراكيين من الأخلاق والدين وحتى الانسانية، بل ويصل به الأمر الى تفضيل الاستعمار .

وقد نجح الكاتب في كشف أعماق الشخصية بهذا الأسلوب خاصة وأن شخصية الشيخ الظاهرة تحاول أن تجد لها وقارا، ومنطقا، عبر الرواية كلها متخذة من الدين ستارا زائفا .

---

1 - الروايـة . ص : 30 .
2 - الروايـة . ص : 31 .

وهناك نوع آخر من الحوار الداخلي لا يزيد عن لقطة واحدة ،استعمله الكاتب ، كرد فعل سريع للشخصية على ما حولها .

وشخصية دليلة خاصة التي لا تتميز بالتأمل العميق تتلاءم مع هذا النوع القصير من الحوار الداخلي ، تقول دليلة " عندما أفجر البركان ،أقول " للجنرال " ،(تعني أباها) شربت الويسكي قبالة الجامع"(1).

وتقول " ترى ماذا يريد مني هذا الرجل ؟ هل باطنه كظاهره أم هو " غرفة أخرى في " قصبة " لا أعرفها بعد "(2).

ففي الحوار الأول تعبرعن تجذر التحدي في أعماقها ،للأب ، الذي كان بداية البدايات في سقوطها ، وفي الحوار الثاني ،تعبر عن تزعزع ثقتها بمن حولها .

وفي مجال استبطان الشخصية يعبر ابن هدوقة بالصورة ، يقول :" أقلعت سيارة أخيها الأكبر الذي يصاحب أباه الى ساحة الشهداء عندما ينزل صبكرا ،ومن هناك يتوجه الى عمله ،فقالت في نفسها :" لو كنت سيارة لا تجمعت في خط مستقيم ..." لكن الخاطرة لم تكن موفقة ،فاستدركت وما الفائدة ؟ أتحطم لأول عارض"(3).

ويقول أيضا " اذهب الى الشيطان لم أعد " بسيشي" الساذجة ! ورفعت كأس الويسكي الى شفتيها واذا بها ترى ذبابة سقطت فيها فخاطبتها متهكمة ،هل الويسكي هو الذي أغراك فأغرقك ،أم أنت التي أحببت الانغماس؟ وتراءت لها الذبابة من وراء الزجاج الداكن فاقدة للحركة ".(4)

---

1 - الروايــــة . ص : 307 .
2 - الروايــــة . ص : 313 .
3 - الروايــــة . ص : 7 .
4 - الروايــــة . ص : 82 .

أما الصورة الأولى فتعبر عن رغبة دليلة في التغير السريع ، والنتائج المدمرة لهذه الرغبة ، وأما الصورة الثانية فتعبر عن السقوط وعن حمو ارادي ،أم بفعل عوامل خارجية .

وهذه المعاني وغيرها مما يوردها الكاتب تسمح بفهمها فهما واسعا حيث تصير تعبيرات نموذجية يلتحم فيها الخاص بالعام ،والواقع ،بالرمز .

* * *

وظف الكاتب الحوار توظيفا عريضا ،تقتضيه طبيعة العلاقات الاجتماعية المعقدة في المدينة وطبيعة البطولة الجماعية التي اعتمدها .

وبواسطته قدم أغلب الشخصيات ،وجعله وعاء لمختلف القضايا .

وقدمت شخصية دليلة بواسطته ،قصيرا وطويلا ، قصيرا يعكس علاقتها الهشة بأسرتها ،ويخفي حقيقتها عنها ؛وطويلا مع كريمو ،حيث ناقشت معه حملها غير الشرعي منه ،محاولة اقناعه والتأثير عليه لاتمام الزواج .

وقد أبرز هذا الحوار الموقع الطبقي للشخصيتين ،وتأثيره فيهما ،وأبرز التعفن البرجوازي عند كريمو ،وأبرز التذبذب عند دليلة .

ومع نصيرة أيضا تحاورت دليلة حوارا طويلا (1) حوارا أيديولوجيا فيه عمق وقوة وتكامل في النظرة عند نصيرة المؤمنة بالاشتراكية والمتمسكة بالأخلاق ،وفيه تناقض وتذبذب وضعف ،وسخرية ، واندفاع عند دليلة الممزقة بين ارث برجوازي ثقيل ،وتطلع للنقيض .

وهو مع نصيرة يتسم بالتركيز على الجانب السياسي ،وتلوينه تلوينا خفيفا بالجوانب الأخرى ،أما عند دليلة ،فان الجانب السياسي ،يأتي في الدرجة الثانية

---

1 - الرواية من . ص : 85 الى 101 ، ومن .ص : 179 الى 202 .

بعد الجانب الجنسي .

وبواسطة الحوار قدمت مناقشات الميثاق الوطني ،وكشفت عن المستويات الواقعية الجديدة للشخصيات، فكريا ،ولغويا ،وطبقيا .

وأثناء ذلك دار حوار مواز طويل أيضا بين نعيمة ورضا اللذين حضرا الاجتماع.

وعالجت المناقشات مسألة اللغة العربية بين أنصارها وأعدائها ،ومسألة النظام الاشتراكي ،والحريات الديمقراطية ،والملكية الكبيرة والصغيرة .

وكان رضا ونعيمة يعلقان على كل ذلك ،فبدا رضا من خلال الحوار محدد الانتماء تقريبا ،وهادئا ،بينما بدت نعيمة في طور التكوين ومتحمسة.

وفي السهرات العائلية ،لعائلة الشيخ ،كشف الحوار عن العلاقات المتوترة ،وعن الاستبداد ورفضه ، ولذا فقد جاء الحوار فيها أقرب الى الخصوصات في الغالب .

ومن خلال حوار هذه السهرات عولجت الحياة اليومية والعامة لأفراد الأسرة ،وقد نال موضوع ارتباط الأسرة بالطبقة البرجوازية الكومبرادورية ،حصة الأسد ،من بين مواضيع أخرى ،كصراع عمر مع العمال ، وانتماء رضا ،ولاأخلاقية عمر ،وبطريق الايحاء فقط تنوول هذا الموضوع ،... الخ .

* * *

اختار الكاتب شخصيات يلتحم فيها النموذجي بالخاص ،نماذج تتوزع على التيارين المتصارعين ،في الواقع ،عن وعي أو بعفوية ،التيار المشدود الى الاتجاه الليبرالي بالدرجة الأولى ،وان ظل مشدودا الى اتجاهات أخرى ،والتيار الآخر المشدود الى الاتجاه الاشتراكي ،وقد جعله الكاتب أكثر أصالة من الأول مع التنويع في الخصائص الفردية ، وبذلك جاءت الشخصيات نابضة بالحياة

وملفتة للنظر .

وقد تدعمت تقنية البطولة الجماعية في الرواية بتقديم حشد هائل من الشخصيات ،شخصيات أربعة أسر،أسرة الشيخ ،وأسرة صالح ،وأسرة بن عبد الجليل ،وأسرة نصيرة ،الى جانب الشخصيات العديدة التي ظهرت من خلال مناقشات المشروع التمهيدي للميثاق الوطني ،وقد قدمها الكاتب على ثلاث مرات ،مرتين في أسلوب الرجوع الى الوراء عند شخصية الشيخ ،و مرة عن طريق تقديم الاجتماع الذي حضرته نعيمة ورضا في مدرسة الحي ،علاوة على الشخصيات الأخرى التي تتصل بهذه في اطار العلاقات العامة .

والكاتب يبرز شخصياته ،وان كانت بسيطة ذات صفة واحدة ،كشخصية المحتال في القصبة .

والشخصيات المركبة كثيرة ،حيث تقدم من جوانب عديدة ،يصعب معها تحديد الصفة السائدة لديها ،وقد أشرنا الى التمزق العام سابقا وأهم هذه الشخصيات دليلة ،ومراد ،وكلثوم .

كما أن الشخصيات النامية هي الأخرى كثيرة ،فدليلة ،تمر بتجارب عديدة ،تجعلها تبدأ في التغير ،ومراد يتحول من مدافع عن الحب المجاني والضمير المهني ،الى العكس عند اعجابه بوهيبة بنت ابن عبد الجليل ،والعجوز كلثوم ،تتغير من امرأة طيبة الى امرأة شريرة .

كما أن الشخصية المسطحة ليست قليلة ،فكريمو يتحكم فيه وعيه البرجوازي من البداية الى النهاية ،وكذلك الشيخ علاوة ،وعمر ، وعلى العكس من هؤلاء ، نصيرة ، ورضا ،بحيث يثبتان على المبادئ الاشتراكية أيضا .

وهذا الثبات ،هو ثبات على الصراع ،وهو ليس عيبا فنيا بقدر ما هو ميزة

فنية تنقل قوة الصراع وصيرورته ،حيث تؤثر الأحداث على مصائر الشخصيات بينما يظل الوعي ثابتا .

وكثير من الشخصيات في الرواية ،تبدو ايجابية في تحقيق ما تريـــد ، لا تردها الهزائم المستمرة عن المضي ،فهي قد تصحح وسائلها ، وقد تحيـد النظر في أهدافها ،ولكنها لا تنثني الى الوراء .

فالشيخ علاوة رغم هزيمته السياسية ،يظل يطارد حلم الصعـود الطبقي ،وعمر أيضا هو الآخر ،رغم عزله عن ادارة المؤسسة ظل يهـدد ويتوعد ، ويعمل على عرقلة تسويق انتاج المؤسسة ، ونصيرة رغم المضايقـات الكثيرة التي تمر بها في نضالها ،فهي تمضي على طريقها ،وكذلك رضا .

* * *

يواصل الكاتب توظيف الأسلوب المتصل بالتراث والتقاليد ، ويتخذه عامة لنقد الطبقات وخاصة الطبقة البرجوازية الكومبرادورية ،بينما يقل ابراز الجوانب الايجابية .

ويكشف هذا الأسلوب عن عادات مركبة ،من المحلي ، والاسلامي ،والأوروبي والعالمي .

وقد أبرز هذا الخليط أثناء تصوير زفاف بنت بن عبد الجليل صاحـب مصانع البلاستيك بالحراش ،هذا الخليط الذي يعكس عادات وتقاليد في طور التشكيـل .

قدم الكاتب الغناء : الأندلسي ،والرقص على موسيقى الجاز ،والسفـور واللباس الأوروبي ،والحجاب واللباس التقليدي ،واعتماد شخص يلقى خطبـة الزواج ،بنص خطبة زواج عائشة أم المؤمنين بالرسول (ص) وسقي الخمر سـرا ،

واستعمال ؟ وأواني الفضة المحرمة في الاسلام ،وتقاليد حمام العروس الباذخة وأنواع الطعام الفاخرة ،وتخصيص أصحاب النفوذ والمال بأمسية خاصة عدا الحفل العام ،وتخصيص شبابهم من الذكور ،بأموال طائلة تكفل لهم شقق عزوبة خاصة ،وامتلاك تجهيزات ضخمة ،كاستوديوهات تحميض الصور ،وتأجير من ينفذ بعض مهماتهم ،وقدم هواية جمع الصور البورنوغرافية ، وكذا تجارة الرقيق السوداء .

ومن جملة وصف الامسية الخاصة نقتطف مايلي : " والتقى الحضور في تلك السماوات العلى من الفن الاندلسي بالماضي روحا لروح كما تصوره لهم أخيلتهم وجالسوا في تلك اللحظات القصار الخارجة عن الزمن ملوك الاندلس في أبهاء قصورهم ،حيث الحور العين تتثنى بين أيديهم في رشاقة وخفة ،يضاحكنهم ويداعبنهم بالكلمات الحلوة تنسي الهزائم وتنسي الدسائس التي أخذت تنخر ملكهم . ويقدمن لهم بين الكلمات كؤوسا دافقات" (1) .

فهذا وصف موح لا يقف عند الشيء الموصوف ،وانما ينفذ الى أشياء أخرى ،بفضل العلاقة التاريخية وتداعي الافكار .

والامسية بمظاهر ترفها ،توحي بأجواء السقوط الاندلسية ،وبحتمية انهيار الطبقة البرجوازية الكومبرادورية .

* * *

ولا تطغى الستاتيكية على الرواية كما قد يعتقد البعض (2) بل العكس هو الصحيح (3) .

---

1 - الرواية . ص : 205 .
2 - مخلوف عامر تجارب قصيرة وقضايا كبيرة ، ص : 48 .
3 - سعيدة هوارة الواقعية في روايات عبد الحميد بن هدوقة الطاهر وطار ،ص: 56 .

وتوظيف البطولة الجماعية ، والحوار الخارجي كأسلوب أساسي ،والحوار الداخلي ،دليل على ذلك .

والطبيعة الأحداث والبيئة والشخصيات دخل أيضا .

فالأحداث في جوانبها العامة والخاصة ،تتصف بالأهمية ،وبالتنـوع وبالغزارة ،وبالحدة وتسير ،مترابطة ،حينا ومتوازية حينا آخر .

فالصراع السياسي قد قدم من جوانب متعددة ،صراع من أجل بنـاء الاشتراكية وصراع مضاد برجوازي كومبرادوري .

وقد عرض الكاتب مناقشات الميثاق ونشاط الطرفين ،ومنافسة القطـاع الخاص للقطاع العام ،حيث اختلاس أموال الدولة والوقوف ضد التنظيم النقابي وتطويع جهاز الدولة للمخططات البرجوازية بواسطة شبكة مدروسة مـن الوساطات وعرقلة تسويق الانتاج العام ،وتجارة الرقيق السوداء العالمية .

وقدم النشاط الطلابي ،والتطوع لصالح الثورة الزراعية ،والنشـاط الطلابي المضاد حيث يسيطر كريمو على مجموعة من الطلبة ،يشاركها فـي ممارسات طفيلية لا أخلاقية .

وهناك نفس الثراء على مستوى الجوانب النفسية ،حيث المشاعر الخائبـة والمكبوتة ،والغرائز المنطلقة ،وألوان من الحب والكراهية .

والجانب الأخلاقي لم تخل منه الرواية ،وان عولج بالايحاء والرمـز أكثر مما عولج بوسائل أخرى .

والبيئة متنوعة ،لها ايقاعاتها الخاصة المتميزة ،من بيئة الى أخـرى فهناك حركة البيوت ،والشوارع ،والمحطات ،والسيارات ،والحافلات ،والمطاعم

والشواطئ ، والجامعات والأحياء الشعبية .

وأغلب الشخصيات ذات طبيعة ايجابية ،تتحرك من أجل تنفيذ مهماتها والدفاع عن أهدافها ، وتعطي للرواية حيوية فائقة .

وتتداخل الأحداث والبيئة والشخصية لتصور حركة الرواية ،ففي الفصل الأول التمهيدي نرى مثلا انبثاق حدثين هامين ،الشيخ علاوة وذهابه الى المناقشات بنظرة سياسية برجوازية محددة ،ودليلة وذهابها الى كريمو لتناقشه في حملها غير الشرعي منه ،هذان الحدثان اللذان ينقلان القارئ من جو البيت الى الشارع ،وينقلان الشخصيتين الروائيتين الى الاحتكاك بشخصيات أخرى .

وفي هذا الفصل أشار الكاتب الى هذين الحدثين دون تفصيل وذلك مما يشوق القارئ بينما أفاض في تصوير معالم البيئة ،بما ينبض فيها من شخصيات أخرى ،بيدأ في عرض علاقاتها ،مع شخصيتي دليلة والشيخ ،وبينما يطيل في هذا الجانب بما يتصل وشخصية دليلة ،فانه على العكس يقبض فيما يتصل وشخصية الشيخ .

وهكذا يربط الكاتب الايقاع ،بحركة تتراوح بين السرعة والبطء وينوع في الأسلوب ،بقصر الجمل وطولها ،وبسط الصورة ،احيانا والاقتصار على لمحات منها أحيانا أخرى والاعتماد على موسيقي الجمل الملائمة لايقاع الحوادث.

وهذا التوزيع الحركي ،ظاهر في اللغة التي جاءت بمستويات واقعية بالنسبة للأشخاص والبيئة والأحداث .

وقد لاحظت دليلة مثلا ،هذا التميز في اللغة في حي القصبة الشعبي " واذ رآها مقبلة بائع السمك المتجول صاح مناديا : " سردين خشين"

فقالت في نفسها علي أن أعد نفسي لتعلم مصطلحات وأنماطا أخر ..."
ولم تكتمل الجملة في نفسها حتى صاح طفل يبيع السقائر : شيقارجافانه راه ممنا ،يا اللي تدخنين السيقار"(1)

وفي النص لغة دارجة ،يستعملها الكاتب ،استعمالا قليلا لتصوير البيئة الشعبية ،لغة تجارية ، تجذب الزبائن ،بأنواع وصفات البضائع ،وبجملها القصيرة الرنانة ،ومعانيها الواضحة .

وتكفي مثل هذه الجملة القصيرة مثلا لتضع القارئ في جو السوق

ويجيد الكاتب توظيف اللغة الشعبية ،بمضامينها ،وقوالبها ، وقد عرضها على لسان صاحبة الحمام باية ، وبين كريمو ودليلة في أجزاء من الحوار ،وبين دليلة وأحد الشباب .

وهي لغة تتميز بالسخرية المرة ،والمبالغة ،لنقلها لمشاعر ومواقف انفعالية متطرفة ،تبعد بالشخصية عن المنطق المألوف ،وفيها قوالب شعبية احتفظت بطاقتها التعبيرية ،وفيها بذاءة .

يقول الكاتب "لا دليلة ،لا زبيدة ،لا رضا ،لا حتى مراد استطاعوا اسكاتها وادخالها الى غرفتها انطلقت تزمجر ،تدمدم ،تقذف بحمم لعناتها المستقبحة على نعيمة ،لم تترك لها جانبا لم تثلبه ،رمتها بالفجور ،بالنفاق بالنذالة ،بالتآمر ،بالجشع ،بالوسخ (عاملة الحمام تذمرت من وسخها وقالت لم تر مثلها في حياتها . وسمتها بالجهل ،بالغباء ،بالاعوجاج اذا نامت نومها غطيط ،اذا مشت كالسلحفاة ،اذا أكلت أقدام مساجين في وحل ،اذا شربت فقرقرة قوارير ،اذا ضحكت قهقهت ،لباسها لباس غجريات"(2).

---

1 - الروايـــــة . ص : 295 .
2 -الروايـــــة . ص : 271

* * *

ويوالف الكاتب أسلوب المبالغة ،مرتبطا بشخصية دليلة الانفعالية في الطبع والنظرة ،وغير المتوازنة .

وينجح أحيانا في تقوية المعنى المراد بالمبالغة نجاحا كبيرا .

والنص التالي مثلا يعكس بعد دليلة عن الواقع ،حتى في تأملاتهـا ففي أحد المطاعم " ترى موائد الأكل حواليها كلها تقريبا عليها مشروبات كحولية ونبيذية ... وقالت في نفسها وهي ترى ذلك :"أبي وحده الذي لا يشرب الخمر في العاصمة "(1).

وفي حوارها مع كريمو نقتطف مايلي " ماذا تقول ،لو ألد لك سيارة ... ميرسيدس أو 604 أو سيارة أخرى ضخمة تناسب مقام العائلة ؟ عندئـذ ترتاح ويرتاح أبوك من شراء الفرنك الفرنسي بدينارين ! في كل تسعة أشهـر ألد لك سيارة ... طبعا تقودني حالا الى دار القاضي حينئذ لنتعاقد ، لأن الاجهاض يلد سيارة غير كاملة التكوين "(2).

والنص أقوى ما يكون في التعبير عن ادراك معنى الصراع الطبقي .

وتأتي المبالغة عند دليلة أحيانا في صورة عبثية ،تؤدي عكس ما أرادته من معنى .

جاء في حوارها مع نصيرة " ... ان البواخر يتنقلن بارادة ربا بنتهـن ، والنساء بارادة الرجال ... في مجتمعنا على الأقل ... ثم قلت في نفسي

---

1 - الروايـــة . ص : 304 .

2 - الروايـــة . ص : 80 .

أن النساءهن اللائي يحبلين ،لكن بقاءهن بالبيت لا يجعلهن مرضة للناظر في كل مكان وهن حبالى ثم قلت ،لوكان الرجل هو الذي يحبل بدل المرأة كيف تصير الجزائر ؟

ضحكت نصيرة ضحكا عاليا وقالت .

- ان لك أحيانا بعض التعابير! . . .

- لا تضحكي . . . استمعي الي . فكري في ضيق شوارع الجزائر والتوائها وصعودها وهبوطها ،فكري في الديمغرافية التي نحن فيها . . . ثم في خضم كل ذلك تخيلي الرجال من سن الرابعة عشرة الى سن السبعين ،لأن الرجال على ما يظهر يلدون حتى في سن السبعين! تخيليهم حاملين ،هذا في ثلاثة أشهر ،وذلك في خمسة ،والآخر في الثامن الخ . . . لأن قبل ثلاثة أشهر لا يظهر الحمل على ما أظن (تفكر في نفسها) ...ثم من كل ذلك ،حاولي أن تتخيلي مشهدا عاما في أي نهج أو شارع أو ساحة من الجزائر . . . انك يقينا لترين مشهدا فذا لم يخطر على فكر بشر! لأن الرجال لا يستطيعون البقاء بالبيت (1) .

ان المبالغة عموما قد جاءت فنية لنجاحها في تصوير أبعاد الشخصية من بعد عن الواقع أحيانا ، ومن وعي طبقي ،ومن سقوط في العبثية أحيانا أخرى .

* * *

يوظف الكاتب أسلوب السخرية ،مرتبطا أيضا بشخصية دليلة ،وهي في سخريتها لا ترحم أحدا ،ولا حتى نفسها ،وفي ذلك أعمق تعبير عن رفض كل شيء والاستهتار بكل شيء تقريبا ،ووحده المشكل الذي وقعت فيه ،الذي

---

1 - الرواية . ص : 182 .

بدأ يسمها بشيء من الجدية ، وروح المسؤولية .

وها هي مثلا في رفضها الساخر ،لوصاية الأم . "مع من كنت تتكلمـــين يا طفلة .

فردت ساخـرة

- صباح الخير " كومندان "!

- مع من كنت تتكلمين ؟ يكفي من المزاح !

- مع خالتي .

- من خالتك هذه أم تسخرين مني ؟

- خالتي هي خالتي ... ألانه ليس لك أخت فينبغي أن أبقى بدون خالة ؟

- متى تنتهي من هذه السخرية ؟ أتحسبين أنك مازلت صغيرة ؟ - أبدا "كومندان" أعرف جيدا أنني لست صغيرة بالمرة !

- معك لا يمكن الكلام ."(1)

---

1 - الروايـــــة . ص : 8 .

* * *

أ - رواية بان الصبح ،رواية موقف على غرار روايات عبد الحميد بن هدوقة ،كما أراها ،ولكنها تنفرد عمن سواها بنوع من الاتساع الرحيب من حيث تشعبات الموقف وأنواع الصراع ،وكثرة الأحداث والشخصيات .

ولعل واقع - مدينة الجزائر العاصمة - قد تطلب من الكاتب مثل هذا الاتساع ،لتصويره تصويرا صادقا حيا .

ومن خلال شخصية دليلة خاصة ،وشخصيات موازية لها ،طرح الكاتب موضوع التمزق الحضاري العام الذي تمر به الجزائر والعالم العربي والاسلامي والعالم الثالث عامة .

تمزق يفجر التناقضات تفجيرا ،يكون فيه الانسان أحيانا ضحية وجلادا في الوقت نفسه ويبعث الحيرة في الحكم عليه .

وفي هذه الرواية هناك من رأى أن الكاتب قد تعاطف مع دليلة،(1) وأنا أعتقد أنه أدانها ايضا يقول " ان الحرية ليست فوضى ،وارتكاب هفوة في مجتمع غير منسجم تفجير لغير صالح المرأة "(2).

لقد علل الكاتب أسباب تمرد دليلة تعليلا مقنعا في الرواية ،ولكنه جعل وسائلها وأهدافها متهافتة ،ومن هنا تأتي ادانته لها .

وقد قابلها بشخصيات مخالفة ،كنصيرة ، ونعيمة ،ورضا ،وعن طريقهم صور تيارا أخلاقيا حميدا يسير مع حركة النضال من أجل الاشتراكية .

وهو تيار يستمد أخلاقه من التجربة والعقل والفطرة أكثر مما يستمدها من الدين كما جاء في الرواية فهل يستبعد الكاتب الوازع الديني ،عند الشخصيات

---

1 - مخلوف عامر م ن، ص 46 .
2 - من مقابلتي الاولى للكاتب .

المدنية كلا ،ولكن من الملاحظ أنه يجعل الشخصيات المثقفة عامة والموالية للتغيير والثورة ، أقل اقبالا على الطقوس الدينية ،وأكثرها هروبا من مواضيع الوجود ،فالموت في الروايتين السابقتين قد أثارت أحاسيس وتأملات (نفيسة) و (مالك) و (البشير) ،ولكن الكاتب لم يترك لها المجال للنمو والتعمق، وفي هذه الرواية تأخر الاهتمام بالجانب الديني ،وظهر في جانبه السلبي فقط ، حيث تتخذه البرجوازية الكومبرادورية نفاقا ، ثوبا لها عند الحاجة فقط ،ويحاربه المتطلعون للثورة (كآراء الشباب في مناقشات الميثاق) .
وبذلك يأتي البديل ناقصا في نظري ،أو غير مكتمل .

وقد ظهر التمزق الحضاري مثلا في علاقة المرأة والرجل ،وظاهرة المغازلات والمطاردات المكشوفة من الرجال للنساء ،ظاهرة قدمتها الرواية تقديما كافيا ،وفي سنة 1976 التي أجرى فيها الروائي أحداثه ،كانت هذه الظاهرة واسعة النطاق ،وعلى كل ،فهي تمتد الى فترة ما بعد الاستقلال في الماضي ، حيث الاختلاط في التعلم والعمل لم يكن مألوفا لدى الجزائريين عامة قبل ذلك ،علاوة على أن الحرب قد خلقت أزمة ،اذ لم يكن هم الناس منصرفا في الغالب الا لمحاربة المستعمر ،فما كان هناك وقت للاشباع العاطفي أو الجنسي ،وكان الزواج يتم لارضاء الأهل أولا ،ولتجنيب العائلات ،حوادث الاغتصاب الاستعمارية الشنيعة للفتيات بالدرجة الأولى، وهكذا انعكس حرمان وفراغ الماضي على الحاضر" ان مستوى معيشة الفرد في الجزائر ارتفع عشر مرات أكثر على ما كان عليه ابان الاستقلال سواء في المدن أو الأرياف ،بينما لم يصاحب هذا التطور المادي ،تطورا في السلوك الحضاري ،انما أدى الى اكتشاف ما كان غائبا تحت أثقال الخصاصة والضيق بكل أنواعه" (1) .اذ بدأ الناس يتحسسون حرياتهم الشخصية من غير

---

1 - الرواية . ص : 113 .

انضباط ،وان خفت وطأة تلك الظاهرة حاليا فمشاكل الغزو الثقافي عبر مختلف الأجهزة والمؤسسات والسكن وسوء توزيعه غير العادل ،والانفجار الديمغرافي قد أفرزت ظواهر أعقد وأخطر ،منها البغاء ،اذ أصبح جسد المرأة سلعة تباع وتشترى .

وتلك تجارة برجوازية على أية حال ،سواء كانت سرية كما يحاول كريمو ممارستها في الرواية ،أو علنية . جاء في الحوار بين دليلة وكريمو مايلي "-.
...ان رجليك لم تعد تقوى على حملك واقفا لانك جبان !

- لو لم أكن جبانا لما تركتك هكذا ... لكنت دفعتك الى هاوية لا تخرجين منها أبدا !

- أي هاوية ؟ ترسلني الى فرنسا كما أرسلت غبيات قبلي"(1) .

فكريمو ينظم التغرير بالفتيات ،ويقودهن الى السقوط فهو من هواة جمع الصور (البورنوغرافية) وله استوديو خاص لتحميضها ،والظاهر أنه يستعملها كورقة رابحة أخيرة في حلقة غوايتهن ،فيقبلن تحت التهديد بالفضيحة ،مصائر البغايا ،بعيدا عن أهلهن في البلاد الأجنبية .

وكريمو محضر دليلة لدور مشبوه فهو يطلق لها العنان في علاقات جنسية مع الآخرين ، محتفظا بعلاقة أولى بها ، وموجها اياها الى رفض الزواج نهائيا واستمراء لحياة اباحية ،تخول له استعمالها كأداة طيعة وقت يشاء . وبعد أن فارقته أرسل أحد أعوانه اليها ،ليقنعها عن طريق غير مباشر ،بذلك النوع من الحياة ، وقد تأثرت دليلة فعلا .(2)

---

1 - الرواية . ص : 78 ،79 .
2 - الرواية . ص : 17 .

وأعتقد أن كريمو وما يلمكه من وسائل مادية ومعنوية ضخمة رمز للطبقة البرجوازية الكومبرادورية التي تمد نفسها لدور مريب مستقبلا ، ودليلة وأمثالها يعدون ليكونوا من أدواتها .

فجسد دليلة المستباح هو جسد الوطن ، وحملها غير الشرعي يمثل فعل الطبقة المذكورة التي تبحث عن انقلاب عام يعطيها مشروعية الميلاد .

وتجربة الجمهورية العربية المتحدة (مصر) أسطع مثال ، فبعد النظام الناصري ، ها هي مصر تمر بمرحلة تبعية مكشوفة .

ب - في الرواية يهدد الانحراف تطور المرأة والمجتمع .

وانحراف عمر ، في علاقاته الاثمة مع بعض الكاتبات في المؤسسة التي يديرها ، ومحاولة اعتدائه على ابنة عمه نعيمة ، نموذج لذلك حيث تضطر هذه الاخيرة الى قطع دراستها الجامعية .

والواقع ان السقوط الجنسي لبعض الرجال ، يضع النساء في مأزق ، فالرفض كثيرا ما يتسبب في العرقلة ، والخضوع كثيرا ما يؤدي الى رفع بعض النساء بما هو فوق طاقاتهن الحقيقية .

وهذا المشكل لم يوضع في النور بعد ، لأن نفوذ هؤلاء الرجال في الغالب يستطيع اظهار النساء الشريفات بمظهر المذنبات تعسفا ، فتكتفي هؤلاء بالرفض السلبي ، وان كانت طاقاتهن الخلاقة تعطل وتهدر ، وهناك أحداث مأساوية كثيرة لا تظهر على السطح لعدم نضج الجو العام لتقبلها وحلها عامة .

الفصـــــل الرابــــــع

صورة المرأة فـــــــي الـــجازية والدراويش .

ملخص الروايــــة :

الزمن الأول : يروى على لسان المتكلم ،السجين ،الذي يعود بذاكرته الى الأحداث الماضية التي قادته الى السجن ،وهو يستشعر نداء داخليا قويا من أجل المقاومة ،والى الوالد الذي أراد تزويجه بالجازية لئلا يتزوجها ابن الشامبيط ،والى الطالب الأحمر المتطوع الذي مات في سبيلها ،واتهامه هو بالقتل والى مبادلته اياها الحب من الصغر ،ورفضهما المدينة و المدنية الغربية ،وتفضيل بناء قرية جديدة ،تتجسد فيها رسالة الأجداد الشهداء، والى مشروع الشامبيط الذي رفضه السكان ،والى تذبذبه هو ،واصرار أخته حجيلة على فكرة القرية الجديدة ،غير قرية الشامبيط ،والى حب الجازية للأحمر ،لجرأته ،والى عدم خوف ابن الشامبيط من الجازية رغم رفضها لخطوبته .

الزمن الثاني : عايد الشاب المهاجر المثقف ابن السايح بو المحاين جاء ليسد الطريق على ابن الشامبيط ،لقيه الشامبيط، والراعي ،وسكان القرية وحكوا له بعض أخبار الجازية ،أما صديق أبيه الأخضر بن الحبايلي أيام الكفاح فأخذه الى بيته ،ولقي حجيلة التي رآها في العين ظانا أنها الجازية ،وقد أعجبته جرأتها .

الزمن الأول : تطوع الطلبة يراه كل جانب رؤية محددة . صافية ، البنت المتطوعة ،لم يقبل ايواءها الا الطيب لأنه مثقف ،وكان معها الأحمر الذي علقت به حجيلة ،الأخضر اختلف مع الأحمر حول انفراد صافية بالعمل النسوي ،أما هي فقبلت وكذا باقي الطلبة ،الطيب يقدره والده لأنه يطيعه ،لا أكثر الطويس قبلك بالجازية مع أخته ليظهر للخطبة ، ولكن [illegible] أخاف فأجل الموضوع ،الأحمر رأى صافية ،القرية، أقامت زردة ، الأحمر يلحس المناجل المحماة كالدراويش ،تأتي الجازية ،يطلبها :

للرقص ، فلا تمانع ،الأخضر أراد قتله ،هدأه الآخرون ، الطبيعة تغضب فترمي بكارثة ،يتفرق الناس ، تذهب الغلال والبيوت والحيوانات نهبا للسيل .

الزمن الثاني : عايد في البساتين محتارا ، لأن من الأحاديث ما يجعل الطيب بريئا من قتل الأحمر ،يأتيه الراعي بخبر مجيء ابن الشامبيط من أمريكا ، كما جاء للقرية سينمائيون لتصويرها قبل الرحيل ، يلقى حجيلة في البيت وحدها ، فيعبران لبعضهما عن مشاعر المحبة .

الزمن الأول : في الزنزانة مع الطيب رجل ،الطيب مسترسل في ذكرياته لم يدافع عن نفسه في المحكمة ،في نقاشه مع الأحمر كان ضد الرحيل ، كان يغار من الأحمر .

الرجل يخبر الطيب أنه من عناصر التقرير الأدبي الذي تمده النقابة ، وجده الطيب ثرثارا وفيه شبه بالأحمر. بدت له صافية صبيحة الزردة في انكماشها على نفسها كالشاعر ،وجدوا الأحمر على الدكة الحجرية أمام الباب ملطخا ،لقضائه الليل في اسعاف الآخرين ،الطيب فاتح الوالد أن رقص الأحمر مع الجازية عادي ،فأجاب أن الدشرة لا تسمح ،حجيلة حرضته ،وقلبه ممتلئ بحب الجازية وصافية معا .

الزمن الثاني : عايد تكشف له حجيلة انه لم يقابل الجازية وان الرعاة سخروا منه ،ويتعاتبان ، في البساتين ،لقيه درويش ،حذره من الطمع في الزواج بالجازية ،وحكى له عن الأحمر وأنه درويش ممتاز لو لم يستعجل وينفرد بالأمر ،وأخبره أن الشامبيط يقيم الخميس القادم زردة ليخطب الجازية ،ونصحه بالعودة الى المهجر حتى تمر الأزمات وتتزوج الجازية حلالا .

الزمن الأول : الطيب يحاول كتابة رقم واحد بأظافره على الجدار

فيخسر خمسة أظافر ،تزوره صافية ،فينتعش ،تحدثه عن التقرير الذي تركه الأخضر حول فساد مشروعي الشامبيط ،القرية الجديدة والسد ،وتأكيد لجنة التحقيق على ذلك ،واكتشاف علاقة هذا الأخير بالوكالة التي رشت مكتب الدراسات ، وان الطلبة قد شكلوا لجنة لمتابعة القضية .

الطيب يتساءل عن التناقض داخل السلطة ،صافية تحثه على المقاومة تترك له عنوانها ،وتذهب ، الطيب كالحالم يقاطع عليه السجين الآخر ،نشوته موضحا أن سبب سجنه هو تصريح لصحافي ،رأوا فيه تحريضا .

الطيب يعرض عنه ،متذكرا صافية في القرية .

الزمن الثاني : زردة تقام نهارا بدل الليل ، الشامبيط أراد ذلك ليرى ابنه الجازية وتراه ، حضر الناس ،وتم اعداد الجو ،وتأخر الشامبيط الساعة الثانية عشرة ،وضع حجر بدل الشامبيط دار حوله الوكيل بالهدي سبع مرات رقصت النساء والدراويش . . . الخ ،الساعة الثانية لم يأت . قرر الوكيل اطعام الناس ، عابد أكل من الجفنة بيديه ،مربية الجازية تأتي ومعها فتاة ،الساعة الثالثة والنصف يشرع في الزردة رسميا ،ترتفع الألحان والأغاني ،الدراويش يرقصون ،عابد يرقص برقص أجنبي أجنبي ثم يتابع الدرويش، تدخل حجيلة الحلبية ،تبلغ الحضرة الأوج ،يأتي راعي السبعة ،يخبرهم بموت الشامبيط ،تذهب جماعة معه . الشامبيط الذي نجا بأحلامه وأمواله ونفسه من حرب التحرير ،لعب مع الثورة والاستعمار ،وبعد الاستقلال . لعب مع الاشتراكيين ،والرأسماليين ،ويريد تزويج ابنه من الجازية .لأن أمريكا تحب السلاطين لا الخدم كما قال لابنه الأخضر أخذ الجازية الى بيته ،سمح لحجيلة والعجوز عائشة ،بحضور الزردة ،أخذ البندقية ،وراح يترصد الحمام، جاءه الراعي ،بادله كلاما ومضى بأغنامه ، رأى الأخضر الشامبيط وابنه في حافة المخاطر ،أطلق رصاصه لافزاع حمامتين ،رأى بغلة الشامبيط ترميه

في الهاوية ،وسمع صوت انحدار القطيع ،الشاميط أعطى بفلته المدربة لابنه ،وركب أخرى غير مدربة ،ابنه وقف مذهولا ،جرى اليه الرجلان ،حاول الأخضر النزول الى الشاميط لم يقدر ،نزل الى ما تحت الهاوية ليصعد اليه ، ولكن حمله تعذر عليه ،فطلب من الراعي ،أن يذهب ليطلب المساعدة والحبل .

جاء الناس ،رموا بالحبل ،صعد الاخضر بالجثة ،لم يقبل ابن الشاميط الصعود الى الدشرة ،للصلاة على روح أبيه في جامع السبعة هبطت معه جماعة لتشييع الجنازة ،اعتذر الأخضر لانه مرهق ، وعلق الناس .

الاخضر عاد بعايد الى البيت حيث الجازية ومربيتها وأخبرها أن عايد أتى للزواج منها ،فضلت انتظار الطبيب ،طلب عايد يد حجيلة وعلت الزغاريد وألقات البارود .

مـــدخــــــل :

صورة المرأة في الجازيـة والدراويــش .

صورة شديدة البروز ،من حيث استحواذ ها على حجم كبير من الرواية ،ومن حيث ايجابيتها الملحمية القصوى ،التي تتميز بها عن السلبية التي أخذت مكانا هاما في الروايات السابقة تلك السلبية التي لم تسيطر بل وازتها الايجابية أيضا الى حد .

وتعكس صورة المرأة هنا بعدين اثنين واضحين بعدا واقعيا ،وبعدا رمزيـــا واسطوريا احيانا وتتلخص في الصور التالية :

1 - صورة الجازية ،التي تتوغل في الجانب الرمزي ،المعبر عن واقع محـــدد ، وتخصب بالدلالات ،ومن دلالاتها الأساسية ،الجزائر في صيرورتها التاريخية المميزة الهوية عن صيرورة المعسكرين ،وهناك دلالات فرعية سيأتي ذكرها في محلهـــا ، وصورة الجازية هي الصورة الأولى على طول الرواية .

2 - صورة حجيلة . يغلب عليها جانب الواقع المادي على جانب الرمـــز وان لم تخل منه ،وهي شخصية ثانية في الرواية تعكس نضال فتاة أمية ريفيـــة ايجابية من أجل غد أفضل ،الغد الخاص والغد العام ،وعن طريقها يؤكـــد الروائي ثقته في الناس البسطاء .

3 - صورة صافية ،يتجاوز فيها الرمز والواقع ،وهي نموذج المناضلـــة المدنية والتطوع الطلابي عامة ،تبحث عن تحقيق مستقبل لا شرقي ،ولا غربـــي وهي صورة ثالثة في الرواية .

4 - صورة هادية ،صورة ثانوية ،رمز لجزائر حرب التحرير التي وحـــدت الجزائريين ،ونموذج واقعي للجيل الماضي ،امرأة تقليدية مسالمة تابعـــة للرجل ،ومن هذه المسالمة يتفجر جانب ايجابي ،يتحول الى بداية قبول للجيـــل الجديد ،لا مصادرته .

وهذه الصور النسائية ،صور ملحمية تقوم على وحدة المجتمع العميقـــة في الروايات السابقة ،فهناك خط عام يجمع اغلب الشخصيات ويوحدها وينتصر

الصـــورة الجسميـــــة

الصـــورة الجسميـــة للجاريـــة :

" وجهها غريب ،يتشكل بألف صورة "(1) ،هكذا رآها الدرويـــش العاشق وهكذا صورها الكاتب ،يقول عنها الطيب " كم هي جميلة ! الجارية هي الجمال تجلى في أبدع مكنوناته ! حقرت نفسي امامها ،امتلكني حـــزن غريب ،وأنا أرى نفسي تصغر كلما رفعت بصري اليها . اذا تكلمت تنفتـــح النفس كلية لاحتضان ذبذبات صوتها ! لم أستطع أن أفاتحها في الموضـــوع أصبت بما يشبه الذهول . . . كنت وهي تتحدث أتخيل صوتها آتيا من وراء الكون غريبا رهيبا محيرا آتيا من كل جهة ،كأنه صوت من مصادر متعددة ! نظرت الى وجهها فاذا هو قد اتخذ شكلا لا يصدقه العقل : صار جليدا بلوريا ترى من خلاله كل الجزئيات والدقائق الداخلية ! امتلكتني الدهشـــة الى درجة أن لاحظت أختي ذلك سألتني : " مالك ؟ ان وجهك امتقع حـــتى لا يكاد يعرف ! ماذا حدث ؟ أتشكو شيئا ؟"... مددت يدي للجاريـــــة أصافحها فاذا وجهها يعود الى اشراقه الأول ووداعته السماوية . فكـــرت حينئذ أنني كنت أجتاز طورا غريبا .. اذ خيل الي أنني أشاهد أشيـــاء(2) ما فوق بشرية(3)".

وهكذا يتخلى الكاتب عن التصوير المادي ،الذي يحدد الملامح تحديدا فوتوغرافيا ،وهو تصوير سبق له ان استعمله الى جانب التصويـــــر المعنوي ،ليركز على التصوير المعنوي في الغالب ،وبالنسبة لأغلب الشخصيات لا للجارية وحدها ،تصوير فيه تجديد ورمزية ،وشاعرية ،ونورانية " خرجـــت

---

1 - الروايـــــة . ص : 178
2 - الصحيح فوق بشرية .
3 - الروايـــــة . ص : 78 .

الجارية كالنور يرسل فجأة على مكان مظلم ! كذلك خيل لعابد ... لم يستطع تثبيت نظره فيها ، حسنها أقوى من قوة بصره ، كظم أنفاسه ! ... رأى وجهها شفافا بشكل بديع حتى لترى من ورائه جدران البيت ! كما لو أنه من بلور "(1) ، " جاءت الجارية الى الحضرة الجازية التي تشبه الحلم ... جاءت ملثمة ، لكن نورها لم يحجبه لثام ، حسنها تيار متموج ، يهز القلوب ! فاض جمالها على الساحة كما يفيض الفجر على الأفق ، الناس مندهشون التفتوا جميعا الى المكان الذي جلست فيه "(2) .

ويقول الكاتب عن الجانب المادي للجازية ، في اطار حديثه عن علاقة جازية الرواية ، بالجازية الهلالية مايلي : " العلاقة بين الجازية بطلة الرواية والجازية الهلالية رمزية تقابلية ، فالجازية الهلالية في الذاكرة الشعبية مثال للجمال . وأنا أحببت أن يتجاوز جمال جازية الرواية الجمال المادي المتغير الى جمال اسطوري خالد . ان العلاقة كما ترى تشير الى أن الجازية الهلالية قد صير جمالها المادي الذاتي المتغير جمالا خالدا الجانب الأسطوري بينما جازية الرواية التي تفتقد في الواقع الحياتي المعاش الى الجانب المادي ، صير وجودها المادي في الأذهان حقيقة الوجود السابق الحقيقي الذي تمثله الجازية الهلالية فكل منهما تكمل الأخرى فيما ينقصها وتتجاوزها "(3) .

أما عمر الجازية فقد جعله الكاتب مطلقا ومحددا " ومع ميلاد الزمن ولدت الجازية "(4) أي هي بعمر التاريخ ، ثم هي شابة اثناء الزمن الروائي ،

---

1 - الروايـــة . ص : 219 ، 220 .
2 - الروايـــة . ص : 87 .
3 - من رسالة للكاتب الى السيد عطية ابو النجا . بتاريخ 3 مارس 1985 .
4 - الروايـــة . ص : 5 .

شابة ،ولدت إبان الاستقلال "انتهت الحرب احتفلت القرية بالعائدين من الموت الجازية كانت في المهد "(1) ثم هي شابة لاتشيب اسطوريا، فقد جعلها الكاتب تأكل نبتة تبقيها صغيرة ،وبهذا فهي الجزائر الأصيلة المتجددة يقول الكاتب "طبعا الجازية ترمز الى عهد بومدين وما قبله وما بعده وخاصة ما بعده"(2).

والحقيقة أن النقص الذي كان في شخصية العجوز رحمة في ريح الجنوب قد تداركه الكاتب في شخصية الجازية اذ ان شخصية حيوية ترمز لتواصل الخط الحضاري ما كان لها ان تجسد في شخص عجوز هرمة :يمنحها الكاتب الموت نهاية حتمية ، خاصة ونحن في فترة ما بعد هزيمة الاستعمار، وعلى كل فعدد الشخصيات الشابة في الرواية هو الغالب ،وان لم تخل من كهول وشيوخ ،والتركيز على الشباب في محله في بلد نسبة الشباب فيه مرتفعة ولا يعد ذلك تحاملا من جيل على جيل بقدر ما بعد نظرا موضوعيا يضع الشباب الموضع الملائم .

وجمال الجازية ،جعل الجميع يعشقونها ،عشقا عذريا مسيطرا .

ولكن هناك فقط أربعة رجال يرشحون نفوسهم لخطبتها والزواج منها ، وهم الطيب ،وابن الشامبيط ، والأحمر ،وعابد ،وهم رموز لاتجاهات كما سنكتشف في التحليل .

والواقع أن الكاتب قد صور جمال الجازية ،تصويرا يتجاوز الواقع المادي الى ما وراء الطبيعة وخلجات الروح ، وهذا النوع من التصوير يعرف من التراث

---

1 - الرواية . ص : 23 .

2 - من رسالة للكاتب الى د . السيد عطية أبو النجا .

العربي الاسلامي ،بل ومن الفلسفة الاسلامية نفسها.(1)

الصورة الجسمية لحيلة :

يتعامل الكاتب معها ،كما تعامل مع صورة الجازية تقريبا ،أي باجمال تحديد الملامح الظاهرية ، مفضلا التصوير المعنوي في الغالب ،من خلال نظرة الآخرين وخاصة عابد " وفجأة أقبلت مجموعة من النساء على العين وهو جالس الى جانبها . انه وقت السقي . قام مضطربا خجلا . أخذ حقيبته متهيئـــا لمغادرة المكان ،واذا بعينيه تقعان على فتاة عروب حسنها فاض عليهـــا كالنور وملأ المكان !

خفق قلبه خفقا ناشديدا : انها الجازية ا الحلم الذي جاءبي مـــن آخر الدنيا !

رجلاه تتقدمان اتجاه الدشرة ،وقلبه يتأخر في اتجاه العين! لم يستطع ان يلتفت ويملأ نظره من وجهها " عيب " هكذا حدثه أبوه عن تقاليد المداشر، الرجل لايلتفت الى المرأة . . .

لكنه أحس بسعادة مضمنة ، تسري في ذاته زقزاقة شعشاعة ! ان اتعابه المرهقة في الصعود الى الدشرة زالت في لحظة! هو يشعر الآن أنه قـادر على أن يصعد الى هنا عشر مرات متتاليات ،مقابل نظرة واحدة لهـــذا الوجه البديع المشرق ! اللذة ليست شيئا دائما ،هي سعادة لحظة قد لا تتجدد أبدا . ومع ذلك فان عابد يشعر الآن ان حياته لم تذهب فالمدى ان المستقبل مهما كان بالنسبة اليه ،لن يستطيع نزع هذه الصورة المشرقة من نفســـه "(2).

---

1 - د . غنيمي هلال ،النقد الأدبي الحديث . ص : 500 .
2 - الرواية . ص : 41 ، 42 .

والكاتب في هذا النص وفي غيره ،يمزج بين صورة الجازية وحجيلة عن قصد .

انها جزء منها تمثل الواقع ،بينما تمثل هي الحلم

ويقدم الكاتب حجيلة واثقة من حسنها ،وان كانت تغار من حسن الجازية ،كما تغار منها جميع النساء قالت ضاحكة " -كل النساء يغرن منها(1) حديث الرجال عنها أفسد عواطفهم عن نسائهم ".

وتعلق عابد بحجيلة هو تعلق الانسان بالانسان المرأة بالرجل ،والرجل بالمرأة ،وحضور العواطف والغرائز مشهود ،ولكنه رمز أيضا فعابد المغترب الشاب يريد العودة الى جلدته من خلال حبه ،ثم ارتباطه بحجيلة، هذه العودة التي تمنح الفتاة بابا للخروج من الحياة التقليدية ،الى حياة جديدة .

الصورة الجسمية لصافية :

ذكر الكاتب بعض ملامح صافية ذكرا عابرا مثل " صوتها العذب الحريري(2) و " نظراتها القوية "(3) ،وهو بذلك يصورها تصويرا معنويا أكثر منه ماديا.

ولكنه ركز على تصوير تأثيرها على القرويين " منذ أن رأوها تدخن ،وتضحك وتلبس سروالا أزرق أبرز كل ما تخفيه القرويات ! لم يبد أحدا استعداده لأن تشاركه حياته العائلية طوال شهر . انها " خطر " خطر على المرأة والرجل معا(4) ".

1- الرواية . ص : 164
2- الرواية . ص : 63 .
3- الرواية . ص : 185 .
4- الرواية . ص : 60 .

و "حكى الامام لبعض أحبائه ،ان صورتها المبرزة لدوال الأنوثة فيهـــا لم تتخل عنه حتى في الأحلام "(1).

وقد رأى الامام أن حبه لها ذنب ،وأن سفورها ذنب ،وكذا سفرهـــا مع ستة طلاب متطوعين ، الى الريف ،فراح يسخر منهما ،ومن النظارة المدينية عموما للعلاقة بين الجنسين ،متخيلا في تصميم اشياء لا أساس لها من الصحة (2). وبعد الكارثة الطبيعية ،ما كان منه الا أن طرد صافية من ساحة الجامـــع، فهل هذا النبذ ، يحل المشكلة ؟.

أعتقد أن الامام لم يسلك سلوكا منسجما مع الرسالة الاسلامية ،فقـــد أخطأ بطرده لصافية ،وكل ابن آدم خطاء ،وكان عليه ان كان يهدف الـــى تفقيهها في جانب محدد من الشريعة ،أن يتعامل معها بالتي هي أحسن لأن المسألة مسألة اقتناع بالدرجة الأولى ،لا مسألة أمتثال أعمى .

ولعل ثقافته الدينية سطحية ،كما يلاحظ لدى عدد من الائمة لا كلهم، تلك السطحية التي تنبع من ضعف الثقافة الدينية عامة لأسباب عديدة ليـــس هذا مجال ذكرها .

هذا الضعف نفسه يلاحظ لدى المثقفين أيضا ،ومنهن النساء ،حيـــث ان التعمق في الدين لم يعد متاحا الا في فترة متأخرة ،بحيث بدأت الوسائل تتوفر .

واذا كان الكاتب قد قدم المشكل من خلال الجيل الماضي ،فقد قدم الحل من خلال الجيل الجديد .

---

1 - الروايـــــــة . ص : 82 .

2 - الروايـــــــة . ص : 80 ، 81 .

فحسب جميلة للأحمر حب عفيف ايجابي ، رغم كونه من عارفها فقط ، وكذا علاقة الدايب بصافية ، اذ تتحول هذه العلاقات الى علاقة محفزة للثورة ناهيك عن علاقة الجازية بمريديها .

يقول الدايب " لابد أن أقاوم " اتخذت هذه الكلمة عمقا جديدا في نفسي بعد زيارة صافية ! . . . صافية . . . ما أعذب صافية ! قلبي يتوق اليها توقانا صوفيا ! صافية جعلتني زيارتها أعود الى الغرفة كالحالم ! الا لافتات العمودية التي لم تصل بصاحبها الى الباب ، لم أرها ، الصور البورنوغرافية انمحت ، الجدار صار صافيا ، جروح أظافري نسيت آلامها ، صافية لم تنتبه الى أصابعي ربما حال دون رؤيتها اياها الشباك " (1)

1 - الروايـــــة ، ص : 191 .

الصـــــورة الاجتماعيـــــة .

الصـــورة الاجتماعيـــة للجـازيـــة :

يقدم الكاتب بتقديمه للصـورة الاجتماعيـة للجازيـة ،التي هي رمـــز الى الجزائـر وأوسع من ذلك ، كما أسلفنا ،وهذا حكم كل من يقرأة الروايـــة تقريبا " الجزائـري ،المغربي ،العربي ،رجل العالم الثالث يقـول ربما بعـــد قراءة هـذا الكتاب الجازيـة . . . هي أنا "(1)،يقدم صـورة اجتماعية ،لصدقها المتمثل في الكشف عن البنيـة المعقدة للمجتمع الجزائري .

هذه البنيـة التي تضم في أحشائها عـددا من البنيـات كما يؤكـــد على ذلك الباحثـون .

فالبنية الاجتماعيـة القديمة لنمط الانتـاج الآسيوي ما قبل الرأسمالـــي مستمرة ، والبنيـة الاقطـاعيـة غير ناجزة ومسدودة الافـق ،والبنيـة الرأسماليـــة الصناعية غير ناجزة ومشروطـة في تطـورها بالتبعيـة لنمط الانتاج الرأسمالـــي العالمي ،والبنيـة الاشتراكيـة في طـور التكويـن .

وهذا واضح في الروايـة ،فقريـة الجازيـة لم تعرف تغييرا بعد الاستقلال ، وتعيش حياة طبيعيـة مرتبطـة بسنوات " الخصب والجدب "(2) وبقيم حضاريـة عربيـة اسلاميـة في معظمها ،الى جانب قريـة الشامبيط الرأسماليـة التي هو في طريق انجازها ،وقريـة الأحمر التي يفكر في بنائها ،ومعروف طبعا ان الاقطاع والرأسماليـة يتحالفان في بلـد كالجزائـر .

F.C (FERHAT CHERKIT) EL MOUDJAHID No DU 18/3/1984. - 1

2 - الروايـــــة . ص : 39 .

وقد رصد الكاتب حركية البنية الذاتية للجزائر من خلال قرية الجازية ، هذه الحركية التي أهملها كثير من المثقفين ،كما صور قبول هذه البنية لايجابيات من المعسكرين في حدود الانتماء العربي الاسلامي طبعا .

ومع هذا التعدد في البنى فان التحول الاشتراكي في الجزائر غير خاف، ولكن طريقته فيها ضباب حتى في النظرية الماركسية ،وهذا ما يدعو الى النظر السوسيولوجي التطبيقي المحدد لمثل المجتمع الجزائري لضبط حركته التاريخية الخاصة داخل الحركة التاريخية العامة .

وعبد الحميد بن هدوقة كان سباقا الى الكشف عن هذا الجانب في رواياته ذلك ان الرأسمالية قد "انبثقت ... في اوربا من الاقطاع وكرست سلطتها بواسطة ثورة برجوازية أي ثورة قادتها البرجوازية بالتحالف مع العمال والفلاحين ،وتأتي الثورة البروليتارية بعد ذلك ،وفي بعض الأحيان كما في روسيا 1917 ،بعد ذلك بقليل ... وهكذا يبدأ الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية ،بوشر بتطبيق هذا المخطط على المستعمرات والبلدان التابعة التي تضم أغلبية سكان الأرض فحالة التخلف السائدة جرت معادلتها بالاقطاع الأوروبي ،والبرجوازية المحلية ،برأسمالية الغرب المركانتيلية والصناعية الصاعدة والامبريالية تحالفت مع الاقطاعيين للمحافظة على سيطرتها . وفي ظل وضع كهذا يفترض أن تتسلم برجوازية المستعمرات قيادة النضال ضد الاقطاع والامبريالية ،ويتوجب على الثوريين الذين يمثلون مصالح الجماهير دعمها في هذا النضال المزدوج وسيعقب انتصار هذا النضال انجاز الاستقلال الوطني والاصلاحات البرجوازية الديمقراطية وبدء نضال جديد على طريق الثورة البروليتارية الاشتراكية وحيثما جرى الأخذ بهذه النظرية كانت النتيجة فشلا" (1)

---

1 - بول سويزي - ليوهيوبرمان ... وآخرون ، الامبريالية وقضايا التطور الاقتصادي في البلدان المتخلفة ،دراسة بعنوان ملاحظات في ذكرى رأس المال ترجمة عصام الخفاجي ابن خلدون للطباعة والنشر والتوزيع 1974 ط/ 2 ، 1980،ص: 16-17 .

وهناك دراسات في الموضوع كثيرة[1]، تؤكد كلها على الطريق الاشتراكي ، كما تؤكد على خصوصية هذا الطريق الحضارية ، وتمدد بنياته الاجتماعية وضرورة اداعته علميا بأدوات معرفية ذاتية وعالمية مما اذ " تتمثل المهمة الاساسية للسوسيولوجيا في العالم الثالث في القيام بعمل نقدي مزدوج

أ - " تفكيك المفهومات DE CONSTRUCTION الناتجة عن المعرفة السوسيولوجية والكتابة السوسيولوجية اللتين كانتا تتكلمان باسم العالم العربي ويغلب عليهما الطابع الغربي وايديولوجيته المتمركزة على الذات ،

ب - " وفي الوقت ذاته نقد للمعرفة والكتابة السوسيولوجية اللتين أنجزتهما مختلف مجتمعات العالم العربي حول ذاتها " (2) .

فهذه البنية الذهنية المهتزة هي التي دأب الكاتب على تصويرها بصدق وهي بنية تفرزها اجتماعيا مهتزا أيضا ، يلتزم الكاتب بنقله كما هو فلا يقع في التزييف المثالي الذي لم يسلم منه البعض ، الذين تحددت نظرياتهم العقائدية فراحوا يكتبون ، فيقولبون الواقع على منوال النظرية ، وبذلك يبتعدون عنه وهم يعتقدون الاقتراب .

---

1 - I - ابحاث الندوة العلمية الثانية من 3 الى 9 نوفمبر 1969 الجزائر ، دراسات عن الطبقة العاملة في البلدان العربية ، العدد الثالث ش . و . ن . ت الجزائر مارس 1982 .

II - د . سهيل القش " في البدء كانت الممانعة ، مقدمة في تاريخ الفكر السياسي العربي دار الحداثة بيروت " الطبعة الأولى 1980 .

III - مهدي عامل " مقدمات نظرية لدراسة الفكر الاشتراكي في حركة التحرر الوطني ، في التناقض 2 ، في نمط الانتاج الكولونيالي .

IV - حسين ابو النجا " معالم الاشتراكية العربية في منظور الاقتصادي الاسلامي . دار المسيرة . ط/ 1 . 1980 .

V - مالك بن نبي ميلاد مجتمع . شبكة العلاقات الاجتماعية ترجمة عبد الصبور شاهين ط/ 1 . القاهرة . 1962 .

2 - د . عبد الكبير الخطيبي . النقد المزدوج ، دار العودة بيروت . ص : 157 .

الصـــورة الاجتماعيـــــة لحجيلــــــة :

تعيش حجيلـة والعائلـة ،عيشـة بسيطـة كسائـر أهل الدشـرة ،بين فقـر ويسر حسب تقلب الطبيعـة .

وهي أميةكنساء الدشـرة ،تقـوم بدور الخدمة المنزلية عن رضا ، وتلبس الحايك عند خروجهـا ،ووجودهـا بين أب مضياف ومسؤول (كبير القوم) ومجاهد ، وأخ مثقف رياضي ،الوحيد في الدشـرة ،جعلهـا تحتك بفكر وسلوك ليس تقليديين كليـا ،فهي تحتك بالطلبـة المتطوعين وخاصـة الأحمر .

والقـرارات فـي العائلـة ملك يمين الأب ،والأم تابعة ،والأخ متذبذب مزدوج بعد .

لكن الوالــد وان كان الحاكم الأول للأسـرة فهو لا يتدخل مباشرة فـــي الغالب ، واثقـا من التوجيه الذي أكسبها اياه ،وهذا ما يسمح لها بمحـــاولـــة ناجحـة لاختيار شريك الحياة ،فهناك نوع من التوازن بين طموحهـا الى حيـــاة عصرية ، وتمسكهـا بقيم الدشـرة ،غيران الطيب يقف معارضـا لها في معاملتهـا للأحمر ،غيرة وتأثرا بشيء من سلبيات العقلية القروية ،وقد ودت حجيلـــــــة ايواء الأحمر بعد رفض الدشـرة له ،ولكنهـا عجزت ،لأنها لا تملك القـرار .

الصـــورة الاجتماعيـــــة لصافيـــة :

صافيـة برجوازيـة صغيرة من المدينـة ،من أصل طبقي عمالي تقريبـــــا والدهـا معلم ،وامها حلاقـة ولها أخت واحـدة متزوجـة ،وهي طالبـة جامعيـــة في سنتهـا الأخيرة ،تتمتـع بحرية واسعـة ،وتقـوم بنشاط سياسي في اطـــــار الطلابـي ، وتتطـوع في عطلتهـا الى القـرى .

وهذه المرة الثانية التي يصور فيها الكاتب أسرة تتجاوز المصلحة الاسرية الى المصلحة العامة ،في علاقاتهما ،وتعطي للراشدة حقها في المسؤولية ،أصابت أم أخطأت ،بعد اداء واجب التربية ،اداء مرضيا كما يظهر ، حدث ذلك في بان الصبح ،في شخصية نصيرة صوناكوم . وهذه الاسرة نموذج لما يجب ان يكون وعي نواة واقعية محتملة الوجود ،لاشر يجب ان تتدعم .

ولم يرفض الريفيون في صافية الا سفورها واختلاطها بالجنس الآخر، أما ماعدا ذلك فقد كانت مقبولة .

وهي واعية بانقسام القوى الحية ،في القاعدة والقمة ،ولذا تبحث عن تجاوز ذلك مستقبلا وارساء وحدة بين الجماهير العريضة ، لمقاومة الطبقة البرجوازية الكومبرادورية ،العدو الاول لكل تقدم ،وهي تريد طريقا لا غربيا ولا شرقيا وبذلك تمثل اتجاها واقعيا ينمو في الجزائر .

الصـــورة النفسيـــة

الصـورة النفسيـة للجازيـة :

منذ بعمل الكاتب الجازية درويشة فقد حدد صورتها النفسيـة بتكافؤ منطقي في شخصها مفتاحه لا منطقي ،وبذلك يكون قد افسح أمامها مجال التقلبات والمفاجآت ،والمجتمع الجزائري كغيره من دول العالم الثالـث ميدان تقلبات ومفاجآت ، وقد حدد الكاتب الهدف الواضح للجازية" أقسمت أن لا ترمي في الوحل ذكرى ابيك الشهيد وذكرى أجد اد المقاوميـن تحدثنا طويلا عن المدينة ومدنيتها الغربية عنا قلنا فيها عمرنا يضيع في تعلم ما لا نحتاج اليه ،فضلنا قرية جديدة نبنيها ونبني فيها حياتنا الجديـدة تكون النقطة الاولى في الاتجاه الجديد "(1) ،هدف يجمع بين الأصالـة والمعاصرة ويرفض الاستلاب ، يقول الطيب المنسجم فكريا مع الجازية " أبونا عندما يتحدث عن المدينة يقول :" نهبط " يعني : نتضع ! دشرتنا جد عاليـة . أبي صادق في تعبيره . المشكلة ليست في الهبوط الى المدينة ، انما الصعود بالمدينة الى الدشرة هو المشكلة . كل خطوة نحو الدشرة ينبغي أن تقع فوق أختها كالبناء والصعود الى الدشرة بالمدينة بناء لكنه لا يتحمل ثقل المستقبل لذلك لابد من بناء قرية جديدة "(2)

والجازية ذات اصرار ثوري لا رجعة فيه ،اصرار حتى الموت اذا تطلـب الأمر ،لقد رفضت رفضا حاسما الزواج من ابن الشامبيط ،وهددت بالانتحـار ان قدر على ارغامها ،وهذه في الحقيقة هي نفسية أغلب الجزائريين الرافضين للبرجوازية الأومبرادورية ، تركة الاستعمار الثقيلة ،فان هي طمعت في السلطة

---

1 - الروايـة . ص : 14 .

2 - الروايـة . ص : 17 .

يوما واغتصبتها فعلي وعلى أعدائي ،لأن نجاحها يعني الضياع كما يقول الاخضر عن الشامبيط ممثلها "لو نجح لضاع كل شيء وأصبح جهاد المجاهدين عبثا من العبث" (1)

ورغم الظروف المناوئة ،فهي لا تهرب من الواقع ولا تكرسه ، ولكنها توافه لكي تتجاوزه ،والنص التالي يكشف ذلك ؛ حيث الرمز للاتجاهات السائدة أو للمراحل بالازواج "لكن مأساتي أنني لن أتزوج زواجا حلالا في وقت منظور. جاءت الى البيت ،وأنا صغيرة امرأة غريبة الاطوار تقرأ اليد ،أنبأتني أنني أكل عشبة تنبت في جبلنا لا يعرفها أحد تبقيني صغيرة حتى اليوم الذي أتزوج فيه زواجا حلالا وأن أزواجي الاولين لن يكونوا شرعيين سيكونون أزواجا حراما . وأن كل واحد منهم يلاقي حتفه عندما يظن أن الحياة استوت له ... ثم يمر زمان لا شمس فيه يشبه الليل وليس ليلا أعيش أزماته واحدة واحدة ،ثم أتزوج بعدما يموت كل أبنائي المولودين من زيجاتي الحرام وأتزوج زواجا يشهده كل دراويش الدينا" (2).

وعواطف الجازية قوية ،يلتحم الخاص فيها بالعام ، فكراهيتها للشامبيط وابنه كراهية تاريخية عميقة ،ورفضها لا رجعة فيه ،أما الطيب المنسجم معها فكريا فقد أحبته منذ الطفولة ،وذاق معا سياط الشامبيط وقد صارحته بحبها" المفصاف يشهد على أني أحبك" (3) ،فهو حب شخصي ،وحب انتماء في آن واحد .

ولأن العنف من طبيعة الجازية ،ومن طبيعة الصراع الدائر حولها فان ظهور الاحمر الجريء في الافق ، قد جعلها تعشقه ،في مشاريعه ،وصدقت

---

1 - الروايــة . ص : 74 .
2 - الروايــة . ص : 77 .
3 - الروايــة . ص : 17 .

لحجيلة مشاعرها نحوه قائلة " غمرتني بهجة لا توصف! أحسست الساحة والدراويش والشاميط والصفصاف وأغانيه والجبل والسبعة والطالب الراقص بمنجله مثل الدراويش الآخرين ،أحسست بهم كلهم يدورون في رأسي ويرتفعون عاليا عاليا الى ملكوت من النشوة القدسية "(1) ،كان درويشا مثلهما ، وكان لا يخشى أحدا ،وكانت غايته العدل الاجتماعي ،غير غريبة عنها وعن القرية ،ولكنها فشلت معه لأنه لم يتحالف مع أهلها ،مع ابناء القرية ،ولذلك أعتبرت حبه نزوة ولو كانت نزوة قوية واعتبرت حب الطيب جوهرا " الطيب طيبه السجن ،النفس تميل أحيانا عند ما تهب عليها بعض النسيمات العليلة كأغصان الصفصاف ولكن الجذع يبقى ثابتا . وأنت سألتني يا عم وأنا أجيبك الملح ما يذوب "(2) . وطبيعة الجازية طبيعة جريئة ،فهي تقول وتفعل ما تشاء غير هيابة ،وتواجه الآخرين بنقاط الاختلاف .

الصورة النفسية لحجيلة :

حجيلة شخصية روائية ذات تكافؤ مناطقي تتميز بوضوح هدفها اذ تعمل على الخروج من الدشرة والماضي الى القرية الجديدة (غير قرية الشامبيط أي المستقبل الرأسمالي) أو الى المدينة ،وهي تكرس نفسها لتحقيق هذا الهدف سواء على المستوى الفردي أو العام ،دون انحناء أمام العوائق ، وقد نجحت فعلا ،بارتباطها بعايد الذي سيأخذها الى المدينة .

وهي عاطفيا ،قد أحبت مرتين ،حبا عفيفا فيه جرأة ورثتها عن والدها المجاهد الكبير . وبعض تفصيلات هذه الصورة أجلتها الى موقفها ،فيمايلي .

---

1 - الرواية . ص : 89 - 90 .
2 - الرواية . ص : 220 .

الصـــــورة النفسيـــة لصافيـــة :

صافيـة شخصيـة متكافئة مع نفسهـا ،ومنطقيـة ،وهي تجمـع بين الاشواق الفرديـة والعامـة ، فتؤمن بأنـوثتها " حقيقتي واضحـة كل شيء فيها مدرك لا يحتـاج الى شرح انا امرأة " (1).

كما تـؤمـن بالسعادة الشخصية " ماذا في الحياة غير الغبطة " (2) ،أما العمل السياسي ،فتنظر اليه ، كمهمـة من مهامها اليوميـة المختلفة ،وهي تعبر عن رأيها بهـدوء وجرأة ،مؤمنـة بدور العلم والاخلاق ،وبالمرونـة في أسلـوب العمل السياسي ،ولذا تتجـاوز استفزازات اهل الدشرة والاحمر ،وتكتـم غيظها الشخصي من أجل الهدف العام .

وقد احبها الطيب ولعلها تبادله شعوره تقول "كم أنا سعيـدة برؤيتك يا الطيب ! حاولت مرارا أن أزورك لكن لم أتمكن من ذلك الى اليـوم " (3).

الصـــورة النفسيـــة لهاديـــة :

تتسم هادية بالهدوء ،عاطفـة وسلوكا ،فلا شيء يرفـع درجة حـــرارة الغضب عندها ، حتى الاحداث الجسيمة ،كسجن ابنها ،وحتى في أوامرهـــا ونواهيهـا أو نصائحها وعقاباتها لابنتها حجيلة تصدر عنها بلهجـة هادئة دوما ،مما يجعـل حضورها كحضور طيفي لا يكاد يظهر حتى يختفي في جلبـــة الواقـع المحيـط بها .

وتدخلها تدخل يسير وهادئ ،في الامور العائلية ،فهي دوما تؤكـد علـــى كلام زوجها ،أو تلطف من حدته المعهودة ،والطيب يعرف أن أمه لا حضور متميز لها عن والده ولذا يقول عنها " أمي التي تتكلم بلا صوت أمام أبـي " (4).

1 - الروايــــة ، ص : 67 .
2 - الروايــــة ، نفس الصفحة .
3 - الروايــــة ، ص : 184 .
4 - الروايــــة ، ص : 10 .

صـورة المـرأة موقفـا ونموذجـا

موقف الجـازية من الـزواج ـ الانتمـاء :

يدور الصراع المستقطب للأحداث ،حول زواج الجازية ،التي تريد اختيار وتحقيق الزواج ـ الانتماء الذي يجمع بين كل من الأصالة والمعاصرة، والكاتب من خلالها " يحفر جسرا بين الوطنية الثقافية الجزائرية العربية المسلمة والقضايا المطروحة اليوم في المجتمع المعاصر" (1).

وهذا الاختيار مابمس أغلب النساء الجزائريات اليوم الرافضات للاستغراب والتخلف معا ، حتى وان كان اختيارا صعبا ،فها هي الجازية كنموذج لهن ،واقعي ممكن الوجود ،ومثالي يجسد ما يجب ان يكون ،ها هي الجازية تلقى في الطيب الذي بادلته المحبة منذ الطفولة ،النظر الأصيل المعاصر الذي تؤمن به .

ولكنها تفتقد لديه الى الفعل فسلوكه سلبي انهزامي واقع الامبريالية قاهرة .

وهذا ما تتجاوزه هي حيث تنفذ الى واقع حرب التحرير ، والى انتصار الجزائر ،لا على فرنسا فقط بل على قوات الحلف الأطلسي مجتمعة وتنفذ الى أبعد من ذلك الى عصر الرسالة الاسلامية .

وللسلوك الانهزامي صور أخرى مختلفة كالانحراف المشهود في رواية بان الصبح حيث يكون تقليدا للغرب .

-1 C.B (SLIMANE BENCHABHA) ELMOUDJAHID No DU. 15 / 7 / 1984.

والطيب نموذج للتمزق الحضاري تمزق بولد العجز والتردد وعدم الثقة في النفس وضياع الحلم ،خشي الدخول في الصراع من أجل الجازية ،وهرب متخليا عن مسؤوليته ،الى حياد سلبي ، ويبدو في ذلك غير مؤهل لتحقيق الأحلام الكبيرة سواء على المستوى الشخصي أم العام .

ولكي يتزوج الطيب الجازية المرأة - الانتماء عليه أن يجاهد نفسه كي يكون الرجل - الانتماء بالفعل ،وان يقبل التضحية في سبيل من يحب " حب كبير ،لا يعاش بعمق وامتلاء الا في قلب حب حقيقي للوطن ،للشعب لابداع الذين ضحوا ،من قرن الى آخر ،من أجل الحرية والعدالة ، وتفتح طاقات الانسان ،والاحترام للمبادئ والقيم الحقيقية ، والكرامة ،الحب الذى لا يسمر بلا كره أصيل يصارع ضد جميع الدجالين ،الخونة ،المزورين ، الغاصبين بائعي كل شيئ ولا شيئ "(1) .

وهو كرمز للفكر الأصيل المعاصر المرشح للفعل مستقبلا ،يلتف حوله أهل الدشرة مقررين بالاغلبية تزويجه من الجازية لضرب الطماع ابن الشامبيط .

والطيب هو ابن الاخضر بن الجبايلي ،الاخضر ،اسم يرمز للاسلام ، والجبايلي ،لقب يدل على الخبرة بالحياة الصعبة ،التي يريد توريثها لابنه ، وهو من كبار المجاهدين وفي ذلك رمز لضرورة استمرارية الثورة التحريرية ويمارس الفلاحة ، الخياطة ،الصيد . . . وهي مهن ترمز للقوى الريفية الحية وهو سخي ،رمز للقبول الحضاري لنمط الحياة الاشتراكية ،وهو كبير الدشرة رمز السلطة الفعلية السائدة .

وأمام تخلي الطيب عن مسؤوليته ،اذ يطلب يد الجازية مبدئيا فتقبل ،

F.C (FERHAT CHEKKIT) EL-MOUDJAHID No DU 15 /7 / 1984. - 1

ولكنه يؤجل الموضوع منسحبا ،وأمام مجيء الأحمر الى (الدشرة) على رأس فوج الطلبة المتطوعين ، تجد الجازية فيه طريق الأمل ،وتحس بقربهما من بعضهما في تلك الجرأة التي يظهرها يوم الزردة ،وهو يلحس المناجل المحماة بالنار ،ويراقصها ،غير متردد في ان يكون شهيد جبها " يرقص مع الدراويش وهو في حالة سكر" كامل بذلك الجو الغريب .

طلب درويش منجلا أبيض من وهج النار وقدمه الى الأحمر أخذه منه الأحمر بدون تردد . تشهشت عيون الحاضرين به ،منتظرين ماذا يفعل بالمنجل ! . . .

لعق الأحمر المنجل ! صاح الناس والدراويش :" الله أكبر" ثم لعقه ثم لعقه . . .

اشتد العزف واشتد الرقص وتواردت المناجل الحمراء على الدراويش وجيء بمنجل آخر للأحمر . قدمه له أحد الدراويش بحنان . أخذه منه الأحمر بلهفة ! ازداد وطيس الحضرة التهابا وتكهربا ،برق البرق حتى أضاء كل شيء ،وأضاء الجازية بشكل غريب ! ولم تكن متلثمة بلثام صفيق لبان وجهها بكل دقائقه ومحاسنه ! لكن لم يأبه أحد بالبرق في تلك اللحظات كانت العيون مصوبة نحو الأحمر ! لكن الأحمر كان رأى تجمع ضوء البرق على الجازية ، فاتجه نحوها ، يشرق صفوف النساء ومد يده اليها . . . !

أبي أخذ بندقيته فمسكه الشامبيط ،ونصحه أعيان الدشرة الذين كانوا هناك أن يتريث . أعاد البندقية الى مكانها .

وقامت الجازية ! وتهامست الأصوات " قامت الجازية لم تمانع "! جرها الأحمر الى الرحبة وسط الدراويش ،لم يتمكن من رؤية وجهها .هم ينزع

اللشام ... لكنهيا منمته ا قدم لها منجلا محمى فلمقته! راقصها فراقصنه يالها ! عقول القرويين كادت تطير من رؤوسهم ! راعي السبمة أخذ منجلين أحمرين وراح يلمقهما بالتناوب ،ويرقص ويرقص الاحمر يرقص الجازية ترقص ، الدراويش يرقصون ،الحاضرون جالسون لكن نفوسهم ترقص ! البرق في السماء يرقص !

يشتد المزف ،يشتد قصف الرعد ،تشتد صيحات الدراويش،المناجل (تضوء) (1) والبرق يضوء !

عيون القرويين مشدوهة متشبثة بالجازية والأحمر" (2) .

وقد بادلت الجازية الأحمر حبا بحب ،متجاوزة نظرة ناس دشرتها الضيقة اليه ،والى الطلبة عموما ،كغرباء قادمين من المدينة .

والكاتب كثيرا ما يبرز بداية ممارسة الفعل الثوري أو الاصلاحي في الأرياف على أيدي المثقفين الاتين من المدينة ,كنفيسة في ريح الجنوب،والبشير في نهاية الأمس ،وفي الغالب يظلون مطوقين بحد من الغربة لا يبدأ في الانحسار الا بصعوبة .

والواقع أن أهل الدشرة قد تجاوبوا مع جرأة الأحمر في أعماقهم لانه حلا لهم طبيعتهم التي برزت في الماضي القريب خلال ثورة التحرير ولكنهم كانوا ينتظرون منه أن يشاورهم في الأمر .

والشورى مبدأ اسلامي (3) ،وتقليد عالمي معاصر ،وفي الجزائر وغيرها

---

1 - الصحيح . تضيء .
2 - الرواية . ص : 89 ، 90 ، 91 .
3 - (وشاورهم في الأمر ،سورة آل عمران الاية 159 .
(وأمرهم شورى بينهم) سورة الشورى الاية 38 .

من الدول العربية والاسلامية ،تشمل حتى العلاقات التي تبد وشخصية لدى بعض الامم .

ففي الزواج تخطب الفتاة مثلا من أهلها على أساس أنه رباط ـ شخصي اجتماعي شامل ولحد الآن لا تزال الزيجات التي تتم منفردة بعيدا عن أعين الاهل زيجات منبوذة في الغالب .

ومن الناحية السياسية كانت الشورى سائدة ،في العهد الاسلامي خاصة ،وقبله الجاهلي ، بعيدا عن أية بيروقراطية أو تعقيدات حيث يتم البت في الامور ،من قبل المؤهلين لذلك في الحال ،أو في أقرب الآجال حيث لا تتعطل مصالح الناس كما يحدث الآن حيث تقليد الاساليب الغربية .

وفي قيادة الثورة التحريرية استلهمت الشورى وكانت القيادة جماعية لا فردية كما هو معروف .

وقد تطور الكاتب في نظرته الى العلاقة بين القيادة والجماهير ففي نهاية الامس جعل البشير" يستهين بمدى الدور الذي تقوم به الجماهير ... ولا يجهل أحد ،ولا سيما اذا كان مثقفا مثل البشير ،ان أية حركة تقوم بمعزل عن الجماعة لا يكتب لها النجاح ،وان كتب لها هذا النجاح فانه سيكون مؤقتا قليل التأثير على سير الاحداث ... ويغالي البشير في هذا الموقف من الجماعة فيسمح لنفسه باستخدام عبارات تنتمي بعضها الى معجم النظام الديكتاتورية ، وتنتمي أخرى الى الفقه الاسلامي ،وتترجم كلها عن نوع من الاحتقار للجماعة قد لا يقصده البشير قصدا يقول في هذا الصدد "ان المجتمعات الجاهلة تساق الى المستقبل بالركل وأعقاب

البنادق فلن يتأتى أي اصلاح عن طريق الديمقراطية في شعب جاهل.. .لقد أصاب مالك عند ما وضع قاعدة "يجب قتل الثلث لاصلاح الثلثين" (1) ويعجب المرء للجمع بين الاستبداد الدين في عبارة واحدة، وليس ذلك للاتفاق الظاهر بين الاثنين ،بل لضيق نظرة البشر واعتقاده بامكان تحقـــق الاصلاح بالرغم من جهل الجماعة وسلبيتها "(2).

أما في الجازية والدراويش فان انعدام الديمقراطية يؤدي الى مـوت الأحمر" لولم يستعجل مستقبله لصار درويشا ممتازا ،خسر نفسه ،وخسره الدراويش ! ماذا نستطيع أن نفعل له نحن ! لم يحالفنا ولم يستشرنا" (3).

وقد جعل الكاتب الجيل الجديد عاجزا عموما عن التغيير بسبب الاستلاب فالأحمر يقع في فخ الثقافة الاشتراكية ذات الطابع السوفياتي ،والثقافات المعاصرة قد تقبل المقاربة في مجتمعاتنا ،ولكنها لا تقبل الانطباعـــات التام ،فهدف الأحمر ،هدف صميم وتحقيق العدل الاشتراكي من صميم مطالب البشرة ،وكذا التعليم ، والتخطيط والتقنية ،ولكن الأسلوب الديكتاتوري للقيادة مرفوض رفضا تاما ،وتجاوزته الأحداث .

وقد ارتبط مصير الطيب بمصير الأحمر ،الذي مات موتا غامضا ،فاتهـم الطيب بقتله وشهد عليه الجميع ، ودارت الدوائر على المحايد ،فدخل السجن دون أن يدافع عن نفسه وكأنه يستعذب التكفير عنها لذنب أتاه ويدفع ثمـــن تردده" (4).

---

1 - الرواية . ص : 124 .

2 - د . محمد مصايف الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية والالتزام . ص : 119.

3 - الرواية . ص : 171 .

4 - وليد ابو بكر ،مجلة الوطن . الجازية والدراويش : رواية الوصل بين العصـــر والتراث في الشكل والمضمون عدد 11 أفريل 1984 ،

وقد سبق للكاتب ان قدم شخصيات تكفر عن اخطائها . فالبشير في نهاية الأمس يتخلص عن خوض المعممة السياسية ، سنوات الصراع الداخلي أثناء الثورة المسلحة ،وتصدمه نتيجة الاستقلال ،فيندم على سلبيته الماضية ،ويحاول التعويض بعد يأسه من المدينة ،باصلاحات تكاد تكمون بطولية في الأرياف .

وفي السجن يعيد الطيب قراءة موقفه ، مصححا اياه ، مؤكدا على حب الجازية الذي يسكنه ،وانصافا للأحمر الذي اعتبره درسا في الجرأة والمسؤولية .

وان كانت المسؤولية التي يؤمن بها الطيب مستمدة من القرآن " لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ،ما أروعها آية ! تعلن للدنيا ان القدر لا يكتب قبل وقوعه ! تعطي للانسان حريته وتضع مصيره بين يديه ،تسمو به الى عظمة المسؤولية "(1).

وقد كان الكاتب يلجاء في السابق الى تصوير المسؤولية من وجهة نظر وجودية ،احتفظ بها لبعض شخصياته الجاهلة (حجيلة).

وقد اقتنع الطيب بهدف الأحمر ،وبأنه حي في نفسه ونفوس الجماهير، وامتد درس الجرأة ليجعل من الأحمر قدوة ،للنساء كذلك" رقصك أدخل البهجة في نفوس القرويات المراهقات منهن والعانسات ،لم تعد منذ تلك الليلة الحمراء حياتهن رتيبة متكررة "(2).

كما لا يستبعد الكاتب ظهور حمر آخرين " قد لا تنتهي المغامرة

---

1 - الرواية . ص : 11 .
2 - الرواية . ص : 126 .

بموتك ؟ قد يأتي مغامرون جدد يخطبون الجازية المتجددة في كل القرويات"[1]

وبعد أن يخلو الميدان من الطيب والأحمر ، يظهر عايد المغترب الذي يجيء ليتزوج الجازية ويسد الطريق على ابن الشامبيط .

وهنا نلمس وحدة الجزائريين العميقة حول معاداة التبعية ماضيا وحاضرا ومستقبلا ، ودور الهجرة الجزائرية أثناء حرب التحرير حيث نقلت المعركة الى أرض العدو .

ووالد عايد هو أحد كبار مجاهدي الدشرة الثلاثة الأصدقاء ، انه السايح بو المحاين ، صديق الاخضر ،وصديق والد الجازية الشهيد الذي قتل بألف بندقية ،ودفن في حناجر الطيور .

ومع ذلك فلا أحد يقبل بعايد زوجا للجازية ،انه عاش في فرنسا زمنا جعله غريبا نسبيا ويحمل شيئا من التبعية لا يمكن الاستهانة به وذلك ملموس في واقع المهاجرين بصفة عامة ،انهم يعودون بلهجة متعالية وبسلوك متبرجز يهرب الى الحياة السهلة .

فعايد سلبي يرفض الصراع من أجل الجازية كالطيب قبل دخوله السجن وهو لا يطيق العيش مثلا بدون سيارة كابن الشامبيط .

والكاتب ينقد تعالي المهاجرين ،ويجعل من عايد هدفا سهلا لراعي السبعة ،الذي استعان به ليرى الجازية ،فأبقاه ينتظر عشية كاملة أمام أحد البيوت ، وحين دخل لم تكن الجازية الملثمة الا أحد الرعاة ، ولم يكتشف عايد حقيقة ذلك الا اثناء الحديث مع حجيلة التي عبرت له عن مكر

---

1 - الروايــة . ص : 126 .

الرعــــاة .

وقد دأب الكاتب على اعادة الاعتبار للبسطاء كما فعل مع رابح في ريح الجنوب .

وفي الوقت الذي يظهر فيه عايد يشتد عزم ابن الشامبيــــــــط على خطبة الحازية .

ودور الشامبيــط وابنه مكشوفان يعريهما الكاتب بكل وضوح " المشاريع المريضــة تنسي في الموت ! بينما الموت هناك ،حيث لا ينتظره المرء الا يتخلف أبدا عن مهمته ،ولا عن وقته ! الموت جدي !

كانت مشاريع الشامبيط أعرض من حياته لم يفكر في الموت لماذا يفكر فيه والحياة تفتح أمامه آفاقا لأحلام زرقاء لا تراود حتى الشمراء ! لــم ينج بحياته وأمواله فقط من الحرب ،نجا بأحلامه أيضا !

ذكاؤه مكنه من اللعب على كل الحبال في الوقت الذي كان يفترض فيه ان يكون ملتقى للسهام ،استطاع هو ان يكون موزع الورقات الاخيرة ! عندما تنسد السبل بأصحابها يمرون به . الازمنة لم تكن لديه منفصلة ،كانــــت تشكل المارات ملائمة لانجاح أعماله الاشتراكيون والرجعيون والدراويـــش والعقلاء ، الرعاة وأرباب المناصب ... كلهم يجدون لديه تفهما وتعاطفا ان احتاجوا الــــى تعاطف . كان يستمذر عن المستمذر ! طبعا ، ذلـك لا يعني أن الناس كانوا يحبونه . انما كانوا يحتاجون اليه . وكانوا يعرفون ان مكانه لن يبقى شاغرا ... ان ذهب هو سيأتي من يخلفه ! الشـنابـط يتعاقبون على (الشمبطة) أكثر من الأولياء على الولاية وهو كان يعرف كل ذلك ... لم يكن في حاجة الى حبهم ما يهمه منهم هو أن يكونوا سدى للحمته

ينسج عليهم اللون الذي يريد ،والثوب الذي يريد ،ذلك هو المهم في نظره !

كل تلك الصفات كان يتحلى بها ،مضافا اليها دراسة ابنه في أمريكا، أهلته لأن يكون محل ثقة أرباب المصالح في الداخل والخارج !

لم يكن يطمح في البداية أن يصل الى مستوى الخاطب للجارية في يوم من الأيام ! لكن تجاربه المختلفة مع الحكام المتعاقبين على الدشرة جعلته يدرك بصورة لا تقبل الشك . أنه حيثما توجد ثورة توجد ثورات وأطماع وتنافس . . . لعب كل الورقات الرابحة في الداخل والخارج ،وفي اليوم الذي أصبحت فيه الجارية مطمع الرعاة والدراويش، وأصبح ابنه محط آمال كبيرة نصحه أصحاب النصح بتزويج ابنه من الجارية ! أول الأمر استغرب النصيحة ! لماذا الجارية ؟ انها فتنة وفوق الفتنة هي اسطورة ! الجارية بنت الشهيد الذي قتل بألف بندقية ،ودفن في حناجر الطيور ! . . . لماذا كل هذا ،والفتيات موجودات في الداخل والخارج وخاصة لمن " درس في أمريكا" !

لكن النصيحة كانت تخلف أمرا لا مناص من تنفيذه ! ساوره الخوف . . . ثم شيئا فشيئا استحلى " النصيحة " . . . انه حلم العمر يتحقق ،اذا تزوج ابنه الجارية ! تغسل ماضيه بماء معطر ! ابنه وأحفاده من بعده سوف يصبحون في الأفواه والأفكار حفدة أكبر فاعل للتاريخ !

ليس له أن يفكر فيما وراء الأحداث على كل حال . نصح بأن يزوج ابنه بالجارية وكفى ! من الناحية الخلقية ؟ الأخلاق مع القوي ! هذه حقيقة أصبحت معروفة ،لا فائدة في التعرض اليها . . . وأي أخلاق أكبر وأجمل من تحقيق هذا الزواج المظلم ؟"(1) .

---

1 - الروايــة . ص : 209 - 210 - 211 .

ولا تتم الخطبة ،ويموت الشا مبيط ،ولا يجرؤ ابنه حتى على الصعود الى الدشرة ،ولكن كيف يقع ذلك ؟

ان الاخضر وراعي السبحة ،يقومان بتنفيذ اغتياله ،بخطة ،بسيطة دقيقة ،ذكية . الاخضر يطلق الرصاص لصيد الحمام ،والراعي يطلق القطيع والأصوات تفزع بغلة الشا مبيط غير المدربة ،لأن المدربة أعطاها لابنه خوفا عليه ،وينتهي كل شيء في لمح البصر .

لقد صور الكاتب موت الشا مبيط في لوحة بارعة تشير الى براعة أهل الدشرة والجبليون عامة ،في حرب العصابات ؛

انهم يحققون هدفهم بطريقة لا تكلف اهدار دم غير العدو ؛

وهذه البراعة تشير الى ذخيرة الجزائر الحربية الكامنة في الانسان

وأعتقد أن نقل السكان من الدشرة الجبلية الى قرية سهلية يجردها من هذه القوة ؛

لأن للطبيعة الجبلية دورها في تحقيق النصر ،ولا أحد ينكر ذلك في فترة الثورة المسلحة .

ولذا أرى أن على العمران ان يقتحم المناطق الوعرة لا أن يخليها من سكانها ،لتبقى قلاعا تحمي البلاد في وقت الشدة ،وذلك لا يمنع من ايصال وسائل التحضر المعاصرة اليهم ،بل هي فرصة لمهندسينا كي يبدعوا ويعطوا الجديد ،بدل التقليد .

وأشير الى أن العمران الحديث الذي تنفذه مكاتب الشركات الأجنبية

عمران مغرض . وكمثل على ذلك اقامة احياء ضخمة بلا أية محلات تموينية ولا حتى دهاليز . ان هذا في حالة حرب ،يقضي على كل مقاومة سكانية في مهدها ، وحالة حصا ، تكفي لموت الجميع أو لاستسلامهم . وقنبلة هذه الاحياء تكون خسائرها البشرية مرتفعة لانعدام الدهاليز التي كانت تستعمل كملاجئ اثناء الغارات ،والبناء الاستعماري الفرنسي الموروث راعى هذه الميزة لحماية ابنائه .

وأهل الدشرة لديهم الاستعداد الكافي للبقاء في الدشرة ومصارعة الطبيعة يقول أحد الدراويش في حوار مع الأحمر" نحن نصارع الطبيعة وأنتم تتصارعون فيما بينكم "(1).

وهكذا نجد أن الخلاص من الشامبيط قد جاء على يد أحد ممثلي الجيل الماضي الاخضر المجاهد ،وعلى يد الراعي الذي يمثل الجيل الجديد من الجماهير الريفية الأشد حرمانا ،كما جاء الخلاص من مشاريعه على يد الدشرة مجتمعة حيث قدم السكان شكوى ضد الترحيل المفروض ، والأحمر كطالب دراسات معمقة وحاصل على دبلوم مهندس دولة ،قدم تقريرا حول فساد مشروعي الشامبيط القرية السهلية والسد ،واثر ذلك تكونت لجنة تحقيق ، ولجنة متابعة طلابية ،وبدأت خيوط علاقات الشامبيط المشبوهة بالشركات المتعددة الجنسيات تتكشف .

وللمرة الثانية يقدم الكاتب شخصية المهندس الايجابية قدمها في " نهاية الامس " حيث عارض المهندس الاقطاعي علميا ،واقنع الجميع ان نقل الماء عملية ناجحة مؤكدة ،أما هنا فهو أكثر تطورا ، بحيث يشارك بدور سياسي فعال لبناء الاشتراكية .

---

1 - الرواية . ص : 21 .

والموقف عامة يكشف عن وحدة القوى الحية ضد الشامبيط ونجاعة تلك الوحدة ،رغم اختلاف الأساليب ،مما يوحي بتوجيه الى وحدة تنظيمية تثبت تلك الوحدة العفوية .

وهكذا تنتهي الرواية ،والجازية لم تتزوج ،فالطيب في السجن وهو في طريقه بعد الى مرحلة النضج ، وهي تنتظره ،عساه ان يخرج من سجنه أكثر قدرة .

انها كشخص وكرمز ،لا تستطيع تحقيق هدفها بعد ،لأن هذا الاختيار خاضع للضرورة ،ولشبكة من العلاقات الاجتماعية ،وهي في صراع مستمر لم يصل الى الحسم التام .

وبهذا يحمل الكاتب الاختيار أو الحرية ،مفهومان يرتبطان بعجلة التطور التاريخي العام ،ولا يسبحان في اطار مجرد .

وتأكيد الجازية على ايمانها بتنبؤات العرافة بخصوص زواجها الحرام تعبير عن ذلك .

وفكرة الحرام التي تعبر عن انعدام الشرعية ،فكرة متداولة بين كثير من كتابنا ،كفكرة رمزية ، فنجمة كاتب ياسين غير معروفة الأب ،ولاز وطار ابن غير شرعي لمريانا من زيدان . . . الخ .

وعلى كل فالجازية في الرواية بل " الاشخاص . . . كلهم يمثلون المأزق الحضاري الذي تحيا فيه الجزائر ،وتحيا فيه الأمة العربية ،اذ لا المناداة بالماضي والتغني بأمجاده تكفي لبناء حاضر غير متأزم ، غير مستلب يسهم بأصالته في المسار الحضاري الانساني ،ولا المناداة باستعمال النظريات

الجاهزة المستوردة تسهم أو تمكن من الاسهام الحقيقي ... فالرحيل من القرية الجبلية المنعزلة الى القرية الجديدة الحلم ،لن يكون ذا جدوى الا اذا كان هناك تواصل بين القديم ،والجديد وكان الماضي منظورا اليه من خلال رؤية مستقبلية "(1).

موقف حجيلة من الحياة الريفية :

ترفض حجيلة الحياة في الدشرة ،ترفض الروتين والجمود على الماضي ، وتحس بالقلق والضجر والملل من تلك الحياة ،فتسعى الى البحث عن مخرج.

وقد حمل الكاتب حالتها النفسية ذات دفع ايجابي على أساس من الفلسفة الوجودية على عكس بعض شخصياته الروائية السالفة - كرقية في نهاية الأمس مثلا - فقد كانت حالتها النفسية ذات دفع سلبي .

وقد أبصرت حجيلة بالمخرج فرديا وجماعيا ،عن طريق الزواج ،وعن طريق بناء قرية جديدة اذ تحرض على بنائها .

وهكذا تمثل حجيلة الجيل الجديد في رفضها ،عكس الجيل الماضي الذي ألف حياته التقليدية رافضا التغيير .

ومع ذلك فهناك حلقة وصل بين الجيلين فهي لا تجد معارضة جدية من والديها في فكرة زواجها من شاب مدبني .

وتنجح حجيلة في الرحيل الى المدينة ،وبذلك تعبر عن استمرار تدفق النزوح الريفي ،بينما يبقى التغيير العام غير ناجز بعد .

---

1 - من رسالة للكاتب الى د السيد عناية أبو النجا .

جاء عايد باحثا عن اصالته ،فارتبط بحجيلة الباحثة عن تحضرها فهل يمكن ان تتولد هذه المعادلة الطردية عن حل متوازن ؟

ان تجارب الطيب ،والأحمر ،وعايد ،وحتى ابن الشامبيط انتهت الى حملهم نماذج للتمزق ،متفاوتة الحظ من الاستلاب ،من جزئي . . . الى كلي عند ابن الشامبيط .

فهل يعتبر ارتباط حجيلة وعايد تأكيدا على الفترة الانتقالية ،وعلى فشل الحلول الفردية ؟!

وهل سيظل الريفيون الشباب خاصة ،يهاجرون حتى تخلو الأرياف الا من الشيوخ والعجائز والنساء والأطفال - كما هو حاصل في أغلب الدشور.

ان الهجرة ليست حلا صحيحا في نظري لمسألة التخلف الريفي ، ان تمدين الارياف ،وايصال الحياة المعاصرة اليها هو الحل .

وهناك جهود في هذا المجال ،ولكن العمران فيها نسخة عن العمران الأوروبي ،وهذا تقليد ترفضه دشرة الجازية ،وبالتالي الهوية الحضارية الحقيقية للجزائر ،وغيرها من البلدان المماثلة .

موقف حجيلة من الحب والزواج :

صور الكاتب حجيلة وهي تمر بتجربتي حب . أحبت في المرة الأولى الأحمر بحرية كاملة وبعفاف أحبته من أول نظرة ،تحدق فيه بانجذاب، تتحدث اليه بلهفة ،تهتم بشؤونه كثيرا ،امام افراد الاسرة والضيوف ،بلا خجل ولا وجل ،بل بسعادة وانطلاق ،ولم تحاول اخفاء ذلك عن أحد ،أحبته بلا ضغوط ولا عقد مكتشفة معه وحدة في التفكير قال لها يوما امام الطيب"

"أنت النموذج الأمثل للهدم ، وأخوك النموذج الكامل للصيانة ،قلت له و "أنت ماذا ؟ أجاب بدون تردد ". أنا العنصر المفجر بيتكم هذا لا يمكن أن تجتمع فيه كل هذه النقائض لابد من تفجيره "ـ" بيتنا أم الدشرة؟" ـ" بيتكم وبيوت الدشرة ..." أختي راقها التعبير قالت مؤيده ينفجر كل شيء ،المساكن ،الحيوانات ،السكان ،العين الصفصاف ،الجامع ،الجبل... كل شيء! وتعلو نار حمراء، تحمر منها الآفاق المحيطة بنا ويرى لهيبها من آلاف الأميال ! حتى يعلم الناس في كل مكان أنه وقع هنا انفجار ضخم لم تعرفه الدنيا ـ ما أجمل أن ترى العين ذلك " ! قلت لها :" ستكونين أنت أولى أجزاء تلك النار" ! لم تخجل مني ولم تتردد ،قالت " ولم لا "(1)

ولم يكن الاحمر يبادلها المحبة ،اذكان يعشق الجازية ، ووجد في حب حجيلة فسحة لتشويرها كما يبدو من النص ،وليس لأي غرض آخر .

ورجال الاصلاح والثورة عند الكاتب عموما ذوو أخلاق حميدة على عكس بعض الكتاب الذين يصورونهم منحرفين في الغالب،كالطاهر وطار في اللاز(2) ومحمد العالي عرعار في " الطموح "(3)

ومع ذلك فان حجيلة تجد نحوه عمقا وصفاء في المشاعر يجعلانها فوق البغض والحقد والغيرة المدمرة ،فهي تساعده دائما مع علمها بحبه للجازية ،وان كانت في النهاية قد عجزت عن حمايته وايوائه ،كما عجزت الجازية ،وذلك يدل على ان المرأة عامة ،لا حق لها في اجارة أحد ، مع ان ذلك كان موجودا ،في تراثنا ،فالوالد في الرواية هو مالك البيت الأول ، وان لمسنا للبيت وظيفة اجتماعية أيضا ،كالضيافة .

وهكذا فقد صور الكاتب في هذا الحب ما يجب ان يكون ،ما يجب

1ـ الرواية . ص : 135 - 136 .

2ـ الطاهر وطار ،اللاز . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1974 .

3 ـ محمد العالي عرعار ، الطموح ،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع .الجزائر 1978 .

ان يصل اليه الحب من سمو وعفاف ،أما ما هو كائن فيجمع بين ضرب من مثل هذه الايجابية عند البعض ،ويصل الى العدوانية عند البعض الآخر ،اذ يحاول المحب تدمير المحبوب الذي لا يبادله عواطفه بشتى الوسائل المتاحة .

وعلى كل فالانسان ضعيف وخطاء فان كان عليه ان يجاهد نفسه ويرتفع بها ،فانه يبدو كالمجبر أحيانا ،اذ ان عاطفة الحب نسبية بين الناس قد تحتوي على ما هو شعوري وعقلاني وبناء وايجابي ،ولكنها لا تسلم مما هو لا شعوري لا سيطرة عليه .

والكاتب يتمادى في وصف ما يجب أن يكون الى درجة قد تبدو خيالية فهو يجعل حجيلة لا تعرف من الحب الا نعيمة ،حتى بعد موت الأحمر ،لم يعبر لديها عن أي عذاب ... والى هنا يصل بها الى درجة الرمز والمطلق .

فعلاقة حجيلة بالأحمر علاقة رمزية ،رمز لواقع الجماهير الريفية البسيطة والمتطلعة الى مستقبل أفضل وقيادة رشيدة كفؤة وقد بدا الأحمر - كبطريق لا يكتمل ،الأحمر الذي انصرف عن الوسيلة الى الغاية .

وحجيلة لا تلقى اعتراضا من والديها بل يرجو ان يتزوجها الأحمر تاركا الجازية للطيب ، ولهذا والدشرة من ورائهما يريان في الأحمر رجل الساعة ،لا رجل الغد ،رجل الواقع ، لا الحلم الذي يتشكل .

أما تجربة حجيلة الثانية فقد كانت مع عايد الذي سلف شيئا من الحديث عنه في موقف حجيلة من الحياة المدنية .

أعجبها ورأت فيه مخرجا ،وتطور تعارفهما ببساطة وعفوية وحرية

وسرعة ،فاذا بهما يتبادلان المحبة .

وأن كان قد جاء أصلا من أجل الجازية ،فقد وجد الدروب مسدودة اليها ،الاخضر هدده وكذا الدرويش ،ولهذا يكتمل حبه لحجيلة ف" الجازية ليست واقعا ،هكذا يحس عايد عندما يلتقي بها في منزل " الأخضر "، والد الطيب ويكتشف انه ليس قادرا كابن لعصره - ان يعيش عصرا آخر ، ويختار حجيلة ابنة الأخضر ،وأخت الطيب زوجة وحبيبة تملك ان تكون كذلك ... لانها حياة وليست حلما ... وهي واقع يتنفس حبا ،وقلقا ورغبة ،وليست مجرد رمز ،وهكذا ينتصر الواقع ان يكون اختيارا وان يكون حبا وممارسة "(1) .

وهذه العلاقة الثانية تجسيد لاستمرار الجزائر في تمدنها ، الذى يجمع بين شيء من الأصالة وشيء من المعاصرة ،وشيء من الاستغراب وشيء من الجمود ،كما هو واضح في الحالة الراهنة .

موقف صافية من السياسة :

صافية صورة ثانوية نموذج الطالبة المتطوعة للريف ،أتت في فوج من الطلبة من المدينة الى الدشرة يتكون من ستة طلاب ذكور ،وهي الفتاة الوحيدة .

وفي ذلك اشارة الى المشاركة النسبية المحدودة للنساء على عكس الرجال .

وذلك ليس راجعا لانعدام الوعي ،وانما لأن الرجال قد أخذوا حريات

---

1 - وليد ابو بكر مجلة الوطن .

أوسع ،في نظري .

ولقد تفجر الصراع منذ لحظة الوصول ،فالقرويون الذين يتبعون نظاما عرفيا صلبا لا يقبل الاختلاط ولا اللباس الاوربي ، قد نظروا اليها كخطر على النساء ،خوفا من العدوى ،وعلى الرجال لانها تبرز ضعفهم أمام الجنس الاخر ،وهم عادة يخفونه في الانقسام ،ولذا لا يقبل ايواءها غير الطبيب المثقف ،وعائلته ، وقد تعرضت لسخريته الامام ،كما اصطدمت بالاخضر الذي قرر ان تقوم بمهمتها في توعيه النساء برفقة ابنته حجيلة فقط ،دون باقي الطلبة .

وقد قبلت ذلك ،وقبل جميع الطلبة الا الاخمر ،الذي رفض النشاط النسائي المستقل اذ أن صافية وباقي الطلبة يرون في الريفيين الضعاف قوة يجب اكتسابها باللين ،بينما يعتقد الأحمر انهم ضعاف جاء لمساعدتهم.

والحقيقة أن صافية قد أدركت نجاعة الوحدة ، التي ترفع الروح المعنوي ،وتجعل الانتصار على العدو حقيقة واقعة كما حدث في حرب التحرير ،وهي ترى ان خيط الوحدة هذا هو المرشح ،لبناء مستقبل قوي ومستقل :

وقد وجد فيها الطبيب ما لم يجده في الأحمر والجازية وحجيلة " كانت رزينة ،ذكية لا تنتقد الاخرين ،في الواقع ،منذ أن دخلت بيتنا أشاعت في نفسي أملا في حياة أخرى غير التي عرفتها وغير التي تخيلتها لو تزوجت بالجازية ... حياة هادئة ،منطقية ،منظمة ،ليس فيها ما يخيف(1)

وصافية لا تلغي ذاتها أمام غايتها ،كالأحمر الذي يجعل من الهدف العام كل شيء ،انها تمثل واقع النضال الاصلاحي ،تمثل اغلبية الشعب

1 - الرواية . ص : 138 .

التي تحس بكراهية نحو الحرب وآثارها ، وتريد ان تكافح كفاحا بناء بعيدا عن المخاطرة وأكثر ما يتجسد هذا الواقع في جماهير المدن

وقد تحولت صافية الى قوة تحريضية للطيب في سجنه ،فبدأ يستعيد الامل .

وصورها الكاتب عفيفة ،بل وكل الطلبة ،عكس طلبة الطاهر وطار في العشق والموت في الزمن الحراشي .

وجعل الكاتب الطيب وان احتفظ بحب الجازية ،يحب صافية هي الاخرى .

وذلك رمز ربما لسبق مرحلة البناء والوحدة ،على مرحلة العنف الثوري لتحقيق الحلم ، وضرب الطبقة البرجوازية الكومبرادورية ، بقوة .

وعلاقة صافية بالطيب ستتوطد بالمراسلة ، وان كنا لا ندري نهايتها .

هادية في موقف التواصل بين الاجيال :

كانت هادية على موقف زوجها في الغالب ، ورأيها في الشامبيط هو نفس رأيه " الشامبيط نخافه ولكن لا نطيعه في الرحيل . . .

العروق هنا ! الانسان كالشجرة تربطها بالارض عروق ،اذا اجتثت من عروقها ماتت "(1) .

لكن بعد سجن الطيب بدأت تعبر عن خوفها من كلام زوجها عن

1 - الرواية . ص : 61 .

العروق " قالت حمادية لزوجها كالمؤنبة :

- أنت لا تتحدث الا على العروق ... هكذا كنت تقول للطيب: : . دعنا من هذا الآن!"(1). لقد أحست أن العروق أو الماضي ،خطــر على ابنها وعلى غيره .

والحقيقة أنها بمسالمتها ،وحبها ،للزوج والأبناء لم تكن زوجا أكثــر منها أما كما كانت خيرة في ريح الجنوب ،ولذا فان كانت علاقتها بزوجهـا تشدها الى الماضي ،فعلاقتها بأبنائها تشدها الى المستقبل .

وقد رأيناها أثناء اقامة الطالبين المتطوعين معهم ، لا تحجر عليهمـا كلاما وسلوكا ،الفتاة في ذلك مثل الفتى ، وقد كان الجو في غاية الديمقراطية لولا غيرة الطيب من الأحمر . وجرأة أخته ،هذه الغيرة التي تجعله يحـاول اشعارها بأنها لا حق لها ،في الكلام الحر ،والسلوك الحر .

وعندما جاء عايد المغترب وكان الطيب في السجن ،أتاحت الأم ،الفرصة كاملة لابنتها ،للتعرف عليه ،وموقف الوالد نفسه قريب من هذا الموقـف فهو حين يأتي ويجدهما وحدهما في البيت ،لا يغضب ،وان كان يبعث الى زوجه لتحضر من عند جارتها العجوز عائشة بنت سيدي منصور مربية الجازية ،تحضر لأن هناك ضيوفا لديه .

والحقيقة أنهما يريدان تزويج ابنتهما ،والجديد أنهما يتيحان لها فرصة الاختيار ،سواء مع الأحمر لو تطلع الى ذلك ،أو مع عايد الذي أحبها وتوج حبه بطلب الزواج منها .

فهناك نقطة تواصل بين الجيل الماضي ،والجيل الجديد ،وليســت

---

1 - الروايـــة . ص : 52 .

الهوة بينهما مردومة تماما .

وقد لمسنا ذلك في تعليم الطيب فهو طالب جامعي ، وفي قبول أسلوب الاختيار ،في الزواج ،خاصة ان هذا الاختيار لم يكن يضادهم . (اختيار حجيلة).

ولنستمع الى عادية وهي تعبر عن قبولها لعايد زوجا لابنتها " حجيلة فعلا تليق به ويليق بها! لولم يكن يرغب فيها لغادر الدشرة منذ أيام. هاهوذا لا يذكر حتى الذكر مغادرة الدشرة! لماذا!؟ لانه يمهد للزواج بتمديد اقامته هكذا ...

ذهب الى المدينة مرتين منذ أن جاء الى الدشرة . في كل مرة منهما عاد محملا ببغل من الهدايا والمأكل اللذيذة ! حجيلة تحب الاشياء اللذيذة .

باختصار ،في نظر الأم أن عايد ارجل طيب ،لا تجد حجيلة زوجا مثله . ولاسيما أنه يسكن في المدينة!"(1).

والأم راضية عن رحيل ابنتها الى المدينة عكس خيرة في ريح الجنوب.

والهاذية هي الأخرى رمز في الاسم أولا ، ثم في الماضي ،حيث تزوجها الأخضر وأحبها صديقه السايح في صمت ،وفي ذلك رمز لاتحاد الجزائريين في الداخل والخارج والتفافهم حول الوطن .

---

1 - الرواية . ص : 163 .

و" استخدام الرمز قديم كأداة فنية لاثراء العمل الأدبي ،وعلى قدر ذكاء الأديب في ايجاد العلاقة التي تربط الرمز بموضعه من التجربة يكون نجاحه ،وقد استخدمت الرواية الرمز ... متشحة بجماله الفني وعمقه في التعبير عن المعنى ـلتعبرعن فكرة أبعد مما توحي به الحكاية في الرواية"[1] و" ان في الرمز جمعا لمعان مختلفة وأحيانا عمقا سحريا يختبئ خلف المظاهر ،فالأدب الرمزي يفرض على القارئ قراءة واعية ويدعوه الى كشف المعاني الخفية في غوصه عليها ،اذن فالقارئ مدعو الى المساهمة في فكرة المؤلف والى طاقاته في تفكيره . وهذه القراءة الواعية ،المسماة لاحقا خلاقة ،تقرب القارئ من المقروء "[2].

وفي الرواية تفسيرات مباشرة للرمز ،وايحاءات متروكة لجهود ومجهودات القراء .

فمن التفسيرات المبثوثة في الرواية مايلي فيما يتصل بشخصيةالجازية .

يقول راعي السبخة " الجازية أكثر من امرأة "[3] والناس اذ يقتتلون عليها . انما " يقتتلون على صيانة شرفهم"[4] ،ويقول الأخضر " الجازية ليست فتاة هي حياة من دخلت داره فاض خيره وعلانجمه "[5] ، ويقول عن موقف الأحمر منها" نحن حرثنا تعذبنا أيام القر وهو جاء ليحصد الغلة ! جاء ليتزوج بالجازية"[6] ،ويقول الدرويش " أتدري أي شيء هي الجازية بالنسبة للدشرة ؟

---

1 ـ د . طه وادي صورة المرأة في الرواية المعاصرة مركز كتب الشرق الأوسط . القاهرة 1973 . ص : 112 .

2 ـ ترجمة هنري زغيب الأدب الرمزي منشورات دار عويدات بيروت ط1 . 1981 . ص: 10 .

3 ـ الرواية . ص : 35 .

4 ـ نفس الصفحة .

5 ـ الرواية . ص : 73 .

6 ـ الرواية . ص : 96 .

هي الحلم الذي يبيت كل ليلة في فراش كل راع وكل فلاح وكل درويش
هي العروق الماضية وهي الثمار التي ستولد ! هي حمامة حائمة فوق رأس جبل
من يستطيع قبضها " (1) .

والحقيقة أن الجازية في رمزيتها قد غال الكاتب عن طريقها الكثير
فهي رمز يضيء واقع التطلعات والتوجهات المستقبلية اضاءة باهرة حقا وصادقة
وقد يقصد الكاتب الى توظيف مفاهيم معينة ،وقد يستخلص القارئ مفاهيم
أخرى لم تخطر على بال الكاتب .

ان اسم الجازية مثلا مفتاح من المفاتيح الرمزية ،انه اسم منتقى من سجل
الحضارة العربية الاسلامية ،وعبد الحميد بن هدوقة بعد أول روائي جزائري
يختار اسما تراثيا ،على خلاف البعض الذين يستعملون اسماء مألوفة وأحيانا
أجنبية لشخصيات رمزية هامة ،وعلى كل فايمانه بأصالته الحضارية غير خفي
فهو يؤكد على الوحدة العربية مثلا في قصته " حلم الصيف " (2) من مجموعة
الأشعة السبعة كما يقول في مقدمة هذه المجموعة " فجمع قصص تعالج
مواضيع جزائرية وتونسية في مجموعة واحدة لكاتب جزائري اذن ان عبر عن شيء
فانما يعبر بالدرجة الأولى على أن وحدة العروبة سواء على المستوى الاقليمي
أو مستوى الوطن العربي الكامل هي أمر مصيري وأكاد أقول حتمية تاريخية
ومستقبلية معا " (3) .

بل وهناك نزوع الى الوحدة الاسلامية في الرواية (4) .

والكاتب على وعي تام بتوظيفه للجانب التراثي اذ يقول " فتوظيفي
للتراث يبتعد عن الطريقة المستعملة غالبا ،التي تتخذ من اشخاص تراثيين

1 - الرواية . ص : 172 .
2 - المرجع السابق . ص: 107 .
3 - المرجع نفسه . ص : 7 .
4 - الرواية . ص : 77 .

رموز الأشخاص يحيون في الواقع أنا أحببت ان يكون التراث " ملهما "، ينتقل المرء فيه بطريق التداعي من حقيقة وجدت تاريخيا . الى حقيقة متخيلة حاضرا ومستقبلا . ان الجازية في الرواية رمز من جهة ،للجزائر - الوطن حتى في الحروف التي يكتب بها كلا الاسمين ، وهي من جهة أخرى تطور بقضية المرأة التي حاولت معالجتها في كل أعمالي السابقة تقريبا ،تطويرها من مستوى الواقع الى مستوى الرمز . وهي من جهة ثالثة ،حتى في مدلولها اللغوي ، تعني أن من أحبها وأخلص لها جزته عن غيرها ،ومن هنا يمكن التدرج ذهنيا بالقارئ العربي نظرا الاشتراك العرب في خلفيات دينية وتاريخية وأدبية واحدة يمكن التدرج به . . الى الحقيقة الدينية "حب الوطن من الايمان" ،والى الحقيقة الشعرية التي يمثلها الحب العذري الذي هو في نهاية المطاف تقديس للجمال الروحي . والجمال الروحي عين العبادة في الأديان وخاصة الاسلام : "اعبد الله كأنك تراه" ،فالجازية - الوطن ايمان ،وحبها تقديس وعبادة أي نوع من التوقان الى اللامادة " (1) .

وكل شخصيات الرواية رامزة ،وهي في الغالب لها جانبها الواقعي شكلا ومضمونا ،أما الجازية وكذلك الأحمر والدراويش ،في خاصية لحسهم للمناجل المحماة في النار فيبدون واقعيين مضمونا لا شكلا ،وكذلك تبدو الجازية في خاصية بقائها شابة لا تشيب .

وظف الكاتب الأسلوب الرمزي ،للايحاء بمشاعر لا يستطاع التصريح بها باللغة الوضعية لأنها غامضة .

ومن أمثلة ذلك احساس الطيب بالجازية احساسا غريبا (2) ،هذا الاحساس

---

1 - من رسالة الكاتب للدكتور السيد عاية أبو النجا .

2 - الرواية . ص : 77 .

الذي يجعله رغم حبه لها يحاول التهرب من الزواج منها .

ولعل تلك هي قوة القدر التي تتهيا للطيب على هيئات مختلفة

يقول الطيب " في الممر الضيق المؤدي لبيتنا الذي تحف به الاشواك التقينا براعي السبعة . وبمجرد أن رآنا قهقه قهقهة عالية دون أن ينبس بكلمة وانطلق جاريا مع الطريق المنحدر الذي يربط الدشرة بالساحل كان بلاغنام ،بقيت في سمعي ضحكاته عالية متجاوبة ذات أصداء لا توصف قلت لحجيلة ،" لماذا يضحك هكذا " ردت علي بدهشة وخوف من " الذي يضحك "؟ " راعي السبعة ا ألم تريه "؟ نظرت الي محملقة حائرة (1).

* * *

البطولة الجماعية واضحة في الرواية ،وكل شخصية نالت من الكاتب الاهتمام الكافي ،لتكون ملحوظة فيما هي فيه ،وان لم يمنع هذا من اعطاء رتب ومستويات للشخصيات حسب الأدوار التي أدتها . وهذا الجانب الفني ،يعكس الواقع بصدق ،وقد صور الصراع عبر ثلاثة تكتلات هي : الطلبة المتطوعون ، سكان الدشرة ،والشامبيط وأعوانه .

هذه التكتلات التي عنيت عبر ممثليها ورموزها بصنع مستقبل محدد فريق يوالي الاتجاه الرأسمالي ويمثل البرجوازية الكومبرادورية ،وفريق مقارب للاتجاه الشيوعي ،ويمثل البرجوازية الصغيرة المدينية ، وفريق يمثل اتجاها اشتراكيا أصيلا ،ويمثل أهل الدشرة من فلاحين صغار ورعاة ودراويش ،ونساء ، وهناك عدا ذلك شخصيتان في اطار التكوين والبحث عن انتماء محدد وهما الطيب وعابد .

---

1 - الرواية . ص : 78 .

وفي هذه الرواية يصور الكاتب الصراع الطبقي باعتباره صراعا عالميا ، لا داخل وطن محدد ،كما سبق له أن عكسه في الروايات السابقة ، وان كنا لا نعدم فيها اشارات عاجلة غير مركزة للصراع العالمي الطبقي .

ويبلغ الكاتب قمة النجاح في مزج الخاص بالعام عند أغلب شخصياته التي تبدو عواطفها الشخصية وثيقة الصلة بتطلعاتها العامة ،في التغيير، والثورة .

ولم يكن الجانب الشخصي ليتحكم في الجانب العام كما رأينا ذلك في ريح الجنوب مع نفيسة وفي بان الصبح مع دليلة ،بل العكس هو الصحيح والجازية وحجيلة وصافية أمثلة طيبة على ذلك .

وأغلب شخصيات الرواية ،شخصيات مركبة ، تتجاذبها أكثر من صفة لها ماض وتجربة ، ومن الصعب العثور على الشخصية البسيطة في الرواية اللهم الا شخصية الهادية التي تميزت بهدوئها ومسالمتها في كل الظروف.

والشخصية النامية بارزة في الرواية ، منها شخصية الجازية في حبها للطيب منذ الطفولة ورفضها لخطوبة ابن الشامبيط ،ثم حبها للأحمر، ثم عودتها لحب الطيب في الاخير .

وكذلك حجيلة في حبها للأحمر ،ثم في حبها لعايد ،مع الاشارة الى رمزية هاته الشخصيات اذ أنها اتجاهات .

وكذلك شخصيات سكان القرية ،والأحمر ،والشامبيط فالجازية هي التي قلبت حياتهم ،فتصارعوا حولها .

* * *

جاء استعمال السرد في الرواية محدودا ،ومصاحبا للحوار الداخلي ،

أو الخارجي ،ومن أمثلة النوع الأول يقول " أليست حجيلة هي الصورةالأولى التي ملأت نفسه بهجة واشراقا ؟

صحيح ،عندما رآها مقبلة على العين ،في جمع من النساء ،لأول مرة لم تكن في ظنه هي حجيلة بنت صديق أبيه الأخضر بن الجبايلي، كانت الجازية العظيمة التي قطع من أجلها البحار !

ترى ماذا ستكون عليه مشاعره لو تمكن من رؤية الجازية ؟ كيف ستتعايش الصورتان في نفسه ؟ انها تجربة خطيرة لأنه لو محا حسن الجازية من نفسه حسن حجيلة محوا كاملا ،لخسر أجمل ذكرياته وهو يضع رجله لأول مرة في هذه الدشرة ،ستضيع منه حجيلة والجازية معا . لكن التجربة تستحق الممارسة ،انها بمثابة مغامرة يقدم عليها المرء ،رغم علمه بما يحفها من مخاطر "(1).

فالكاتب حسب النص الذي بين أيدينا يستبطن شخصية عايد ،وقد صوره منحازا الى المغامرة بالتجربة ،لو خسر حجيلة والجازية معا ،وهذا النحو من التصوير يترك الشخصية حرة ،تفعل ما تريد ،ويتوقع منها القارئ الشيء وضده من خلال تعريضها للتجربة تلو التجربة .

والسرد بضمير المتكلم استحوذ على نصف الرواية . والمتكلم هو الطيب الذي حمله الكاتب الكثير من أفكاره فيما أعتقد ،وقد بدا موضوعيا ،في تقويمه للماضي ،والأحداث والشخصيات والموقف عامة ،مما يتلاءم مع موضوعية ابن هدوقة نفسه .

والنص التالي يوضح هذه الملاءمة " الناس ينتظرون مشاريع خضراء

1 - الرواية . ص: 106، 107 .

وهو جاءهم بمشاريع حمراء ! قال لهم لا تغتروا بالخضرة ان مثلت الربيع فلن تمثل النضج بحال !

ما أكبر كلماته ! قال له أحد الدراويش : " الماء يهبط من الجبل لا يصعد اليه !.

رد عليه الأحمر : " أنتم صعدتم الى الفقر لم يصعد اليكم ".

لم يعجب الدرويش هذا الكلام فاستعمل الهجوم : نحن نصناع الطبيعة وأنتم تتصارعون فيما بينكم "!

كلمة جبلية تساوي سنة جامعية "(1).

فالطيب ومن ورائه الكاتب ، معجب بالمنطقين الى حد ما ، ووراء هذا الاعجاب الذي بدا في التعليق ما أكبر كلماته ، وكلمة جبلية تساوي سنة جامعية ، وراء هذا الاعجاب الايحاء بالأخذ بهما معا متكاملين .

وفي نهاية الرواية يصل الطيب في الموقف العام كله الى هذه النتيجة وهي أن الأحمر وسكان القرية القديمة كلاهما على حق عموما ، في مواجهة الشامبيط ، وأن المخرج ، لا يكون الا بالوحدة الأصيلة بينهما .

والكاتب موضوعي من ناحية تصوير المواقف ، وبطريقة تعدد المواقف ، يشكل الرواية ، التي تعكس وجهات نظر متعددة ، ويمكن أن ندلل على هذه الميزة الفنية بمسألة مقتل الأحمر ، فالقارئ لا ينتهي الى تبين واحد منها (2) ، مما يثير الغموض ، ويحرك الذهن ، ويوحي ، بأبعد مما في الرواية .

---

1 - الرواية . ص : 21 .

2 - الرواية . ص : 96 ، 97 ، 98 ، 99 ، 173 .

ومن أمثلة ذلك أيضا ما يحمله النص التالي من مواقف رغم قصره " قال السكان جاءوا لقضاء عطلتهم في جبلنا ! قال الشامبيط أرسلتهم الحكومة ! قال الطلبة ،جئنا لمساعدة السكان . لكل طرف فكرة وراء رأسه "(1) .

* * *

تطلب التعبير عن البطولة الجماعية توظيف الحوار الخارجي ،لتصوير العلاقات الاجتماعية ،ومستويات الشخصيات ،وقد تنوع الحوار بين طويل وقصير، حسب طبيعة الأحداث والشخصيات ،فاذا كانت المناقشات الدائرة تتطلب أسلوب الحوار المطول الى حد ما للاقناع والتأثير ،فهي لا تتطلب أحيانا الا حوارا مركزا واضحا وقويا .

وحوار الأحمر مع الطبيب ،ووالده ،وصافية ،والراعي ،والدرويش ،والسكان وحجيلة هذا الحوار يملأ صفحات الرواية ،ويعكس جرأة الأحمر ووجهة نظره بوضوح ،الى درجة أن الطبيب يلاحظ أنه " كان يقول كل شيء يخطر على باله . لست أدري ان كان ذلك نوعا من الاعتداد بالنفس أو ماذا ؟ "(2) . وليست شخصية الأحمر وحدها التي قدمت بواسطة الحوار ،فهناك حجيلة ،والطبيب والأخضر والدراويش وصافية ،والامام ،والراعي ،وعايد ،ولكن هذه الشخصيات الأخيرة ،أغلبها قدم بالحوار الخارجي وبغيره من الأساليب ،أما الجازية فلم تقدم بالحوار الا لماما فقط .

والحوار عند ابن هدوقة مختلط بالسرد في الغالب .

---

1 - الرواية . ص : 55 .

2 - الرواية . ص : 68 .

" صافية لم تتعش معنا . قال لها أبي ،أنت يا بنيتي مكانك مع النساء .
مادمت بيننا دعينا نرتب أمورك حسب ما يرضيك ويرضينا . سترافقك حجيلة
في تنقلاتك في الدشرة . تتصلين بالقرويات تساعديهن ،ترشديهن ،تتعرفين
على حياتهن عن كثب . المرأة لا تستحي من المرأة . تستطيعين أن تصلي الى
ما تشائين معهن . أما اذا بقيت مع الطلبة فستكونين أمثولة . كل القرويات
يحتمين منك ،ولا يكشفن لك عن حقيقتهن "...

استصوب الطلبة رأيه ،باستثناء الأحمر الذي قال "، لم نأت الى هنا
لنتعلم حياة القرويين ،جئنا لنقوم بمهمة ، ومهمتنا نحن الذين نحددها"!

أما كون كلامه منطقيا فليس أحد يشك في ذلك ،لكن مجابهة أبي
القروي ،بذلك الأسلوب بدا لي مشتطا .

لم يتكلم أحد ليضيف شيئا أو يعلق ،التفت الجميع الى صافية
يستفسرونها رأيها بالنظرات قالت صافية :- كلام عمي الأخضر معقول ،المهم
هو النتيجة لا الطريقة!لم يستسلم الأحمر . رغم أن الجميع بدا عليهم
الارتياح لموقف صافية . قال :

- ربما لم أعبر عن رأيي بطريقة ذكية! ما أريد أن أقوله هو أن مهمة
صافية قد تكون أعسر من مهماتنا نحن . لذلك بدالي أن مجرد رضوخها لرأي
لم تشارك في صنعه يسلبها حريتها ،ان من يعمل على تحرير الآخرين يجب
أن يكون أولا حرا . ينبغي أن تكون صرحاء مع بعضنا بعضا . لا نوارب ولا ننافق
أنا شخصيا لم آت لاستجداء الرضاء من أحد ...

قاطعه أحد الطلبة :
- لكننا لم نأت لاسخاط الناس!
ضحك الأحمر ساخرا من سذاجة رفيقه ،وقال :.

- أتعتقد أن هذا السروال الذي تلبسه صافية وتدخينها أمام القرويين لم يسخطهم بعد ؟

أبي لم يعجبه الحديث ،قال مبتسما وابتسامه عادة يعبر عن سخطه

- سكان هذه الدشرة متعودون على كل شيء ،لا يرضيهم ولا يسخطهم الا ما فعلته أيديهم . أنتم الآن ضيوف استريحوا الليلة ،وغدا اعملوا ما ترون لائقا بكم . اذا أرادت رفيقتكم أن تكون معكم فهي أعرف بما يصلح لها.(1)

وفي هذا الحوار تظهر وجهات نظر :الاخضر ، والطلبة المتطوعين والأحمر ،وصافية .

أما رأي الأخضر فقد عبر عن مسألة الفصل بين الجنسين في القرية وبرر ذلك بالقيم السائدة ،التي تعرقل أية مهمة مختلطة .

أما الطلبة ،وصافية ،فقد وافقوا الأخضر ،مقدمين النتيجة على الطريقة ، ومفضلين كسب أهل القرية .

أما الأحمر فقد عارض بقوة ووضوح ،فالفكرة مرفوضة .وان كان الرفض في المهمة صعبة ،والطلبة في نظره يجب أن يكونوا أحرارا من أجل تحرير الآخرين ولا يهمهم سخط أهل القرية .

وكان رد الأخضر ،أن ترك الطلبة دون مهماتهم ،وأن ما يفعلونه لا يجب أن يسخط القرية أو يرضيها ،لأنهم ليسوا أبناءها فماهم الا ضيوف .

وفي الحوار كانت كلمة الأخضر ،وكذا كلمة الأحمر ، أطول من كلمة الطلبة وكلمة صافية ،لأن الرجلين تناولا الموضوع بالتحليل ،بينما اكتفى الآخرون بالرد .

---

1 - الروايـــة . ص : 71 ،72 ،73 .

وقد امتازت لغة الأحمر بالحدة على عكس لغة الأخضر وباقي الطلبة فيسودها اللين عموما .

والحوار أدى وظيفته الفنية في بناء الرواية ،اذ صور خطوط الاتفاق بين الطلبة وأهل الدشرة ،وخطوط الاختلاف التي تجمعت في حوار الأحمر وشخصه وهي خطوط تطورت عبر الرواية الى اتجاهين ،اتجاه أدى الى مقتل الأحمر الغامض ،وآخر أدى الى الكفاح المشترك للطلبة والسكان ضد الشامبيط وأعوانه .

* * *

تطور أسلوب ابن هدوقة المرتبط بالتراث والتقاليد تطورا كبيرا فظاهر على مستوى اللغة والشخصيات والأحداث ، مستوحيا القرآن والسنة ،والتاريخ .

فهناك آية تمثل فلسفة القصة (1) ،وهناك ما جاء من السنة في محاورات الدراويش (2) ،وهناك التاريخ في اسم الجازية ،وفي اشارات أخرى :

" أخبار مزوقة مفضضة كأجنحة البراق" (3)

" الجازية ... أصبحت كصاحبة الراية في الجاهلية" (4)

" جدتها الأولى الكاهنة ،وجدها القريب صاحب الحمار" (5)

" انهم يتمثلون هؤلاء الطلبة واشتراكيتهم ،"كالخرمية " القديمة أيام المعتصم ... اذ ما معنى أن تمشي فتاة مع ستة رجال باسم التطوع " (6)

1 - الرواية . ص : 20 "لها ماكسبت وعليها ما اكتسبت "
2 - الرواية . ص : 85 ، 87 ، 88 ، 89 .
3 - الرواية . ص : 27 .
4 - الرواية - ص : 26 .
5 - الرواية . ص : 64 .
6 - الرواية . ص : 81 .

ومن خلال رواية الجازية والدراويش تبدو للكاتب ثقافة تاريخية عميقة ، وهو لا يستعملها استعمالا جامدا بل هي حية لها وشائج قوية بالحاضر .

يقول السجين الثاني " آبوليوس أو " آبلو " كاتب جزائري قديم في عهد الرومان . كتب رواية سماها " حمار الذهب " هي هذه في صفحاتها الاولى يخاطب القارئ هكذا :

أخذ الكتاب وبدأ يقرأ !" سوف تبتهج عندما ترى كائنات بشرية تغير طبائعها وخلقاتها لتأخذ أشكالا أخرى ، ثم بحركة معاكسة تتحول من جديد الى صورها الاولى ..." هكذا تماما رجال النقابة ! يتخذون أشكالا مختلفة لاشكالهم كالحرابي ،ثم يعودون آليا الى طبائعهم الاولى عندما ينفرد كل واحد منهم بنفسه ! انهم أشخاص يملأ الليل رؤوسهم ! (1)

فالكاتب قد كشف عن كاتب قديم كان يظن بأنه روماني ،والى الرومان تنسبه الكثير من الكتب ،ولعله من خلال ذلك يريد التأكيد على أن العبقريات الادبية وغير الادبية غير غريبة عن أرض الجزائر .

والنص يوظف تلك الحركة السحرية الخرافية ليصف حركة بعض رجال النقابة ،وفي ذلك كشف لجانب من جوانب الصراع الدائر داخل منظمة عمالية ، بل وفي سائر المنظمات الجماهيرية في الجزائر .

كما وظف الكاتب الزردة ،والكرم ،والشرف ، والايمان بكرامات الاولياء والايمان بالارواح ، توظيفا فنيا ناجحا ،لعب فيه الخيال دوره أحيانا .

---

1 - الرواية . ص : 195 .

فالزردة قد ركبها الكاتب من عناصر واقعية وعناصر خيالية (1) مثلا ،وقد جعلها الكاتب مجال تعقد الأحداث بالنسبة لقصة الأحمر ،حيث ،يتحدد مصيره على اثر ما جرى من أحداث فيها ،حيث أدى رقصه مع الجازية ،وتحدي سكان القرية بذلك ،واقتران ذلك بالكارثة الطبيعية ،الى مقتله الغامض .

كما أن مفهوم الشرف في القرية قد أدى الى ادانة الطيب ،اذ أن قتل الطيب للأحمر يعتبر شرفا ،لأن الجازية خطيبته :

" لكن كيف شهد السكان ضد الطيب بن الأخضر أمام المحكمة على أنه هو القاتل ؟

هل رأوه ؟

- أبوه نفسه لم يعارض شهادة السكان !

- هل رآه ؟

- لماذا تريد أن يراه ؟ ألم يكن يعتزم تزويج الجازية بابنه ؟

امتعض عايد من جواب الدرويش . هو يبحث عن الحقيقة والدرويش يتحدث عن الأساطير !

- لكن كيف يشهدون ضد شخص لم يروه بأعينهم ؟ ثم أن قضية الزواج ،قيل أن الطيب لم يكن متحمسا لها ،بل تخلى عنها !

- لم يشهدوا ضده شهدوا أنه القاتل ! ألا تستحق الجازية أن يقتل في سبيلها الرجال ،ويسجن الرجال ؟". (2)

---

1 - من مقابلتي الثانية للكاتب .

2 - الروايـــة . ص : 174 .

* * *

تطورت لغة الكاتب تطورا كبيرا عبر رواياته ،بحيث صارت لغة رمزية متعددة المعاني مجنحة الصور .

يقول الطيب " تختلط الصور في ذهني . . . أرى " زردة " ضخمة حول زمزم بدراويشها يهتفون بنايلة وأساق المشيقين اللذين كتب عليهما المسخ ثم القداسة . وتبدو لي نايلة في صورة الجازية ،وأساف في صورة الاحمر. وتختلط الاصوات والصور في ذهني فأرى هاجرا خلفت صاحبة الراية . حلق حولهما الفجار والتجار ! وأرى الشامبيط في لباس " شريف " أمريكي ،يقود العجوز عائشة بنت سيدي منصور الى حلقة الرقص حول زمزم ! أشعر بالدوار "(1) .

ويقول أيضا " أقول لهم ان هاجرا عندما عادت الى اسماعيل لم تجده وجدت في مكانه سيارة فخمة بأربعة أبواق ، يركبها رئيس لشركة متعددة الرؤوس كأفعى الاساطير"(2) وحتى على مستوى الجمل القصيرة" يضع الدركي القيد في يدي ويقول " القانون " القيد قانون !"(3) ،"ان المدرسة وطن ثان"(4) .

والجملة الاخيرة صورة ظليلة ،تخفي بعض ملامحها فاذا كانت المدرسة وطن ثان لابن الشامبيط فمعنى ذلك أن الوطن الاول لم يعد من حقه .

وقد أجاد الكاتب في توظيف الألفاظ المشعة التي تعبر في قرائنها عن أجواء نفسية رهيبة ،وخاصة في وصف الجازية ،ومن بعدها حجيلة .

" علت ضوضاء وهرج بين النساء ! اتجهت كل الانظار اليهن مستفسرة متسائلة !

---

1 - الرواية . ص : 121 .
2 - الرواية . ص : 122 .
3 - الرواية . ص : 10 .
4 - الرواية . ص : 14 .

لم يكن السبب هينا صغيرا ،انه حدث عظيم لم ينتظره أحد . لقد جاءت الجازية الى " الحضرة "! الجازية التي تشبه الحلم ،والتي لم يتمكن أحد من القرويين أن يقترب منها ،جاءت الى الحضرة !

جاءت ملثمة ،لكن نورها لم يحجبه لثام ،حسنها تيار متموج ، يهز القلوب ! فاض جمالها على الساحة كما يفيض الفجر على الأفق ! الناس مندهشون التفتوا جميعا الى المكان الذي جلست فيه !

علت صيحات الدراويش ، رهيبة تطلب المناجل اللحظة جد عظيمة وجد خطيرة ! الجازية أتت للحضرة . الأمر جد عظيم .

الطبيعة أيضا رأت أن تشارك باعطاء الجو بعدا دراميا رهيبا"(1).

فلفظة النور " نورها لم يحجبه لثام " وقرائنة قد عبرت عن حالة نفسية عميقة وواسعة ، انتشرت في الناس ،والطبيعة . ويستعمل ابن هدوقة نسبة الاشياء غير المألوفة الى بعضها ،مثل " المستقبل هنا هو النظر الى الوراء "(2).

كما يتألق في استخدام المبالغات الجزئية التي ترمز الى تقوية المعنى. يقول " انه يقرأ في أمريكا ، في آخر الدنيا ! ،وأن أساتذته يملكون الأرض ومعها القمر "(3) ، فملكية القمر فيها مبالغة ،ولكنها مبالغة محببة لأنها تصور قوة أمريكا ،كأقوى ما تكون .

ويقول " جاء الى الوطن بسيارة فخمة ضخمة استكبرها فيه الناس قالوا معرضين به ،ان سيارته لها أربعة أبواق !"(4). والمبالغة تكمن في

1 - الروايــة . ص : 87 .
2 - الروايــة . ص : 8 .
3 - الروايــة . ص : 26 .
4 - الروايــة . ص : 29 .

(ان سيارته لها أربعة أبواق).

ويقول عن الأخضر " ان الحجل يسقط قبل أن تنطلق الطلقة من بندقيته "(1) وفي ذلك تصوير قوي لمهارة الرجل في الصيد .

ويجيد توظيف الكناية أيضا " كلمة جبلية تساوي سنة حامضية"(2) و" أنتم صعدتم الى الفقر لم يصعد اليكم "(3) ،" شعروا بالحسرة أن ينجو هذا الشاب مبيطا من الموت ،أيام كان الموت يساوي رصاصة"(4) ،و"ان من يجهل كل ما جرى في الدشرة لا يسكن الأرض"(5).

والايقاع في الرواية ايقاع حي ،فالحركة الرشيقة تسكن اللغة ،والحمل ما بين قصر وطول ،وجزر ومد ، على حسب الدفقات الشعورية ،والفكرية والانسجام بين الألفاظ والحروف في قمة الروعة . "أنت لم تعد جبليا . انني أراك تذبل شيئا فشيئا . ما ينتظرك ان بقيت على هذه الحال هو السقوط أعرف علائم السقوط في الثمار والرجال . المدرسة التي كنت أظن أنها تقويك أضعفتك . صرت كثير التردد ،ينبغي أن أجد لك رأيا ".

فالموسيقى في هذا النص قد تظهر ،في هذه الحروف المكررة ،ونوعيتها ولكني أعتقد أن طول الجمل وقصرها ،والتحامها بمعانيها ،النفسية والفكرية هو ما يوحي بهذا الاحساس العميق بالموسيقى هنا ، فليس هناك حشو أو أية كلمة خارج الوظيفة المحددة للنص .

وهذه الموسيقى تلف الرواية كلها ،ونظلم الكاتب لو خصصنا نصوصا بعينها لهذه الظاهرة .

---

1 - الرواية . ص : 21 .
2 - الرواية . ص : 21 .
3 - الرواية . ص : 28 .
4 - الرواية . ص : 35 .
5 - الرواية . ص : 22 .

ويتصل بهذه الظاهرة ،تركيز وتكثيف العبارة عند عبد الحميد بن هدوقة في " الجازية والدراويش " دون غيرها ،حتى لتبدو عباراته أقرب الى الأمثال والحكم ،في جمالها وايجازها ،وانطباعها في نفس القارئ وعلى سبيل المثال " الزواج جذع والعواطف أغصان "(1) .

ولغة الكاتب ،لغة شعرية وروائية في نفس الوقت ،لأنها تحترم مستويات الشخصية ،وهي لغة فصيحة في أغلبها ،وان لم تعدم الدارجة .

"فتيات القرية وصفن الشبان بأوصاف عذبة الصور ، قالت واحدة تصف الأحمر " شعره كالذرة " ! قالت الأخرى : " عيناه فريكيتان " قالت ثالثة : " بوجهه نمش كالقمر " ،قالت رابعة " طويل كالصفصاف " "(2)

فمنطوق هؤلاء الشابات الريفيات الأميات في الرواية ،مرتبط بالواقع وبالطبيعة من حولهن ومن هنا واقعيته وفنيته .

وان بدت هذه الأوصاف حسية ،فان العرف اللغوي يجعلها مجازية معنوية ،فالقمر مرتبط بالجمال في احساس الناس ،والصفصاف بالكرامة ،والفريك والذرة بالخصب فيما أعتقد .

ووظف الكاتب شخصية البرّاح الذي يدعو للزردة :" يا أهل الدشرة الاخيار ،والسبعة الكبار ! يااللي الناس تزوركم من كل الاقطار ،نهار الخميس، اللي جاء بغرارة يروح بتليس ! زردة ووعدة ،على خاطر ،شبان أضياف ،هم الراس ،واحنا الاكتاف "(3) وفي هذه الدعوة نجد تقديرًا لناس القرية

---

1 - الرواية . ص : 220 .
2 - الرواية . ص : 97 .
3 - الرواية . ص : 69 .

"الاخيار" وللأولياء السبعة "الكبار" في لغة البرّاح وفي زيارة الناس لهم ،نجد تأكيدا على ذلك التقدير ،ووعدا بعموم الخير "الى جاء بغرارة يروح بتليس" ،وتبريرا لاقامة الزردة " من أجل خاطر شبان اضياف" ،وكناية عن التحامهم بهم "هم الراس واحنا الاكتاف" .

واللغة المستعملة لغة جميلة ذات ايقاعات موسيقية من حيث انسجام الألفاظ والحروف والجمل ،وحركة الافعال .

ف : السبعة الكبار ،نهار الخميس ،زردة ووعدة على خاطر ،شبان اضياف ،هم الراس ،واحنا الاكتاف ،كل جملة ذات مقطعين .

الاخيار ،الكبار ،الاقطار ،تشترك في حرفين الراء والألف وكذا الخميس وتليس ،واضياف ،واكتاف ، تشترك في الياء والسين ،والألف والفاء ،وزردة ووعدة ،تشترك في حرف الدال .

فالنص قصير وبليغ ،ويمثل ثقافة الشخصية من ايمان بالاولياء ويقيم الكرم والضيافة .

واذا كان استعمال اللغة الدارجة يكشف عن غنى التراث فهو في الحقيقة يأخذ من اللغة الفصيحة مكانها شيئا فشيئا ،لان المفروض أصلا أن هناك أدب اللغة الفصيحة ،والى جانبه هناك الدارجة ،ولا حاجة بنا الى افتعال صراع بينهما ، في فن الرواية أو غيره .

* * *

يوظف الكاتب السخرية ،ويقدم صورة مغرقة في الخيال عن نساء ورجال المدينة والريف ،مستعملا مقدمة منطقية خاطئة للوصول اليها ، كمثل

قول البحتري يحتج لتفضيل الشيب وتزيينه :

وبياض البازي أصدق حسنا ان تأملت من سواد الغراب ،

مع أن فضل الشباب ليس في السواد .

يقول الامام "اذا كان قوام المرأة في المدينة ستة رجال ،فامرأتان قوامهما اثنتا عشر رجلا (1) ! وبهذا الحساب رجل واحد من الدشرة يساوي أربعة وعشرين رجلا من المدينة .." ! لأنّ رجل الدشرة يستطيع التزوج بأربعة نساء" (2)

كما وظف السخرية ،في الفخ الذي نصبه الرعاة لمايد (3) موحيا بأن الرعاة أذكى من المثقفين أو المهاجرين الذين يتسمون بنوع من روح التعالي .

واستعملها على مستوى الفكرة واللفظة ،كالمرأة التي أقام لها الدراويش حضرة في المدينة ،تريد أن تلد وهي في الستين (4) ،ويقول الدرويش ساخرا من المدينة "في المدينة كل شيء مصبر حتى العباد " (5).

---

1 - الصحيح اثنى عشر رجلا .
2 - الرواية . ص : 81 .
3 - الرواية . ص : 157 .
4 - الرواية . ص : 170 - 171 .
5 - الرواية . ص : 170 .

* * *

أ - يعتبر عبد الحميد بن هدوقة فاتحة الروائيين في توظيفه للمنظور الحضاري ،وان كان البعض قد وظفه بصورة أقل بروزا ،كاسماعيل غموقات في مسألة تأميم أراضي الملاك الكبار ،وفي الاحتفال بالاخلاق (1) ،ولا نعدم التوظيف الجزئي عند الكتاب الاخرين عامة .

ولكن لعبد الحميد بن هدوقة السبق في التوظيف الشامل للمنظور، ليس غريبا على الساحة الجزائرية عموما ،فهناك منادين كبار بسلفية اسلامية معاصرة كالامام عبد الحميد بن باديس وغيره من المصلحين ،وكالكاتب الجزائري المعروف مالك بن نبي على سبيل المثال .

وفي اطار هذا المنظور يأتي التعامل مع الاتجاهين المسيطرين حاليا في العالم ،الاتجاه الرأسمالي ، ونقيضه ،فيدين الكاتب الرأسمالية عن طريق أغلب الشخصيات ادانة كاملة ،عبر الحركة الاستعمارية اللفاشية التي تولدت عنه ،والتي تواصل زحفها في ثوب الاستعمار الاقتصادي حيث اظهر الكاتب خطر الشركات المتعددة الجنسيات في الجزائر وخطر البرجوازية الكومبرادورية التي تساندها ،وفضح وسائلها في الوصول الى أهدافها المريبة ،من وسائل ترغيب وترهيب ورشوة وقمع (رشوة مكاتب الدراسات الوطنية ،والقمع الذي يديره الشامبيط) ، وفضح غاياتها لتعريب مستقبل الجزائر والعالم الثالث عامة ،بالمشروع المغرض الذي يبني القرية الجديدة (المستقبل) على أرض زلزالية وغير صالحة للزراعة ، ويقيم السد بينها وبين القرية القديمة وجامع السبعة (أي الجزائر التاريخية الأصيلة) (2) ، وقد كان الكاتب جريئا جدا في هذا الكشف النقدي الواضح .

---

1 - ماسماعيل غموقات الشمس تشرق على الجميع .
2 - من مقابلتي الثانية للكاتب .

وهو أيضا يقيم الاتجاه المقارب للشيوعية في الجزائر رافضا الجانب الديكتاتوري فيه ، والجانب - الالحادي - مؤكدا على الجوانب الايجابية المديدة ،تلك الجوانب التي تتفق تماما مع الذات الحضارية كالعلم والتقنية والتخطيط والعدل الاجتماعي والعمل .

وقد جاء نقد الكاتب لعمل هذين الاتجاهين الأجنبيين في الجزائر فنيا موضوعيا مقنعا ،لربطهما بالبنية الاجتماعية الجزائرية المتميزة عنهما .

ب - رواية الجازية والدراويش هي قمة أعمال الكاتب كلها على ما أعتقد في فن الرواية أو في غيرها من الفنون الأدبية التي يمارسها .

بل هي العمل المرشح للخلود الى حد الآن في نظري العمل الذي ارتفع به ،الى نفس مستوى كتاب كبار متميزين كـ" غابريال قارسيا ماركيز وكاتب ياسين "(1) .وغيرهما ،فهناك نضج كبير في الرؤية ، وتجاوز للأعمال السابقة ،والمتتبع لابداعات الكاتب يدرك أن هذه الرواية الأخيرة مولود جديد ،مثلث له رواياته عموما وحتى قصصه وخاصة قصة" الوصية"(2) من مجموعة الأشعة السبعة ،مثلت له ارهاصا قويا ،من حيث تناول الفترة الانتقالية ،وتعدد المواقف ، أي من حيث الرؤية عامة ،ونبع الرمزية هناك هو النهر في الجازية والدراويش ،والرمز للثورة والوطن والمستقبل ،بدلمرأة واحد وكذا توظيف الرموزته التراثية واللغة الشعرية وتضمين الشعر .

---

1 - F.C(FERHAT CHERKIT) EL-MOUDJAHID No DU 15 /7 /1984 P:1.

2 - المصدر . ص: 133 .

الخاتمـــــة

ان وحدة كل رواية من روايات عبد الحميد بن هدوقة ،تجلـــت في التأريخ لفترة ،فقد جرت أحداث" ريح الجنوب " ، في عام 1964 ، أي بعد الاستقلال بعامين ، وقبل انقلاب 19 جوان 1965 ، وجـــرت أحداث " نهاية الأمس " في عام 1967 ،أي بعد 19 جـوان بعامين وجرت أحداث " بان الصبح " في سنة 1976 أثناء مناقشات الميثـاق الوطني ،وأرخـت " الجازيـة والدراويش " لفترة الرئيس الراحل بومديـــن مع الملاحظ أن هذه التواريخ مرتبطة بما قبلها ،بالحرب التحريريـــة ، وبالحربين العالميتين ،وبالغزو الأجنبي ،وبالفتح الاسلامي ، وبالتاريـــخ عامة ،وبما بعد أيضا أي بمنظور المستقبل .

وقد كان هذا التأريخ فنيا صادقا ،يكشف عن البنية المعقـــدة للمجتمــع الجزائـري .

هذه البنية التي تضم في أحشائها عددا من البنيات ،فالبنيـــة الاجتماعيـة القديمة لنمط الانتاج الآسيوي ما قبل الرأسمالي مستمــرة ، والبنية الاقطاعية غير ناجزة ومسدودة الأفق ، والبنية الرأسمالية الصناعية غير ناجزة ومشروطة في تطورها بالتبعية لنمط الانتاج الرأسمالـــــي العالمي ،والبنية الاشتراكية في طور التكوين .

والحقيقة أن الروائي قد حقق سبقا جوهريا في الكشف عن حركية البنية الذاتية للجزائر وقد خلص الى تبني وتحديد الاشتراكية في بلـــدنا ، من خلال الخصوصية الحضارية ،والمساهمة العالمية ،مصورا قبـــــول البنية لايجابيات التراث ،ولايجابيات من المعسكرين في حدود الانتماء العربي الاسلامي طبعا ، كما كان نقده للسلبيات مزدوجا أيضـــا .

وهكذا لم يتنكر ابن صدوقة وليد الفكر النهضوي لأصالته ، كما لم يكن شوفينيا ، وطلب المعاصرة .

وفي نظرة ابن صدوقة ،تأخذ صورة المرأة حيزها الطبيعي المساوي لصورة الرجل ،وتلك ميزة تقدمية للكاتب ،في فنه عامة ، لا في رواياته فقط .

فالمرأة لديه ،انسان شامل بكل جوانبه ، وهي مصورة طفلة وشابة وكهلة وعجوزا في نماذج ومواقف تعكس بعمق المتغيرات والثوابت الاجتماعية .

نموذج للارهاص بالثورة الاجتماعية ،وللاصالة واتقان العمل ، وللضحية أثناء الحرب التحريرية وبعد الاستقلال ،وللتمزق الاجتماعي والحضاري وللنضال في الريف والمدينة ،بوعي ،وعفوية ، عند المثقفة والامية ، وللاصالة والمعاصرة .

ومواقفها مصورة من أهم المسائل المطروحة في الواقع ،مواقفها من الزواج ،والزواج - الانتماء والجنس ،والعمل غير الشرعي ،والحب ،ومن العمل في البيت وخارجه ،ومن الماضي ،والتواصل بين الأجيال ، ومن الحياة المدينية والريفية ومن السياسة .

وقد صور الكاتب الشخصية عامة والشخصية النسائية خاصة باقتدار ،وشخصيات كالعجوز رحمة ،وذليلة ،والجازية ،على سبيل المثال شخصيات لا تنسى بعد القراءة .

وقد نقد الكاتب ضعف المرأة واستسلامها في صورة خيرة ،ورقية على سبيل المثال كما نقد انحرافها في صورة دليلة ،وناجية ،وكشف

عن فعاليتها وقوتها وامكاناتها في الجازية ،وجميلة ،وصافية ،كما اتخذها رمزا للوطن ،والاصالة ...الخ .

ويهتم الروائي بالمجال الريفي ،اهتماما بالغا ويخصه بثلاث روايات من أربع هي على التوالي :-

الاولى " ريح الجنوب" ،والثانية " نهاية الأمس " والرابعة والاخيرة في الصدور "الجازية والدراويش" أما المجال المديني ،فيخصه برواية واحدة هي الثالثة "بان الصبح " ،مع الاشارة الى أن العلاقة بين المجالين غير مقطوعة .

ويعود هذا الاهتمام الى أن الكاتب من أصل ريفي ،ولم يسكن المدينة الابعد الاستقلال ،وأن النزعة الريفية /نزعة جزائرية قوية عامة ، وهي بارزة حتى في المجال السياسي ،وذلك للدور الفذ ،الذي قام به الريف في الثورة ،ولأن الاغلبية الجزائرية أغلبية ريفية ،فبينما لا يمثل السكان المدينيون الآن الا 45 ٪ فان السكان الريفيين يشكلون نسبة 55 ٪ (1) ،فما بالك بالامس والمدن في أغلبها كانت مراكز فرنسية ليس فيها غير أقلية جزائرية ،ولأن التناقضات المتطرفة متوفرة في الريف ويمكن فحصها من الجذور ،حيث أن التخلف فيه يوجد بالحد الاقصى .

والكاتب حين يكتب عن الريف ،يدخل فيما هو خاص وحميم ،فالقرية التي يصورها في رواياته هي قريته بالذات والأوصاف الموجودة في قصة الاغنية القديمة (2) هي نفسها الأوصاف الموزعة على القرية في " ريح الجنوب " ،وفي " نهاية الامس " ،وهذا يشكل صدقه الغني ويجعله في مستوى عال ،لانه لا يتعامل مع ما هو ناء عنه ، بل بالعكس ، ويكتب عما هو واقعي ،عام وأساسي ونموذجي ،فالريف الذي

---

1 - REVUE SCIENCE ET VIE JANVIER 1985 MENSUELLE N° 808 . P : 20 ET 21 .

2 - الكاتب وقصص أخرى . ص : 103 .

صوره ليس ريفا خياليا ذاتيا ،ثانويا ،وهو يرتفع به الى درجة الرمز فيجعله صورة للعالم الثالث بأكمله ،وخاصة في رواية "الجازية والدراويش فالظاهرة الريفية ترفع من مكانته لأن التركيز على موضوع بعينه ،والبحث فيه باستمرار يمنحه العمق .

وعن الأسلوب اتسمت قدرة الكاتب لتوظيف تيارات مستوردة ،مع السير نحو ارساء تقنية عربية متميزة ،تستجيب للبنية المركبة المهتزة لمجتمعنا ،ولذا فقد اختلفت آراء النقاد أيما اختلاف حول تصنيفه في اطار تيار محدد .

وفي رأيي أن المنظور الحضاري هو المنظور الذي انتهى اليه الروائي ،وأنه قد آن الأوان ،لارجاع الأمور الى أصولها ، في الابداع والنقد معا .

وأهمية ابن هدوقة تتجلى في هذا المنظور الصادق ،كما تتجلى في غزارة انتاجه فهو قد نشر في ست عشرة سنة من 1959 الى 1985 ، ثلاثة عشر عملا بين ،روايات ومجموعات قصصية ،وترجمات ،ودراسة وديوان شعر ،علاوة على حوالي 200 تمثيلية مذاعة ،وقد كان حظ الروايات أربع في اثنتى عشرة سنة .

وقد نال اهتماما واسعا في الخارج ،أكثر مما ناله في الداخل ورواياته قد ترجمت الى الهولاندية ،والألمانية ،والروسية ، والصينية ، والأسبانية ،والسلوفانية ،والبولونية ،والفرنسية ،والبوسمانية (لغة يوغسلافية) .

وقد اعتمد الكاتب في بنائه الروائي على المزاوجة بين الواقعي والرمزي ،وحتى الأسطوري أحيانا (في الجازية والدراويش) .

في قصص متعددة ذات وحدة مفككة ، تعكس مواقف شتى ،وتعرض وجهات النظر المختلفة في القضية الواحدة ،كما يفعل الوجوديون ، بحيث يتركون القارئ في حيرة ، مستشارا للنفاذ الى ما يزخر به العمل من اتجاهات .

ويوظف الكاتب وسائل التغريب المسرحية البريشتية ، من تكرار للأحداث ،يمزج بين الواقعي والرمزي ،لتوفير الايقاع الذهني ،ومن ازدواج الشخصية ،وتضمين الشعر ،والافادة من وسائل الاخراج في دور الخيالة (الوصف الظاهري للنزعة السلوكية) ،وهي وسائل أعتقد أن لها عراقتها في تراثنا .

وفي " نهاية الامس" يوظف الكاتب (الفلاش باك) توظيفا خاصا مطولا يرصد فيه ذكريات الشخصية ،وهو أسلوب السيرة الذاتية في الغالب، وللتراجم في أدبنا العربي ، وفي الأدب العالمي عامة مكانتهما وقد أراد الكاتب من خلال هذا الأسلوب تصوير وحدة الانسان ليلا ،وانبعاث الماضي، وقد قطع بذلك التسلسل الكلاسيكي كما اخترقه أيضا بحكاية فصل في الزمن الماضي - الفصل الثالث - عكس باقي الفصول المروية من خلال الفعل المضارع والزمن الحاضر .

وفي "بان الصبح " يطوع الكاتب البناء الروائي للعرض التلفزيوني بحيث يكتبها في أربعة عشر فصلا ،يغلب عليها الحوار كأسلوب أساسي.

وفي " الجازية والدراويش " لا يهندس الكاتب الرواية على أساس من العرض الزمني المستسلسل ، بل يبدأ من النهاية والبداية مترددا بين زمنين ،زمن تغلب عليه الفردية (الزمن الأول) ،وزمن تغلب عليه الجماعية . (الزمن الثاني) مطورا الرواية كلوحة زيتية تتشكل بالتدريج في خطوط

متشابكة " ،نصفها بضمير المتكلم ،ونصفها بضمير الغائب .

والنهايات عند عبد الحميد بن هدوقة نهايات مفتوحة في الغالب ، ونهاية مزدوجة في نهاية الأمس ،نهايات تخترق العرض الزمني وتشرك القارئ المعاصر في الابداع وتجعل الرواية ،رواية بحث لا رواية حلول مستهلكة .

وقد أجاد الكاتب في توظيفه للتراث ، والطبيعة ،وتطوير لغته وتنويع أسلوبه . . . الخ . .

ومن " ريح الجنوب " الى " نهاية الأمس " الى "بان الصبح ، الى " الجازية والدراويش " نجد الروائي قد قطع شوطا كبيرا ناجحا ،وخطا بيانيا صاعدا ،انتهى الى تجلية منظوره الحضاري مضمونا وشكلا .

المصادر والمراجع والدوريات العربيـــــة

1) المصـــادر :

1 - ريح الجنوب الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ط 3 منقحـة 1976 .

2 - نهاية الأمس الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ط 2 1978 .

3 - بان الصبح الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1980 (1) .

4 - الجازية والدراويش المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1983 .

2) المراجـــع :

1 - أبحاث الندوة العلمية الثانية من 3 الى 9 نوفمبر 1969 الجزائر، دراسات عن الطبقة العاملة في البلدان العربية العدد 3 ،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع مارس 1982 .

2 - ابن خلدون مقدمة ابن خلدون ،كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر مطبعة عبد الرحمن محمد القاهرة .

3 - أبو النجا حسين ،معالم الاشتراكية العربية في منظور الاقتصاد الاسلامي دار المسيرة ط 1 1980 .

4 - اسماعيل غموقات ،الشمس تشرق على الجميع الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر .

1 - هناك مصادر ومراجع تهمل الطبعة أو التاريخ ولا مناص من تركها كذلك .

5 - الأعرج واسيني اتجاهات الرواية العربية في الجزائر رسالة لنيل درجة الماجستير 81/82 ،جامعة دمشق كلية الآداب قسم اللغة العربية وآدابها اشراف د عبد الكريم الأشتر مكتبة الخنساء .

6 - الخطيبي عبد الكبير ، النقد المزدوج دار العودة بيروت .

7 - الشرباصي أحمد ،سيألونك في الدين والحياة المجلد الرابع ،دار الجيل ،بيروت ط 2 . 1980 .

8 - القش سهيل ،في البدء كانت الممانعة ،مقدمة في تاريخ الفكر السياسي العربي دار الحداثة بيروت ط 1 . 1980 .

9 - النساج سيد حامد ،بانوراما الرواية العربية الحديثة ، المركز العربي للثقافة بيروت ط 1 . 1982 .

10 - الهواري أحمد ابراهيم ،نقد الرواية في الأدب العربي الحديث في مصر دار المعارف جمهورية مصر العربية ط 1 . 1978

11- بامية عايدة أديب ، تطور الأدب القصصي الجزائري 1925- 1967 ترجمة الدكتور صقر ،ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1982 .

12 - بن نبي مالك ،ميلاد مجتمع الجزء الأول شبكة العلاقات الاجتماعية ترجمة عبد الصبور شاهين القاهرة ط 1 1962 .

13 - بن هدوقة عبد الحميد ، الكاتب وقصص أخرى الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ط 2 منقحة .

14 - بن هدوقة عبد الحميد ،الأشعة السبعة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ط 2 1981 .

15 - بن هدوقة عبد الحميد ،الأرواح الشاغرة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع مطبعة دار البعث قسنطينة . 1967 .

16 - بوشحيط محمد ،الكتابة في لحظة وعي ،المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1984 .

17 - خورشيد فاروق ،في الرواية العربية عصر التجميع دار الشروق دار القاهرة ،دار بيروت ،دار جدة ،ط2 مزيدة ومنقحة 1975 .

18 - ركيبي عبد الله ،تطور النثر الجزائري 1830 - 1974 المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم . معهد البحوث والدراسات العربية 1976.

19 - زغيب هنري ،الأدب الرمزي ،ترجمة ،منشورات عويدات بيروت باريس ط 1 ،1981 .

20 - سالم جورج المغامرة الروائية دراسات في الرواية العربية منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق . 1973 .

21 - سويزي بول - هبو برمان ليو وآخرون ،الامبريالية وقضايا التطور الاقتصادي في البلدان المتخلفة دراسة بعنوان ملاحظات في ذكري رأس المال ترجمة عصام خفاجي ابن خلدون للطباعة والنشر والتوزيع 1974 ط 2 1980 .

22 - شكري غالي ،مذكرات ثقافة تحتضر دار الطليعة ،بيروت ط1 ،1970.

23 - طاهر علي جواد ،مقدمة في النقد الأدبي ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ط1 ،1937.

24 - عامر مخلوف ،تجارب قصيرة وقضايا كبيرة ،مقالات نقدية ،المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1984 .

25 - عامل مهدي مقدمات نظرية لدراسة الفكر الاشتراكي في حركة التحرر الوطني ،في التناقض 2 ،في نمط الانتاج الكولونيالي دار الفارابي بيروت ط 3 . 1980 .

26 - عرعار محمد العالي ،الطموح الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1978 .

27 - اللجنة المركزية للتوجيه . ميثاق الجزائر . مجموع النصوص المصادق عليها من طرف المؤتمر الأول لحزب جبهة التحرير الوطني طبع بمطبعة جريدة النصر قسنطينة .

28 - مرتاض عبد المالك ،النص الأدبي من أين والى أين ؟ ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر 1983 .

29 - مصايف محمد ،الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية والالتزام . الدار العربية للكتاب الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1983 .

30 - نجم محمد يوسف فن القصة بيروت للطباعة والنشر 1955 .

31 - هلال محمد غنيمي ،الأدب المقارن ،دار العودة ،ودار الثقافة بيروت . ط 5 .

32 - هلال محمد غنيمي ،الموقف الأدبي ،دار العودة بيروت . 1977 .

33 - هلال محمد غنيمي ،النقد الأدبي الحديث ،دار الثقافة ،دار العودة بيروت 1973 .

34 - عوارة سعيدة ،الواقعية في روايات عبد الحميد بن هدوقة ،والطاهر والطاهر ،رسالة لنيل درجة الماجستير أشرف عليها د/ محمد مصايف جامعة الجزائر معهد اللغة والأدب العربي 84 / 85 .

35 - وادي طه صورة المرأة في الرواية المعاصرة مركز كتب الشرق الأوسط القاهرة 1973 .

36 - وطار الطاهر - اللاز الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1974 .

3) الـــدوريـــــات :

1 - آمال السنة العاشرة العدد 51 - 52 الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائـــر 1980 .

2 - الموقف الأدبي العدد 116 كانون الأول 1980 .

3 - الموقف الأدبي العدد 85 أيار 1985 .

4 - عالم الفكر المجلد الثالث عشر العدد الرابع يناير فبراير مارس 1983 .

5 - الشعب عدد يوم 7 - 2 - 1982 الجزائر

6 - الشعب عدد يوم 8 - 2 - 1982 الجزائـر

7 - الشعب عدد يوم 9 - 2 - 1982 الجزائـر

8 - الوطن عدد 11 أفريل 1984 الكويـــت

4 - مـــراجـــع أخرى :

1 - مقابلتي الأولى للكاتب بتاريخ 25 - 4 - 1983

2 - مقابلتي الثانية للكاتب بتاريخ 16 - 5 - 1985

3 - مكالمتي الهاتفية للكاتب بتاريخ ديسمبر 1985

4 - رسالة من الكاتب للسيد عطية أبو النجا ،بتاريخ 3 مارس 1985 .

5 - عبد الحميد بن هدوقة ،مطبوعة معلومات بيبلوغرافية الجزائـــر 5 مارس 1985 .

6 - عبد الحميد بن هدوقة مطبوعة سيرة ذاتية الجزائر 1984 .

7 - عبد الحميد بن هدوقة مطبوعة معلومات بيوغرافية وبيبلوغرافيـة الجزائر فيفري 1983 .

المراجع والدوريات الأجنبية

1- MOSTEGHANEMI AHLEM EL RASSI : LA FEMME DANS LA LITTERATURE ALGERIENNE CONTEMPRAINE TOME I THESE POUR LE DOCTORAT DE 3eme CYCLE ECOLE DES ETUDES EN SCIENCES SOCIALES 1980 .

2- EL MOUDJAHID No 4265 LUNDI 19 MARS 1979 .

3- EL MOUDJAHID No DU 18 SEPTEMBRE 1984 ALGER .

4- EL MOUDJAHID No DU 15 JUILLET 1984 ALGER.

5- REVUE SCIENCE ET VIE JANVIER 1985 MENSUELLE No 808 .

فهـــرس تفصيلـــي

فهـــــرس عـــــام